

(١٢٩١)

عادة القرآن

ما استنبطه العلماء من قواعد القرآن

د/ يوسف بن حمود الحوشان

١٤٤٥هـ

نسخة أولية من غير ترتيب او مراجعة

ومتاح لكل أحد الاستفادة منها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله اما بعد

فهذه نصوص جمعت باستخدام برنامج شاملة وورد من برمجيات الدكتور سعود العقيل بواسطة المكتبة الشاملة

معتمدة على توظيف الكلمة المفتاحية وتوفير النصوص للباحثين لتحريرها والاستفادة منها وهي مشاعة لمن يستفيد منها

وسيتبعها نصوص أخرى يسر الله نشرها والله الموفق

يوسف بن حمود الحوشان

yhoshan@gmail.com

تليجرام https://t.me/dralhoshan

WWW.NSOOOS.COM

"ص -٤٨٠- وأما قولك : ﴿ذلك عيسى ابن مريم قول الحق ﴾ [مريم : ٣٤] ففيه قراءتان مشهورتان : الرفع والنصب، وعلى القراءتين قد قيل : أن المراد بقول الحق : عيسى؛ كما سمي كلمة الله . وقيل : بل المراد هذا الذي ذكرناه قول الحق؛ فيكون خبر مبتدأ محذوف، وهذا له نظائر؛ كقوله : ﴿سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ﴾ [الكهف : ٢٢] الآية ﴿وقل الحق من ربكم ﴾ [الكهف : ٢٩] أي : هذا الحق من ربكم، وإن أريد به عيسى فتسميته قول الحق كتسميته كلمة الله وعلى هذا فيكون خبرا وبدلا .

وعلى كل قول فله نظائر فالقول في تسميته مجازا كالقول في نظائره .

والأظهر أن المراد به أن هذا القول الذي ذكرناه عن عيسى ابن مريم قول الحق إلا أنه ابن عبد الله يدخل في هذا . ومن قال : المراد بالحق الله؛ والمراد قول الله : فهو وأن كان معنى صحيحا فعادة القرآن إذا أضيف القول إلى الله أن يقال : قول الله، لا يقال : قول الحق إلا إذا كان المراد القول الحق، كما في قوله : ﴿قول الحق ﴾ [مريم : ٣٤] وقوله : ﴿والله يقول الحق ﴾ [الأحزاب : ٤] وقوله : ﴿فالحق والحق أقول ﴾ [ص : ٨٤]

ثم مثل هذا إذا أضيف فيه الموصوف إلى الصفة، كقوله : ﴿وحب الحصيد ﴾ [ق : ٩] وقولهم : صلاة الأولى ودار الآخرة، هو عند كثير من." (١)

"بمثل ذلك، فهذا يعلم بالعادة والعرف (١) المستقر (٢) في خطاب المخاطب، كما يعلم معاني الألفاظ بالعادة المستقرة (٣) لأهل تلك اللغة: أنهم يريدون ذلك المعنى.

وإذا كان كذلك؛ فالخطاب بصيغة الجمع قد تنوعت عادة القرآن فيها: تارة تتناول الرسول - صلى الله عليه وسلم -، وتارة لا تتناوله، فلا يجب أن يكون هذا الموضع مما تناوله (٤) وغاية ما يدعي المدعي أن يقال: الأصل شمول الكاف له، كما يقول: الأصل مساواة أمته له في الأحكام، ومساواته لأمته في الأحكام، حتى يقوم دليل التخصيص. ومعلوم أن له خصائص كثيرة خص بها عن أمته. وأهل السنة يقولون: من خصائصه أنه لا يورث، فلا يجوز أن ينكر اختصاصه بهذا الحكم إلا كما ينكر اختصاصه (٥) بسائر (٦) الخصائص، لكن للإنسان أن يطالب بدليل الاختصاص. ومعلوم أن الأحاديث الصحيحة المستفيضة، بل المتواترة [عنه] (٧) في (٨) أنه لا يورث، أعظم من الأحاديث المروية في كثير من خصائصه، مثل

---

(١) مجموع الفتاوى ٨٢/

اختصاصه بالفيء (٩) وغيره.

---

(١) أ، ب: والفرق، وهو تحريف. وهنا تعود نسخة (م) .

(٢) ن، م: المستمر.

(٣) ن، م: المستمرة.

(٤) ب (فقط) : مما تناولته.

(٥) (٥ - ٥) : ساقط من (أ) ، (ب) .

(٦) أ، ب: كسائر.

(٧) عنه: ساقطة من (ن) ، (م) .

(٨) في: ساقطة من (أ) ، (ب) .

(٩) أ، ب، م، و: بالصفى؛ ن: بالصفا." (١)

"فكثيرا ما يقع في كلام السلف الوصية بالتضمر لاقتحام العقبة وقال بعض الصحابة وقد حضره الموت فجعل يبكي ويقول مالي لا أبكي وبين يدي عقبة كؤود أهبط منها إما إلى جنة وإما إلى نار فهذا القول أقرب إلى الحقيقة والآثار السلفية والمألوف من عادة القرآن في استعماله وما أدراك في الأمور الغائبة العظيمة كما تقدم والله أعلم

فصل

ومن ذلك أقسامه ﴿والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين﴾ فأقسم سبحانه بهذه الأمكنة الثلاثة العظيمة التي هي مظاهر أنبيائه ورسله أصحاب الشرائع العظام والأمم الكثيرة فالتين والزيتون المراد به نفس الشجرتين المعروفتين ومنبتهما وهو أرض بيته المقدس فإنها أكثر البقاع زيتونا وتينا وقد قال جماعة من المفسرين أنه سبحانه أقسم بهذين النوعين من الثمار لمكان العزة فيهما فإن التين فاكهة مخلصة من شوائب التنغيص لا عجم له وهو على مقدار اللقمة وهو فاكهة وقوت وغذاء وأدم ويدخل في الأدوية ومزاجه من أعدل الأمزجة وطبعه طبع الحياة الحرارة والرطوبة وشكله من أحسن الأشكال." (٢)

---

(١) منهاج السنة النبوية ابن تيمية ٤/٢٠٧

(٢) التبيان في أقسام القرآن ابن القيم ص/٤٣

"وقال أيضا: يبعث المسلم مسلما والكافر كافرا.

وقال أبو العالية: عادوا إلى علمه فيهم: ﴿فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة﴾ [الأعراف: ٣٠] .

وهذا يتضمن إثبات علمه، وقدره السابق، وأن الخلق يصيرون إليه لا محالة، وكون هذا مراد الآية غير متعين، فإن الآية اقتضت حكمين:

أحدهما: أنه يعيدهم كما بدأهم على عادة القرآن في الاستدلال على المعاد بالبداءة.

والثاني: أنه سبحانه هدى فريقا وأضل فريقا، فالأمر كله له: بدؤهم وإعادتهم، وهداية من هدى منهم وإضلال من أضل منهم، وليس في شركائهم من يفعل شيئا من ذلك.

وأما أمر الملك " «بكتب شقاوة العبد وسعادته في بطن أمه» " وقوله." (١)

"كأنه ينظر إلى ما أخبر به من الغيب من وراء ستوره وهذا لكمال البصيرة وهذا أفضل مواهب العبد وأعظم كراماته التي يكرم بها وليس بعد درجة النبوة إلا هي ولهذا جعلها سبحانه بعدها فقال: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين﴾ وهذا هو الذي سبق به الصديق لا بكثرة صوم ولا بكثرة صلاة وصاحب هذا يمشي رويدا ويجيء في الأول ولقد تعناه من لم يكن سيره على هذا الطريق وتشميره إلى هذا العلم وقد سبق من شمر إليه وإن كان يزحف زحفا ويحبو حبوا ولا تستطل هذا الفصل فإنه أهم مما قصد بالكلام فليعد إليه فقيل تقديم السمع على البصر له سببان أحدهما أن يكون السياق يقتضيه بحيث يكون ذكرها بين الصفتين متضمنا للتهديد والوعيد كما جرت عادة القرآن بتهديد المخاطبين وتحذيرهم بما يذكره من صفاته التي تقتضي الحذر والاستقامة كقوله: ﴿فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم﴾ وقوله: ﴿من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعا بصيرا﴾ والقرآن الكريم مملوء من هذا وعلى هذا فيكون في ضمن ذلك أني أسمع ما يردون به عليك وما يقابلون به رسالاتي وأبصر ما يفعلون ولا ريب أن المخاطبين بالرسالة بالنسبة إلى الإجابة والطاعة نوعان أحدهما قابلوها بقولهم صدقت ثم عملوا بموجبها والثاني قابلوها بالتكذيب ثم عملوا بخلافها فكانت مرتبة المسموع منهم قبل مرتبة البصر فقدم ما يتعلق به على ما يتعلق بالمبصر وتأمل هذا المعنى في قوله تعالى: لموسى ﴿إنني معكما أسمع وأرى﴾ هو يسمع ما يجيبهم به ويرى ما يصنعه وهذا لا يعم سائر المواضع بل يختص منها بما هذا شأنه والسبب الثاني أن إنكار الأوهام الفاسدة لسمع الكلام مع غاية البعد بين السامع والمسموع أشد من إنكارها لرؤيته مع بعده وفي الصحيحين

(١) أحكام أهل الذمة ابن القيم ١٠٣١/٢

عن ابن مسعود قال: "اجتمع عند البيت ثلاثة نفر ثقفيان وقرشي أو قرشيان وثقفي فقال أحدهم: أترون الله يسمع ما نقول فقال: الآخر يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا فقال الثالث: إن كان يسمع إذا جهرنا فهو." (١)

"وأيضا فمن علامات المكى: أن يغلب فيه الخطاب والتعبير ب (يا أيها الناس) ونحوها من ألفاظ العموم، على حين أن الخطاب والتعبير يغلب فى المدنى أن يكون ب (يا أيها الذين آمنوا) ونحوها.
والناظر فى مقاصد السورة الكريمة يراها بحال المكيين وموقفهم أخلق، فنحن نرجح القول بمكية معظمها، والله أعلم.

[عدد آيات السورة]
وعدد آياتها: ثلاث وأربعون عند الكوفيين، وخمس وأربعون عند الشاميين.
والسبب فى ذلك: اختلافهم فى أن الآية الأولى: المر تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك من ربك الحق، أو أن (المر) وحدها آية، و (تلك آيات الكتاب) آية ثانية، وما بقى بعد ذلك آية ثالثة، فعلى الأول هى ثلاث وأربعون، وعلى الثانى هى خمس وأربعون مع الاتفاق على جواز الوقف، بل على استحسانه فى كل موضع من هذه المواضع.

المقاصد العامة فى السورة:
عرضت السورة الكريمة لتقرير عظمة الخالق، وإثبات المعاد، والرد على منكريه مع التقديم لذلك بعرض الأدلة من ظواهر هذا الكون العجيب، والتقفية (١) بضرب الأمثلة الرائعة لكل من الحق والباطل.
ثم عرضت بعد ذلك لقسمى المؤمنين والمخالفين، وأوصاف كل منهما، والأخلاق التى تبنتها فى نفسه العقيدة وتنميها، وجزاء كل من الفريقين فى الدنيا والآخرة، ثم تثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم وارتقاب يوم الفصل الذى يعلم فيه الجاحدون لمن عقبى الدار.
وتستطيع أن تجمل هذه المقاصد السامية فى أنها: إثبات التوحيد والمعاد، وبيان ما ينتج من الإيمان بهما من أخلاق فاضلة وجزاء حسن كريم، والمقابلة بين ذلك وضده كما هى **عادة القرآن.**

---

(١) بدائع الفوائد ابن القيم ٧٣/١

(١) التقفية أى المتابعة: انظر: مختار الصحاح ص ٥٤٧.." (١)

"للشوق والرغبة في المعرفة، كما في قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم (الصف ١٠). ولأنها تدل على القليل والكثير كانت بعد النفى لقصد العموم وعلى ذلك قوله تعالى: ذلك الكتاب لا ريب فيه (البقرة ٢).

وتحدث العلماء عن تنكير السلام الصادر من الله في قوله سبحانه: سلام قولا من رب رحيم (يس ٥٨). وقوله: سلام على نوح في العالمين (الصافات ٧٩). وقوله:

سلام على إل ياسين (الصافات ١٣٠). وقوله: وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا (مريم ١٥). وقوله: قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك (هود ٤٨). والذى أحسه فى هذا التعبير أن المقام هنا يدل على تعظيم هذا السلام الصادر منه سبحانه، والمقام ينبئ بهذا التعظيم ويشير إليه.

وتستخدم ألوان المعارف في القرآن الكريم في مواضعها الدقيقة الجديرة بها:

فيستخدم الضمير الذى يجمع بين الاختصار الشديد، والارتباط المتين، بين جمل الآية بعضها وبعض، ومن روائع استخدام ضمير المخاطب، أن يأتى به مخاطبا كل من يستطاع الخطاب معه، عند ما يكون الأمر من الوضوح بمكان، ومن ذلك قوله تعالى: ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون (السجدة ١٢).

وقوله تعالى: ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب (سبأ ٥١). فكأن سوء حالهم من الوضوح لدرجة ظهوره لكل أحد.

وعادة القرآن في ضمائر الغيبة أنها تتفق إذا كان مرجعها واحدا، حتى لا يتشتت الذهن ولا يغمض المعنى، ولذا كانت الضمائر كلها تعود إلى موسى، فى قوله سبحانه: إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى (٣٨) أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني (طه ٣٨، ٣٩). وما بعدها. وليس من قوة النظم في شيء أن يعود بعض هذه الضمائر على موسى وبعضها الآخر على التابوت. كما تعود الضمائر كلها إلى الله في قوله تعالى:

لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا (الفتح ٩).

فإن اتحد الضميران، وكانا يعودان إلى مختلفين، كان المقام يحددهما تحديدا واضحا؛ ومن ذلك قوله

(١) نظرات في كتاب الله، حسن البنا ص/٣٤٣

سبحانه: سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم ما ي◌علمهم إلا قليل فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم أحدا (الكهف ٢٢). فضمير فيهم يرجع إلى أهل الكهف، وضمير منهم يرجع إلى ما رجع إليه ضمير سيقولون.." (١)

"تفسير قوله تعالى: (إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم)

وتلك الحياة الدائمة وجد من أنكرها فكفر بيوم البعث والنشور، ولذا قال تعالى: ﴿إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون﴾ [النمل:٤].

وهذه عادة القرآن الكريم، ليبقى المؤمن بين الخوف والرجاء، فيجمع الله بين عمل المؤمنين وعمل الكافرين، وبين عذاب الكافرين وبين الرحمة للمؤمنين.

يقول تعالى: ﴿إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون﴾ [النمل:٤]، فالذين لا يؤمنون بالآخرة ولا يؤمنون بيوم القيامة ولا يؤمنون بالحياة بعد الموت ولا يؤمنون بالبعث، وأصروا على شركهم؛ يزين الله تعالى لهم أعمالهم عذابا ومحنة.

((فهم يعمهون)) أي: يعيشون في أمان وفي حيرة وفي تردد وفي ضياع، فيحاولون أن يؤمنوا بذلك ثم يشكون.

ولذلك فهم عمي صم بكم يعيشون عيشة الأعمى، الذي لا يعرف طريقا أمامه أو خلفه.." (٢)

"نبذة مختصرة عن كعب الأحبار

وكعب الأحبار أدرك حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن أربعين عاما ولم يأت مسلما، ولم يبحث عن اللقاء به، وما جاء إلا بعد أن استقرت الأحوال بالإسلام عقيدة ودينا ودولة أيام عمر، أي: لم يأت أيام أبي بكر، وكانت الفتن قائمة وارتد من ارتد ومنع الزكاة من منعها وادعى النبوة من ادعاها، وإذا بـ أبي بكر يؤدب الخارجين ويجبر المرتد على العودة للإسلام، ويقتل مسيلمة الكذاب ثم يجمع المسلمين جميعا فجندهم وجعلهم جيوشا موزعة إلى أرض الروم وأرض فارس، فلم يكن لـ كعب أن يأتي في مثل هذه الظروف؛ لأنه قد يفصل فيها رأسه عن جسده، وجاء أيام عمر وأخذ يظهر الكثير من علمه ومعرفته وينقل عن التوراة وعن أهل الكتاب أخبارا، والتوراة معروفة، والإنجيل بنسخه الأربع معروفة متداولة بين الناس قديما وحديثا،

---

(١) من بلاغة القرآن، أحمد أحمد بدوي ص/١٠٤

(٢) تفسير الم نتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ٦/١٣٠

غيرت وبدلت في العصور الأولى، وعندما نزل القرآن كان قد انتهى تبديلها وتغييرها على الشكل الذي نراه. وإذا بنا نجد أن الكثير مما يعزو كعب إلى التوراة ليس فيها، ومما يعزوه إلى الإنجيل ليس فيه، ووجدنا أنه قد حصل الشك عند استشهاد عمر وقتله أن ذلك كان نتيجة مؤامرة، وقد قيل: قد كانت تحت إدارة كعب الأحبار الذي كان من أصل يهودي وكان حبرا من أحبارهم، وقد سأله يوما العباس عم النبي عليه الصلاة والسلام: كيف يا كعب! في سنك ونضج عقلك لم تأت لرسول الله وهو حي فتكرم وتتشرف برؤيته والاجتماع به وتصبح ضمن أصحابه؟ ما الذي أخرك؟ فأجاب بما لا يقبل.

وقالت عائشة عنه يوما: إنا لنبلو عنه الكذب، وقد أخذه عمر معه يوم فتح القدس وأبى بطارقة القدس أن يسلموا مفتاح المدينة إلا للخليفة الأعظم، فوجد عمر أنه لا مانع من حضوره بنفسه وجاء وعلم مكان الأقصى فمسحه ونظفه بردائه وتبعه جميع من معه من الصحابة والجند، وكان معه كعب فقال لـ كعب: أين ترى نصلى يا كعب؟! وكانت قد عرفت الصخرة فقال له كعب: نصلي خلف الصخرة ونجمع بين قبلة بني إسرائيل وقبلة المسلمين، وإذا بـ عمر يقول له: لقد ضاهيت اليهودية يا كعب! بل ندع الصخرة خلفنا ونستقبل الكعبة ما لنا ولصخرة اليهود، وقد سأله بذلك أيضا معاوية بن أبي سفيان عندما كان خليفة على المسلمين بعد سنة أربعين هجرية واستشهاد علي كرم الله وجهه.

ويخبر الله عن ذي القرنين أنه أعطي من الأسباب والتمكين، فقال كعب: كان يصل بجنده وجيوشه ويربط خيوله في الثريا، وأين الثريا؟ وأين الأرض؟ فقال عمر عنه: إنا لنبلو عنه الكذب.

فكان عمر يتهمه بالكذب وبالاختلاق، وهكذا نجد الكثير ممن زعم الإسلام ممن كانوا من أصول كتابية وكان على رأسهم كعب ثم يأتي بعد ذلك ربيبه وابن زوجته نوف البكالي.

فـ ذو القرنين لم يكن ملكا ولا نبيا، وإن كان ستأتي معنا آية يشير ظاهرها إلى أنه نبي، ولكن الجمهور والكثرة الكاثرة على أنه لم يكن نبيا ومن باب أولى لم يكن ملكا، ولم يكن للملك أن يتصل بالبشر على هذه الطريقة فيحكموه ويطوف بين المشارق والمغارب وبين السدين، ولقد كان كما قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فيما رواه الضياء المقدسي في كتابه المختارة وهو من أصح الكتب، وقد صحح فيه أحاديث انفرد بتصحيحها، وسلم ذلك له من أئمة الحديث وحفاظه وعلمائه، قال عنه: لقد كان عبدا صالحا ناصحا لله فمكن له في الأرض.

إذا: نحن نتكلم عن ذي القرنين الذي ملكه الله العالم من مشرق الشمس إلى مغربها وما بينهما، وأعطاه من كل ما يعطاه الملوك من الأسباب الموطدة لملكه والممكنة له في الحكم والسلطان والأمر والنهي

والتصرف في رقاب هؤلاء البشر ملوكا وأجناسا شعوبا وقبائل.
قال تعالى: ﴿قل سأتلوا عليكم منه ذكرا﴾ [الكهف:٨٣]، أي: قل يا محمد! طالما وقد سألتم فهذا هو الجواب، وسأتلو عليكم منه نبذة تعطي صورة عن حياته.
وأتى الله بقصته **كعادة القرآن**، أن الله يأتي بالقصص لأخذ العبرة والدرس منها، لا ليقص علينا قصصا تكون للسمر وللسلوى والسهر، ولذلك قلما تذكر الأسماء والتاريخ والعشيرة والأقوام، والحكمة تؤخذ كاملة مما قصه الله علينا في كلامه عن ذي القرنين.." (١)
"مقدمة بين يدي سورة سبأ
سورة سبأ سورة مكية، فقد نزل بها الروح الأمين عن رب العزة جل جلاله على قلب نبينا خاتم الأنبياء عليه أزكى الصلاة وأتم التسليم، وكان ذلك في مكة المكرمة مسقط رأسه الشريف، ومنزل الوحي الأول، وبيت الله الحرام، ومركز الكعبة المشرفة، ومناسك الحج المقدسة.
والجمهور يقولون: هي مكية إلا آية، وزعم قوم -بعد أن أجمعوا على أنها مكية- أن هذه الآية مدنية، والآي في أكثرها تدل على أنها مكية.
ولكن من سبأ الذي سميت به السورة؟ جاء من يسأل رسول الله عليه الصلاة والسلام: (ما سبأ يا رسول الله! أرجل هو أو امرأة أو أرض؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم: هو رجل كان له عشرة أولاد، تيامن منهم ستة وتشاءم أربعة)، أي: ستة ذهبوا لليمن، وأربعة ذهبوا إلى الشام.
قال النسابة: هو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، ولذلك أكثر ما يقال عن عرب اليمن: القحطانية، ومنهم ملوك سبأ، ومنهم بلقيس صاحبة سليمان في القصة التي مضت، وأخذنا منها العبر والحكم والأحكام.
وهذا الاسم هو من باب تسمية الكل باسم البعض، وذلك في الآية الخامسة عشرة: ﴿لقد كان لسبإ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور * فأعرضوا﴾ [سبأ:١٥ - ١٦]، فعندما أعرضوا عن النعم والمغفرة أصابهم الله بما أصابهم به.
هذه السورة التي سميت بسبأ، سيقص الله علينا فيها قصته مع ما يتخللها على **عادة القرآن** الكريم من حكم وعبر وأحكام وآداب ورقائق، ونحن مع القرآن ومع السنة الطاهرة وخاصة في كتاب الله يجد الدارس والتالي والعالم والطلاب يجدون أنفسهم في روض فيه من كل ثمرة زوجان.

---

(١) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ٣/١٥

ففيها صفات الله ونعوته الكريمة، وتحدثت عن الأنبياء وكيف أكرمهم الله بالنبوءة وأوحى إليهم، وعن الأمم السابقة العاصية والمطيعة، وقصة بدء الخليقة منذ خلق آدم من تراب وإلى يوم القيامة، وعن الحلال و الحرام، والآداب والرقائق والقصص، فلا تجد المدرس ولا الطلاب يملون منها؛ لأنهم يتنقلون من زهرة إلى وردة، إلى عسل إلى ثمرات طيبات في كتاب الله.

وعن نفسي أقول قبل أن أقول عنكم: عندما أدرس كتابا مصنفا على طريقة كتب الفقه، وأجد نفسي أبقى في أبواب الطهارة الشهور المتعددة، وقل مثل ذلك على بقية الأبواب، فإني أمل وأكل، وأما مع كتاب الله وسنة رسوله في المسانيد المرتبة على أسماء الرواة من الصحابة لا على أبواب الفقه، فالإنسان ينتقل من حديث في أول الخلق، إلى حديث في الله، إلى حديث في النبوءة، إلى أحاديث في الأحكام والحلال والحرام، وهكذا، فلا يمل، وهكذا نحن في كتاب الله، وقد أعاننا الله وتابعنا بيانه وشرحه ولنا إلى الآن تسع سنوات بنشاط وغبطة ولله الحمد، وعدم ملل البتة، وكما نرجو من الله الذي أعاننا في الماضي أن يعيننا في الآتي إلى إتمامه بفضله وكرمه.." (١)

"تفسير قوله تعالى: (يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث)

قال تعالى: ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾ [الحج:٥].

هذه الآية من أعظم الآي على قلة ألفاظها وبديع جملها كالقرآن كله فصاحة وبلاغة وجمع كلم، فقد جمعت فأوعت أطوار الإنسان ومراحله منذ الخلق الأول؛ منذ خلق أبينا آدم من تراب وإلى أن نعود بعد ذلك إلى التراب، في كلمات قليلة ذات معان كثيرة، وتحتمل هذه الآية وحدها مجلدات في التفسير والبيان. والأطباء لهم فيها قول، والأدباء لهم فيها قول، والشريعة بأحكامها لها فيها قول كشأن القرآن الكريم، فيأخذ منه كل عالم بإحدى فنون علم الإسلام مما هو في حاجة إليه، وإلى معرفته، وإلى بيانه: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ [الأنعام:٣٨].

قال تعالى: ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب﴾ [الحج:٥] إذا قال الله: يا أيها الناس! فالخطاب والدعوة لكل بني آدم وبنات حواء، فكل البشر يعد بذلك مخاطبا، ويعد بذلك

---

(١) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ٢/٢١٥

مبلغا، وتلزمه الحجة البالغة إذا هو تمرد وإذا هو عصى وإذا هو خالف.

وإذا قال الله: يا أيها الذين آمنوا! كان الخطاب للمؤمنين، **وعادة القرآن** الكريم ينادى بيا أيها الناس! في أصول الخلق والشريعة والدعوة إلى التوحيد، وإلى الإيمان بالله ورسله في أصول الإسلام، وأصول الديانة.

وإذا قال: يا أيها الذين آمنوا! فهو نداء للمؤمنين ليستجيبوا لفروع الشريعة ولأحكامها، أو يزدادوا إيمانا وتمسكا بأمور عقائدهم.

وهنا الخطاب للناس جميعا: ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث﴾ [الحج:٥] يا هؤلاء الناس! مؤمنهم وكافرهم، المؤمن بالبعث والكافر بالبعث، ويا هؤلاء! الذين لا يزالون في شك وفي ريب من البعث والخلق الثاني بعد الخلق الأول، والحياة الثانية بعد الموت والنشور والعرض على الله إما إلى جنة وإما إلى نار: إن كنتم لا تزالون في ريب وفي شك فاسمعوا قصة الإنسان وحياة الإنسان، والأطوار التي تطور فيها الإنسان منذ كان ترابا وقبل أن يخلق إلى أن عاد ترابا ثم حيا ثم يبعث بعد الموت.

قال تعالى: ﴿فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا﴾ [الحج:٥] هذه هي الأطوار البشرية منذ التراب وإلى التراب وإلى البعث بعد الموت: ﴿فإنا خلقناكم من تراب﴾ [الحج:٥] فخلق أبانا الأول أصل مادتنا وكياننا ووجودنا، خلقه من تراب؛ من كل أنواع التراب في الأرض: خصبها وجافها، صحرائها ومنبتها، جبلها ووهادها، ومن هنا كانت أنواع السلالة والذرية أشكالا وألوانا، فالذكي والبليد، والأبيض والأسود، والطويل والقصير، ومن يعيش مدة ومن يزيد على ذلك، ومن يجهض قبل الولادة.

قال تعالى: ﴿فإنا خلقناكم من تراب﴾ [الحج:٥] خلق أبانا من تراب، ثم نفخ فيه من روحه فكان بشرا سويا، ثم خلق زوجته أمنا الأولى حواء عليهما السلام وعلى نبينا.

ثم كانت السلالة بعدهما من نطفة، والنطفة: هي القليل من الماء، فتطلق على الماء عموما، وكان من ذلك المني أصل البذرة البشرية بعد الخلقة الأولى من التراب.

قال تعالى: ﴿فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة﴾ [الحج:٥] (ثم) هنا على ترتيبها الزمني الوقتي، فكانت الخلقة الأولى من تراب، ثم الخلقة الثانية من نطفة من تزاوج بين ذكر وأنثى، فصب ماء من أصلاب الرجال إلى أرحام النساء فكون الوليد.

وهكذا منذ آدم وحواء وإلى عصرنا وإلى آخر مخلوق إلى يوم النشر، وإلى يوم النفخ في الصور، هكذا

الخلقة من ماء مهين.
قال تعالى: ﴿ثم من نطفة ثم من علقة﴾ [الحج:٥] والعلقة: هي القليل من الدم إذا قسا وتجمع، ولكنه بقي طريا أشبه بالعلقة وهي الحشرة المعروفة.
﴿ثم من علقة ثم من مضغة﴾ [الحج:٥] والمضغة: هي قطعة اللحم، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: (إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله؛ ألا وهي القلب) وهكذا الإنسان يبتدئ ترابا، ثم نطفة، ثم علقة، ثم مضغة مخلقة وغير مخلقة، مخلقة أي: كاملة تامة بتخطيط حواسها وجوارحها من عين وشفتين ومنخرين وأذنين ولسان ويدين ورجلين ورأس وشعر وفرج، وهكذا يخطط الإنسان وهو في رحم أمه في الطور الثالث، هذه المضغة تكون مضغة غير مخلقة، ثم تتحول إلى مخلقة، أي: تصبح تامة الخلقة، تامة الحواس، إنسانا كاملا ولكنه لا يزال جنينا في الرحم.
قال تعالى: ﴿مضغة مخلقة وغير مخلقة﴾ [الحج:٥] أي: تامة وغير تامة، فالتامة قد تأخذ سبيلها إلى التمام إلى أن تولد وتخرج للدنيا طفلا، وغير المخلق: أن يسقط ويجهض وهو لم يتم خلقه بعد، ولم تبن حالته، ولم يظهر بعد أذكر هو أم أنثى: ﴿فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة﴾ [الحج:٥].
ثم قال تعالى: ﴿لنبين لكم﴾ [الحج:٥] أي: قدرة ربكم على فعل كل شيء وصنع كل شيء، وخلق كل شيء، كيف جعل من التراب الميت إنسانا سويا، جميل الجوارح، جميل التقاطيع، فصيح اللسان، عاقل الفكر، متكلما، وإذا به يخلفه ثم جعله الله خليفة في الأرض، كما قال عن داود: ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض﴾ [ص:٢٦]، وقال: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾ [البقرة:٣٠].
وإذا بهذا التراب يتحول بقدرة الله على كل شيء إنسانا كاملا في أطوار من تراب إلى نطفة، إلى علقة، إلى مضغة، ثم بشرا طفلا صغيرا سويا، وقد خرج من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا.
قال تعالى: ﴿مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم﴾ [الحج:٥] أي: نبين لكم قدرة ربكم على فعل كل شيء وخلق كل شيء، وكيف قد خلق من الميت الحي، ومن الحي الميت، وصنع من التراب الهامد الذي لا يتحرك ولا حياة فيه بشرا سويا، ونشره في الأرض فأصبح سيد الخلق، والمحكم في الخليقة، فيأمر وينهى، ويقتل ويحيي بإذن الله إن كان عادلا، ويظلم ويسفك الدم الحرام إن كان ظالما.
قال تعالى: ﴿ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى﴾ [الحج:٥] أي: هذه المضغة غير المخلقة التي

تسقط وتجهض قبل خروجها للعالم.

وعلماؤنا وأطباؤنا جماهيرهم تقول: الجنين لا يبقى في رحم أمه أكثر من تسعة أشهر، ولكن الكثيرين يؤكدون ويقولون: قد يبقى الجنين في بطن أمه سنة كاملة وسنتين وأكثر.

وكثيرا ما يقول الناس في تراجم علماء وأقوام ورجال وسادة: أنه عاش في بطن أمه كما أخبرته أمه سنة وسنتين.

يذكر هذا عن أحياء، ويذكر هذا عن أموات، ويذكر عن كبار من الأئمة وعن صغار من الناس.

ثم قال تعالى: ﴿ثم نخرجكم طفلا﴾ [الحج:٥] ثم يخرجنا من الأرحام طفلا، وفي لغة العرب المفرد قد يطلق مذكرا على الجمع، أي: نخرجكم أطفالا.

قال تعالى: ﴿ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم﴾ [الحج:٥] لتصلوا وتبلغوا إلى الأشد، وإلى القوة وتمام الرجولة وتمام العقل، وتمام القوة، وتمام القدرة على الحياة بما ينفعك أو يضرك.

قال تعالى: ﴿ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى﴾ [الحج:٥] أي: منكم من يموت عند الشبيبة وعندما يبلغ الأشد، ومنكم من يموت طفلا، فقد يموت الإنسان شابا، وقد يموت كهلا، ومنهم من يزيد به العمر إلى أن يصير شيخا حاضر الذهن، حاضر الوعي، وقد يصل إلى أرذل العمر.

قال تعالى: ﴿ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر﴾ [الحج:٥] فيرد إلى خلقه الأول ضعيفا، فقد خلق عاجزا عن النطق وعن الوعي فيعود للعجز عن النطق وعن الوعي، ولذلك سمى الله هذه السن الفانية: أرذل العمر، أي: أقبح العمر وأقبح الأيام، وقد استعاذ بالله نبينا من ذلك عليه الصلاة والسلام، استعاذ بالله من الفقر، ومن الجوع، ومن الكفر، ومن بلوغ أرذل العمر.

وقد يصل الإنسان -ونشاهد هذا كثيرا وتشاهدونه- إلى مائة سنة وقد يتجاوز ذلك، وقد مات رجل صالح في أرض المغرب تجاوز المائة والعشرين سنة وهو على غاية ما يكون من الوعي والفهم والعقل، يسأل عن أحوال المسلمين في المشارق والمغارب، مما يدل على أنه مع هذه السن لا يزال واعيا، ذاكرا، متتبعا أحوال المسلمين، يهتم بهمومهم، فيفرح لفرحهم، ويحزن لحزنهم.

قال تعالى: ﴿ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم﴾ [الحج:٥] اللام هنا هي لام العاقبة، أي: ليصل إلى درج." (١)

---

(١) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ٢/٦٦

"تفسير قوله تعالى: (إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار)

قال الله عزت قدرته: ﴿إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير﴾ [الحج:٢٣].

بعدما قص الله علينا، وأنذر وأوعد وتهدد المشركين بأليم العذاب، وشديد المحنة، والخلود في النار بالمقامع ومع حريق وأنواع البلاء لعلهم يتعظون ويئوبون ويتوبون من شركهم، ويقولون يوما: ربي الله، وكما هي عادة القرآن الكريم، فإنه يقرن دائما بين العذاب والرحمة، وبين البشارة والنذارة، وبين المؤمن والكافر، حتى إذا اشتد يأس الكافر والعاصي والمخالف فإذا بالرحمة تذكر بجانب ذلك، فيتذكر ويئوب ويعود ويقول: ربي الله.

وكذلك المؤمن حتى لا يغتر ولا يستكين لمكر الله فيدخله الغرور والغلو، فيقصر في الطاعة والعبادة، فيجد من النذير والوعيد والتهديد ما يزيده طاعة وتعلقا وإيمانا بالله.

وهكذا الطاعة والعبادة بين الخوف والرجاء؛ الخوف من غضب الله، والرجاء في رحمته.

قال تعالى: ﴿إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ [الحج:٢٣] أي: الذين آمنوا بالله ربا، وبمحمد نبيا، ثم التزموا القول بالعمل، فعملوا الصالحات، وقاموا بالأركان: شهادة وصلاة وزكاة وصياما وحجا، والتزموا فعل الخيرات قدر استطاعتهم، والتزموا ترك المنكرات ألبتة، ومن آمن بالله، ثم عمل الصالحات بما يصدق قوله فعله وفعله قوله، فهؤلاء يكرمهم الله بدخول الجنات التي تجري من تحتها الأنهار مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا، والله جل جلاله دوما يبشر المؤمنين الملتزمين المطيعين بكل رحمة ورضا ودخول الجنان.

ثم قال تعالى: ﴿يحلون فيها﴾ [الحج:٢٣] أي: في الجنة يلبسون الحلية.

﴿يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا﴾ [الحج:٢٣] أساور: جمع سوار، كما هي عادة الملوك في هذا العصر، أو في القديم يلبسون التيجان والأساور واللآلئ، خاصة في أرض الهند وما إليها، ولا يزال بعض ذلك قائما، ولا يزال ذلك يفعلونه في حفلاتهم وندواتهم ومهرجاناتهم، واستبدلوا ذلك بساعات وسلاسل الذهب، ونياشين الذهب وأوسمة اللؤلؤ وما إلى ذلك.

فالمؤمنون الذين يكرمهم الله ويدخلهم الجنة يلبسهم في الجنة من أنواع الحلي والأساور من الذهب والفضة واللؤلؤ في الأيدي والأعناق والمعاصم، ويلبسون فيها الحرير.

كذلك في الجنان لباسهم الحرير والديباج، وحليتهم الذهب والفضة واللؤلؤ، ومن هنا حرم رسول الله صلى

الله عليه وسلم الحرير على ذكور المسلمين، وقال: (من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة).
فقال قوم: لا يدخلون الجنة لأن من دخلها يلبس الحلي، وقال قوم: بلى يدخلون الجنة ولكنهم لا يلبسون هذه الحلية الذهبية، وهذا جزاء من يخالف ويعصي، ويلبس الذهب والحرير في الدنيا.
وقد حرم ذلك على ذكور الأمة المحمدية، وأحل ذلك للنساء، ويلبسه الرجال يوم القيامة في الجنان خالدين مخلدين.
فهذا صفة الجنة وما فيها من حور عين.
وأعظم من ذلك رؤية الله جل جلاله التي ما بعدها لذة ولا نشوة ولا متعة، جاء في الحديث الصحيح: (أن الله يتجلى لعباده في الجنة فيقول لهم: هل أعطيتكم؟ هل ملكتكم؟ هل متعتكم؟ فيقولون: نعم ربنا، فيقول: هل أزيدكم؟ فيقولون: وما تزيدنا يا رب وقد أمتعتنا بما لم تر عين، ولا سمعت أذن، ولا خطر على قلوبنا؟ قال: بلى، أريكم وجهي، فيتجلى الله لهم ويرونه؛ فيزدادون نعمة ولذة، ويزدادون بهجة) وكيف سيكون ذلك؟ الله أعلم بما هناك.
وكل ما يخطر في بالنا فربنا مخالف لذلك، ولكن الله يرى جل جلاله، وقد قال ذلك ربنا: ﴿وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة﴾ [القيامة:٢٢ - ٢٣].
وقال عليه الصلاة والسلام كما في الأحاديث المستفيضة المتو ا ترة: (إنكم ترون ربكم يوم القيامة، قالوا: يا رسول الله! كيف نراه ونحن متعددون وهو واحد؟ قال: كما ترون القمر لا تضامون في رؤيته).
ولله المثل الأعلى، فالقمر واحد ونحن نراه في الدنيا مع أعدادنا في مشارق الأرض ومغاربها، ومع الملايين من سكان الأرض نراه جميعا وهو واحد غير متعدد، أعني: قمر الأرض.
وهكذا جل الله وعلا على سبيل المثال والشبيه: ﴿ولله المثل الأعلى﴾ [النحل:٦٠].." (١)

"ما رواه الأصمعي(١) بقوله:"كنت أقرأ سورة المائدة ومعي أعرابي، فقرأت هذه الآية: ژ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ٹ ٹ ٹٹ ژ ، فقلت:(والله غفور رحيم)، سهوا، فقال الأعرابي: كلام من هذا؟ فقلت: كلام الله، قال: أعد، فأعدت: (والله غفور رحيم)، ثم تنبهت فقلت: ژ ؟ ؟ ؟ ؟ ژ [المائدة] ، فقال:الآن أصبت! فقلت:كيف عرفت؟ قال: يا هذا عزيز حكيم فأمر بالقطع، فلو غفر ورحم لما أمر بالقطع"(٢).
السر في تقديم الرحمن على الرحيم:" أن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف، والثاني للفعل، فالأول دال على أن الرحمة صفته، والثاني دال على

---

(١) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ٢/٦٩

أنه يرحم خلقه برحمته"(٣).

أما الحكمة من جريان **العادة القرآنية** بتقديم اسم الغفور على الرحيم، فهي أن دفع الضرر أولى من جلب المنفعة، فضلا عن أن في هذا الترتيب تصاعدا في النعم من الأدنى إلى الأعلى، و" المغفرة ستر للذنوب، أما الرحمة فتفضل وإنعام زائد على مغفرة الذنوب؛ لذا قدمت المغفرة على الرحمة، والتخلية مقدمة على التحلية"(٤).

لكن سورة سبأ هي الوحيدة التي تقدم فيها اسمه سبحانه الرحيم على اسم الغفور: ژ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ پ پ پ پ ؟ ؟ ؟ ؟؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ٹ ٹ ٹ ٹ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ژ.

---

(١) ...عبد الملك بن قريب بن أصمع الباهلي (١٢٢-٢١٦هـ)، مولده ووفاته بالبصرة، راوية العرب وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان، طاف البوادي يقتبس علومها وأخبارها، له: الإبل، والخيل، والمترادف، وشرح ديوان ذي الرمة[الأعلام ٤/١٦٢].

(٢) ...الرازي، التفسير الكبير، (٤/٣٥٧).

(٣) ...ابن القيم، محمد بن أبي بكر الدمشقي، بدائع الفوائد، (١/٢٤)، دار الكتاب العربي، بيروت، دط، دت.

(٤) ...عباس، إعجاز القرآن الكريم، (ص٢١٣).." [1]

"ويبدو توافق المعنى اللغوي للمعنى الإصطلاحي للمناسبة . فكلاهما يعني : أن الآية وجارتها شقيقتان ، يربط بينهما رباط من نوع ما ، كما يربط النسب بين المتناسبين ، غير أن ذلك لا يعني أن تكون الآيتان أو الآيات متماثلة كل التماثل ، بل ربما يكون بينها تضاد ، أو تباعد في المعنى ، المهم أن هناك صلة ، أو رابط ما يربط بين الآيتين ، أو يقارب بينهما ،سواء توصل إليها العلماء أم لا ، فقد تظهر أحيانا ، وتختفي أحيانا أخرى ، وفي هذا مجال لتسابق الأفهام .

المبحث الثاني : فوائد معرفتها :

إذا كان لمعرفة سبب النزول أثر في فهم المعنى ، وتفسيرالآية ، فمعرفة المناسبة بين الآيات تساعد كذلك على حسن التأويل ، ودقة الفهم ، وإدراك اتساق المعاني بين الآيات ، وترابط أفكارها ، وتلاؤم ألفاظها ، فالقرآن الكريم فيه كثير من فنون العقائد ، والأحكام ، والأخلاق ، والوعظ ، والقصص ، وغيرها من مقاصد

---

(١) التناسب في سورة البقرة، المؤلف غير معروف ٣/٥

القرآن التي جعلها الله سبحانه هداية للبشر ، والتي تدور جميعها على الدعوة إلى الله ، والقرآن يبث هذا المعنى من خلال المقاصد ، والأغراض الموزعة على كافة الآيات والسور ، فلو جمع كل نوع على حدة ، لفقد القرآن بذلك أعظم مزايا هدايته المقصودة .

قال محمد رشيد رضا : (وقد خطر لى وجه ، وهو الذي يطرد في أسلوب القرآن الخاص ، في مزج مقاصد القرآن بعضها ببعض ، من عقائد ، وحكم ، ومواعظ ، وأحكام تعبدية ومدنية ، وغيرها ، وهو نفي السآمة عن القارئ والسامع من طول النوع الواحد منها ، وتجديد نشاطها ومنهجها .) ٣٤

فمن عادة القرآن أن يجمع بين الفنون المختلفة في سورة واحدة ، في تنسيق بديع ، يصل بها إلى الذروة في الإعجاز البلاغي، والإحكام البياني ،وروعة الأسلوب ، (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) ٣٥." (١)

"فبالاضافة إلى أن الإعتراض يقع مؤكدا لمفهوم الكلام الذي وقع فيه ، ومقررا له في نفوس السامعين ، فإنه يأتي لأغراض بلاغية ، . منها :

أنه يأتي لتعظيم المقسم به ، وتفخيمه ، وذلك كما في قوله تعالى : (فلا أقسم بمواقع النجوم . وإنه لقسم لو تعلمون عظيم . إنه لقرآن كريم .) ٦٥

ففي هذا الكلام اعتراضان : أحدهما قوله : (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) ، لأنه اعتراض بين القسم الذي هو : (فلا أقسم بمواقع النجوم) ، وبين جوابه : (إنه لقرآن كريم) .

والثاني : قوله : (لو تعلمون) ، وهو اعتراض بين الموصوف الذي هو :(قسم)، وبين صفته ، الذي هو :(عظيم)

وفائدة الاعتراض : هو تعظيم شأن المقسم به في نفس القارئ ، أو السامع ، أي : أنه من عظم الشأن وفخامة الأمر ، بحيث لو علم ذلك لوفى حقه من التعظيم . ٦٦

فالإعتراض ليس وسيلة للتحسين فحسب ، وليس حشوا يمكن الإستغناء عنه ، بل إنه إذا وقع موقعه المناسب ، كان من مقتضيات النظم ، ومن مقتضيات المقام ، ولو أسقط من السياق سقط معه جزء أصيل من المعنى ، فهو يحمل بجانب كونه جزءا من المعنى الأصلي ، معاني فرعية أخرى ، تلتحم جميعا في تكوين معنى كلي . .

القسم الثاني : - وهو ما لا يظهر الإرتباط فيه بين الآيتين :

---

(١) المناسبات، المؤلف غير معروف ص/١٣

لقد جرت عادة القرآن إذا ذكر أحكاما ، أن يذكر بعدها وعدا أووعيدا ، ليكون باعثا على العمل ، ثم يذكر آيات توحيد ، وتنزيه ، ليعلم عظم الآمر والناهي . فتبدو – في الظاهر –كل آية مستقلة عن الأخرى ، وأنها خلاف النوع المبدوء به .

وينقسم هذا القسم إلى قسمين : –

أ – أن تكون الآية الثانية معطوفة على ما قبلها بحرف من حروف العطف ، فتشاركها في الحكم ، ولا بد أن تكون بينهما جهة جامعة ، إذ لا بد منها عند العطف ، كقوله تعالى : (والله يقبض ويبصط) ٦٧ فالجهة الجامعة هي :

التضاد . وأمثلة هذا القسم تظهر في : الطباق٦٨ ، والمقابلة ٦٩.." [١]

"(٦٦٢) انظر صنيع الطبري في نظائر ذلك مما اختلف فيه القراء، وقد أحلنا عليه مرارا في نظائر ذلك

المسألة السادسة

قوله تعالى: ﴿وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم﴾(٦٦٣).

قرأ سائر القراء: ﴿وكلمة الله هي العليا﴾ على الاستئناف.

وانفرد يعقوب بالقراءة بالفتح: ﴿وكلمة الله هي العليا﴾ على العطف(٦٦٤).

وضم القرطبي إلى يعقوب الأعمش في اختيار قراءة النصب، ولكنه نقل عن الفراء استنكاره لذلك من جهة اللغة(٦٦٥)، إذ لا تقول العرب: أعتق زيد غلام أبي زيد، بل تقول: أعتق زيد غلام أبيه، وتمام الفصاحة أن يقال: وكلمته هي العليا.

ولكن التصريح في هذا المقام باسم الله أبلغ، وهو عادة القرآن العظيم فيما له مقام تشريف، أو موجب تنبيه كما في قوله سبحانه: ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها﴾(٦٦٦)، فكرر ذكر الفاعل مع أن في الضمير غنية، وكذلك قوله: ﴿حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها﴾(٦٦٧)، فكرر ذكر الأهل مع أن في إيراد الضمير غنية. ومثل ذلك ما أنشد لسيبويه:

لا أرى الموت يسبق الموت شيء نغص الموت ذا الغنى والفقيرا(٦٦٨)

وهذا الاحتجاج ورده من باب تحصيل الحاصل محمول على عدم ثبوت تواتر القراءة عند المنكرين، وإلا فإنه بعد ثبوت تواتر القراءة ليس للكل إلا التسليم بجواز القراءة بها وضبط قواعد العربية عليها وليس العكس.

---

(١) المناسبات، المؤلف غير معروف ص/١٩

وثمرة الخلاف: فيما أفادته الآية من معان، فقد فهمنا من قراءة النصب أن الله جعل كلمته علية ظاهرة، ثم عاد فقرر أن علو كلمته سبحانه قديم لم يطرأ بعد أن لم يكن، فالمسألة مسألة إبداء وليست مسألة ابتداء، فكلمة الله عالية أصلا، ولكن ظن بعض الناس خلاف ذلك فأظهر المولى سبحانه إرادته حين قدر نصرة النبي – صلى الله عليه وسلم – على المشركين يوم الغار.." (١)

"صفحة : ٧٠

وذكر صاحب الكشاف وفخر الدين الرازي أن من عادة القرآن أنه ما جاء بوعيد إلا أعقبه بوعد، وما جاء بنذارة إلا أعقبها ببشارة. ويكون ذلك بأسلوب الاستطراد والاعتراض لمناسبة التضاد، ورأيت منه قليلا في شعر العرب كقول لبيد: فاقطع لبانا من تعرض وصله فلشر واصل خل صرامها واحب المجامل بالجزيل وصرمه باق إذا ظلعت وزاغ قوامها وفي الكشاف في تفسير قوله تعالى)فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قال قائل منهم إني كان لي قرين(الآية: جيء به ماضيا على عادة الله في أخباره . وقال فخر الدين في تفسير قوله تعالى)يوم يجمع الله الرسل(من سورة العقود: عادة هذا الكتاب الكريم أنه إذا ذكر أنواعا كثيرة من الشرائع والتكاليف أتبعها إما بالإلهيات وإما بشرح أحوال الأنبياء وأحوال القيامة ليصير ذلك مؤكدا لما تقدم ذكره من التكاليف والشرائع .

وقد استقريت بجهدي عادات كثيرة في اصطلاح القرآن سأذكرها في مواضعها، ومنها أن كلمة هؤلاء إذا لم يرد بعدها عطف بيان يبين المشار إليهم فإنها يراد بها المشركون من أهل مكة كقوله تعالى)بل متعت هؤلاء وآباءهم(وقوله)فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين(وقد استوعب أبو البقاء الكفوي في كتاب الكليات في أوائل أبوابه كليات مما ورد في القرآن من معاني الكلمات، وفي الإتقان للسيوطي شيء من ذلك.

وقد استقريت أنا من أساليب القرآن أنه إذا حكى المحاورات والمجاوبات حكاها بلفظ قال دون حروف عطف، إلا إذا انتقل من محاورة إلى أخرى، انظر قوله تعالى)وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها(إلى قوله)أنبئهم بأسمائهم(.

وأما الجهة الثالثة من جهات الإعجاز وهي ما أودعه من المعاني الحكمية والإشارات العلمية فاعلموا أن

---

(١) القراءات المتواترة لمحمد حبش، المؤلف غير معروف ص/٢٤٨

العرب لم يكن لهم علم سوى الشعر وما تضمنه من الأخبار: قال عمر بن الخطاب كان الشعر علم القوم ولم يكن لهم علم أصح منه .." (١)

"منزلة الشاك. وقد نقل عن المبرد أن)إن(لا تأتي لرد الإنكار بل لرد الشك.

وقد تبين أن الذين كفروا المذكورين هنا هم فريق من المشركين الذين هم مأيوس من إيمانهم، فالإتيان في ذكرهم بالتعريف بالموصول: إما أن يكون لتعريف العهد مرادا منه قوم معهودون كأبي جهل والوليد بن المغيرة وأضرابهم من رؤوس الشرك وزعماء العناد دون من كان مشركا في أيام نزول هذه الآية ثم من آمن بعد مثل أبي سفيان بن حرب وغيره من مسلمة الفتح، وإما أن يكون الموصول لتعريف الجنس المفيد للاستغراق على أن المراد من الكفر أبلغ أنواعه بقرينة قوله)لا يؤمنون(فيكون عاما مخصوصا بالحس لمشاهدة من آمن منهم أو يكون عاما مرادا به الخصوص بالقرينة وهذان الوجهان هما اللذان اقتصر عليهما المحققون من المفسرين وهما ناظران إلى أن الله أخبر عن هؤلاء بأنهم لا يؤمنون فتعين أن يكونوا ممن تبين بعد أنه مات على الكفر. ومن المفسرين من تأول قوله تعالى)الذين كفروا(على معنى الذين قضي عليهم بالكفر والشقاء ونظره بقوله تعالى)إن الذين حقت عليهم كلمات ربك لا يؤمنون(وهو تأويل بعيد من اللفظ وشتان بينه وبين تنظيره. ومن المفسرين من حمل)الذين كفروا(على رؤساء اليهود مثل حيى بن أخطب وأبي رافع يعني بناء على أن السورة نزلت في المدينة وليس فيها من الكافرين سوى اليهود والمنافقين وهذا بعيد من **عادة القرآن** وإعراض عن السياق المقصود منه ذكر من حرم من هدى القرآن في مقابلة من حصل لهم الاهتداء به، وأيا ما كان فالمعنى عند الجميع أن فريقا خاصا من الكفار لا يرجى إيمانهم وهم الذين ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وروى ذلك عن ابن عباس والمقصود من ذلك أن عدم اهتدائهم بالقرآن كان لعدم قابليتهم لا لنقص في دلالة القرآن على الخير وهديه إليه.

والكفر بالضم إخفاء النعمة، وبالفتح: الستر مطلقا وهو مشتق من كفر إذا ستر.." (٢)

"قوله تعالى : ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيهآ أبدا لهم فيهآ أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا﴾.

تعلم أن الوعد والوعيد متلازمان في الذكر غالبا ، فإن **عادة القرآن** إذا ذكر الوعيد أن يذكر معه الوعد.

قوله : ﴿والذين آمنوا﴾ فيه ثلاثة أوجه : أظهرها : أنه مبتدأ ، وخبره ﴿سندخلهم﴾.

---

(١) مقدمة التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ١٨٣/٢

(٢) مقدمة التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٣٧٣/٢

والثاني : أنه في محل نصب ؛ عطفا على اسم " إن " وهو ﴿الذين كفروا﴾ ، والخبر أيضا : ﴿سندخلهم جنات﴾ ويصير هذا نظير قولك : إن زيدا قائم وعمرا قاعد ، فعطفت المنصوب على المنصوب ، والمرفوع على المرفوع.

والثالث : أن يكون في محل رفع ؛ عطفا على موضع اسم " إن " ؛ لأن محله الرفع ، قاله أبو البقاء ؛ وفيه نظر ، من حيث الصناعة اللفظية ، حيث يقال : ﴿والذين آمنوا﴾ في موضع نصب ؛ عطفا على ﴿الذين كفروا﴾ ، وأتى بجملة الوعيد مؤكدة بـ " إن " ؛ تنبيها على شدة ذلك ، وبجملة الوعد حالية منه ؛ لتحققها وأنه لا إنكار لذلك ، وأتى فيها بحرف التنفيس القريب المدة تنبيها على قرب الوعد.

فصل في أن الإيمان غير العمل دلت هذه الآية ، على أن الإيمان غير العمل ؛ لأنه تعالى عطف العمل على الإيمان ، والمعطوف مغاير للمعطوف عليه.

قال القاضي : متى ذكر لفظ الإيمان وحده ، دخل فيه العمل ، ومتى ذكر معه العمل ، كان الإيمان هو التصديق ، وهذا بعيد ، لأن الأصل عدم الاشتراك ، وعدم التغيير ولولا أن الأمر كذلك ، لخرج القرآن عن كونه مفيدا ، فلعل هذه الألفاظ التي

٤٣٠

تسمعها في القرآن ، يكون لكل واحد منها معنى سوى ما نعلم ، ويكون مراد الله [تعالى] ذلك المعنى.

قوله : " سندخلهم " قرأ النخعي : سيدخلهم ، وكذلك : " ويدخلهم ظلا " بياء الغيبة ؛ ردا على قوله : " إن الله كان عزيزا " ، والجمهور بالنون ردا على قوله : " سوف نصليهم " ، وتقدم الكلام على قوله : " جنات تجري من تحتها الأنهار ".

وقوله : ﴿خالدين﴾ يجوز فيه ثلاثة أوجه : أحدها : أنه حال من الضمير المنصوب في ﴿سندخلهم﴾.

والثاني : وأجازه أبو البقاء : أن يكون حالا من ﴿جنات﴾.

[قال : لأن فيها ضميرا لكل واحد منهما ، يعني : أنه يجوز أن يكون حالا من] مفعول ﴿سندخلهم﴾ كما تقدم ، أو " من جنات " ؛ لأن في الحال ضميرين : أحدهما : مجرور بـ " في " العائد على ﴿جنات﴾ فصح أن يجعل حالا من كل واحد ؛ لوجود الرابط ، وهو الضمير ، وهذا الذي قال فيه نظر من وجهين : أحدهما : أنه يصير المعنى : أن الجنات خالدات في أنفسها ؛ لأن الضمير في فيها عائد عليها.

فكأنه قيل : جنات خالدات في الجنات أنفسها.

والثاني : أن هذا الجمع شرطه العقل ، ولد أريد ذلك ، لقيل : خالدات.

والثالث : أن يكون صفة لـ ﴿جنات﴾ أيضا.
قال أبو البقاء : على رأي الكوفيين يعني أنه جرت الصفة على غير من هي له في المعنى ، ولم يبرز الضمير ، وهذا مذهب الكوفيين ، وهو انه إذا جرت على غير من هي له ، وأمن اللبس ، لم يجب بروز الضمير كهذه الآية.
ومذهب البصريين : وجوب بروزه مطلقا ، فكان ينبغي أن يقال على مهلهم : " خالدين هم فيها " ، ولما لم يقل كذلك ، دل على فساد القول ، وقد تقدم تحقيق ذلك.
[فإن قلت :] فلتكن المسألة الأولى كذلك ، أعني : أنك إذا جعلت ﴿خالدين﴾
٤٣١
." (١)

"قرأ نافع ، والبزي بفتح ياء " فطرني " ، وأبو عمرو وقنبل بإسكانها.
ومعنى " فطرني " خلقني ، ﴿أفلا تعقلون﴾ أني مصيب في المنع من عبادة الأوثان.
ثم قال : ﴿ ويا قوم استغفروا ربكم﴾ آمنوا به ، والاستغفار - ههنا - بمعنى الإيمان.
وقال الأصم : ﴿استغفروا ربكم﴾ أي : سلوه أن يغفر لكم ما تقدم من شرككم ، ثم توبوا من بعده بالندم على ما مضى ، وبالعزم على أن لا تعودوا إلى مثله ، فإذا فعلتم ذلك فالله يكثر النعمة عليكم.
قوله : ﴿يرسل السمآء عليكم مدرارا﴾ نصب " مدرارا " على الحال ، ولم يؤنثه وإن كان من مؤنث لثلاثة أوجه : أحدها : أن المراد بالسماء السحاب ، فذكر على المعنى.
الثاني : أن مفعالا للمبالغة فيستوي فيه المذكر والمؤنث كـ : صبور ، وشكور ، وفعيل.
الثالث : أن الهاء حذفت من " مفعال " على طريق النسب قاله مكي ، وقد تقدم إيضاحه في الأنعام.
والمعنى : يرسل عليكم المطر متتابعا مرة بعد أخرى في أوقات الحاجة.
﴿ويزدكم قوة إلى قوتكم﴾ أي : شدة مع شدتكم.
وقيل : المراد بالقوة : المال وذلك أن الله تعالى لما بعث هودا إليهم ، وكذبوه حبس الله المطر عنهم ثلاث سنين ، وأعقم أرحام نسائهم ، فقال لهم هود : إن آمنتم بالله أحيا الله بلادكم ورزقكم المال ، والولد ، فذلك قوله تعالى : ﴿يرسل السمآء عليكم مدرارا﴾ والمدرار : بالكسر الكثير الدر وهو من أبنية المبالغة.
فإن قيل : إن هودا - عليه الصلاة والسلام - قال : لو اشتغلتم بعبادة الله لانفتحت عليكم أبواب الخيرات

(١) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع، المؤلف غير معروف ص/١٤٩٥

الدنيوية ، وليس الأمر كذلك لقوله – عليه الصلاة والسلام – " خص البلاء بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل ، فالأمثل " فكيف الجمع بينهما ؟ وأيضا فقد جرت عادة القرآن بالترغيب في الطاعات بسبب ترتيب الخيرات الدنيوية ، والأخروية عليها ، فأما الترغيب في الطاعات لأجل ترتيب الخيرات الدنيوية عليها ؛ فذلك لا يليق بالقرآن.

فالجواب : لما كثر الترغيب في سعادات الآخرة لم يتغير بالترغيب أيضا في خير الدنيا بقدر الكفاية.

قوله : ﴿إلى قوتكم﴾ يجوز أن يتعلق بـ " يزدكم " على التضمين ، أي : يضيف إلى قوتكم قوة أخرى ، أو يجعل الجار والمجرور صفة لـ " قوة " فيتعلق بمحذوف.

وقدره أبو البقاء : " مضافة إلى قوتكم " ، وهذا يأباه النحاة ، لأنهم لا يقدرون إلا الكون

٥٠٦

". (١)

"الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ [الحجر : ٤٢] فيكون عاما في اللفظ خاصا في المعنى كقوله : ﴿عينا يشرب بها عباد الله﴾ [الإنسان : ٦] يريد بعض العباد ، وقال قتادة : لا يرضى لأحد من عباده الكفر أي لا يرضى لعباده أن يكفروا به.

وهو قول السلف قالوا : كفر الكافر غير مرضي لله وإن كان بإرادته.

واحتج الجنائي بهذه الآية من وجهين : الأول : أن المجبرة يقولون : إن الله تعالى خلق العباد وأفعالهم وأقوالهم وكل ما خلقه حق وصواب ، وإذا كان كذلك كان قد رضي بالكفر من التوجه الذي خلقه وذلك ضد الآية.

الثاني : لو كان الكفر بقضاء الله تعالى لوجب علينا أن نرضى به لأن الرضا بقضاء الله واجب وحيث اجتمعت الأمة على أن الرضا بالكفر كفر ثبت أنه ليس بقضاء الهو ليس أيضا برضا الله تعالى وأجيب بوجوه : أحدها : إن عادة القرآن جارية بتخصيص لفظ العباد بالمؤمنين كما قدماه عن ابن عباس.

وثانيها : قول السلف المتقدم وأنشد ابن دريد : ٤٢٩١ – رضيت قسرا أو على القسر رضا

من كان ذا سخط على صرف القضا

جزء : ١٦ رقم الصفحة : ٤٧٢

أثبت الرضا مع القسر.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل. موافق للمطبوع، المؤلف غير معروف ص/٢٨٦٥

وثالثها : هب أن الرضا هو الإرادة إلا أن قوله : ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾ عام فيتخصص بالآيات الدالة على أنه تعالى لا يريد الكفر لقوله تعالى : ﴿وما تشآءون إلا أن يشآء الله﴾ [الإنسان : ٣٠].

قوله : ﴿وإن تشكروا﴾ أي تؤمنوا بربكم وتطيعوه " يرضه لكم " فيثيبكم عليه.

قرأ ابن كثير والكسائي وابن ذكوان يرضهو بالصلة.

وهي الأصل من غير خلاف وهي قراءة واضحة.

قال الواحدي : من أشبع الهاء (حتى ألحق فيها واوا لأن ما قبل الهاء متحرك فصار بمنزلة ضربه ، وقرأ " يرضه " بضم الهاء) من غير صلة بلا خلاف نافع وعاصم

٤٧٨

وحمزة وقرأ " يرضه " بإسكانها وصلا من غير خلاف السوسي عن أبي عمرون ، وقرأ بالوجهين أعني الإسكان والصلة الدوري عن أبي عمرو.

وقرأ بالإسكان والتحريك من غير صلة هشام عن ابن عامر فهذه خمس مراتب للقراءة وقد تقدم توجيه الإسكان والقصر والإشباع أول الكتاب وما أنشد عليه ، ولا يلتفت إلى أبي حاتم في تغليطه راوي السكون ؛ فإنها لغة ثابتة عن بني عقيل وبني كلاب.

قوله : ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ قال الجبائي : هذا يدل على أنه لا يجوز أن يقال : غنه تعالى يأخذ الأولاد بذنوب الآباء واحتج به أيضا من أنكر وجوب ضربالدية على العاقلة.

ثم قال : ﴿ثم إلى ربكم مرجعكم﴾ وهذا يدل على إثبات البعث والقيامة ﴿فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ وهذا يدل على تهديد العاصي وبشارة المطيع وقوله : ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ كالعلة لما سبق أي إنه إنما ينبئكم بأعمالكم لأنه عالم بجميع المعلومات فيعلم ما في قلوبكم من الدواعي والصوارف قال - صلى الله عليه وسلم - : " إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم ".

قوله : ﴿وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه﴾ لما بين فساد القول بالشرك وبين أنه هو الذي يجب أن يعبد بين ههنا أن طريقة الكفار متناقضة لأنهم إذا مسهم الضر طلبوا دفعه من الله ، وإذا أزال ذلك الضر عنهم رجعوا إلى عبادة غيره فكان الواجب عليهم أن يتعرفوا بالله تعالى في جميع الأحوال لأنه القادر على إيصال الخير ودفع الشر فظهر تناقض طريقهم.

والمراد بالإنسان الكافر ، وقيل المراد : أقوام معينين كعتبة بن ربيعة وغيره.

والمراد بالضر جميع المكاره سواء كان في جسمه أو ماله أو في أهله وولده ، لأن اللفظ مطلق فلا معنى

لتقييده.

٤٧٩

قوله : ﴿منيبا﴾ حال من فاعل " دعا " و " إليه " متعلق " بمنيبا " أي راجعا إليه في إزالة ذلك الضر ، ولأن الإنابة الرجوع.

قوله : ﴿ثم إذا خوله﴾ أعطاه " نعمة منه " أي أعاطها إياه ابتداء من غير مقتض.

ولا يتسعمل في الجزاء بل في باتداء العطية ، قال زهير : ٤٢٩٢ - هنالك إن يستخولوا المال يخولوا

....

جزء : ١٦ رقم الصفحة : ٤٧٢

ويروى : يستخبلوا الما يخبلوا ، وقال أبو النجم : ٤٢٩٣ - أعطى فلم يبخل ولم يبخل

كوم الذرى من خول المخول

." (١)

"ينظرونها.

فقوله : " أن تأتيهم " بدل من الساعة.

والمعنى هل ينظرون إلا إتيان الساعة.

قوله : " بغتة " فجأة.

فإن قيل : قوله بغتة يفيد ما يفيد قوله : " وهم لا يشعرون " فما فائدته ؟ فالجواب : يجوز أن تأتيهم بغتة وهم يعرفونه بسبب انهم يشاهدونه ".

قوله تعالى : " الأخلاء يومئذ " مبتدأ وخبره " عدو " والتنوين في " يومئذ " عوض عن جملة ، تقديره : " يومئذ تأتيهم الساعة.

والعامل في يومئذ : تأتيهم الساعة والعامل في " يومئذ " لفظ " عدو " أي عداوتهم في ذلك اليوم.

فصل معنى الآية الأخلاء على المعصية في الدنيا يومئذ أي يوم القيامة ﴿لبعض عدو إلا المتقين﴾ يعني المتحابين في الله على طاعة الله وهم الموحدون الذين يخال بعضهم بعضا على الإيمان والتقوى فإن خلتهم لا تصير عداوة.

رويى أبو ثور عن مِعمر عن قتادة عن أبي إسحاق أن عليا (رضي الله عنه) قال : في الآية خليلان مؤمنان

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع، المؤلف غير معروف ص/٤٣٤٥

وخليلان كافران ، فمات أحد المؤمنين فقال : يا رب إن فلانا كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك ، ويأمرني بالخير ، وينهاني عن الشر ، ويخبرني أني ملاقيك يا رب ، فلا تضله بعدي ، واهده كما هديتني وأكرمه كما أكرمتني ، فإذا مات خليله المؤمن جمع (الله) بينهما فيقول (الله تعالى) : ليثن أحدكما على صاحبه فيقول : (يا رب) نعم الأخ ، ونعم الخليل ، ونعم الصاحب.

قال : ويموت أحد الكافرين فيقول : يا رب إن فلانا كان ينهاني عن ذاتك وطاعة رسولك ويأمرني بالشر ، وينهاني عن الخير ، ويخبرني أني غير ملاقيك فيقول : بئس الأخ وبئس الخليل وبئس الصاحب.

٢٨٨

قوله : "يا عبادي " قرأ أبو بكر عن عاصم : " يا عبادي لا خوف " بفتح الياء.

والأخوان وابن كثير وحفص بحذفها وصلا ووقفا.

والباقون بإثباتها ساكنة.

وقرأ العامة : لا خوف بالرفع والتنوين إما مبتدأ وإما اسما لها وهو قليل.

وابن محيصن دون تنوين على حذف مضاف وانتظاره أي لا خوفل شيء.

والحسن وابن أبي إسحاق بالفتح على لا التبرئة ، وهي عندهم أبلغ.

فصل قد تقدم أن عادة القرآن جارية بتخصيص لفظ العباد بالمؤمنين المطيعين المتقن.

وفيه أنواع كثيرة توجب الفرح : أولها : أن الحق سبحانه وتعالى خاطبهم بنفسه من غير واسطة.

وثانيها : أنه تعالى وصفهم بالعبودية من غير واسطة ، وهذا تشريف عظيم ، بدليل أنه تعالى لما أراد تشريف محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة المعراج قال : ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلا﴾ [الإسراء : ١].

وثالثها : قوله : ﴿لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون﴾ فنفى عنهم الحزن بسبب فوت الدنيا الماضية.

قوله : " الذين آمنوا " يجوز أن يكون نعتا لعبادي ، أو بدلا منه ، أو عطف بيان الله ، أو مقطوعا منصوبا بفعل أي أعني الذين آمنوا.

أو مرفوعا بالابتداء وخبره مضمر ، تقديره يقال لهم : ادخلوا.

فصل قال مقاتل : إذا وقع الخوف يوم القيامة نداى مناد : يا عبادي لا خوف عليكم اليوم.

فإذا سمعوا النداء رفع الخلائق رؤوسم فيقال : ﴿الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين﴾ فينكس أهل الأديان الباطلة رؤوسهم فيمر حسابهم على أحسن الوجوه ثم يقال لهم :

٢٨٩

﴿ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون﴾ تسرون وتنعمون والحبرة المبالغة في الإكرام على أحسن الوجوه وتقدم تفسيره في سورة الروم.

قوله تعالى : ﴿يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون﴾.

قوله : " يطاف عليهم " قبله محذوف أي يدخلون (و) يطاف.

الصحاف جمع صحفة كجفنة وجفان ؛ قال الجوهري : الصحفة كالقصعة.

وقال الكسائي : أعظلم القصا الجفنة ، ثم القصعة تشبع العشرة ، ثم الصفحة تشبع الخمسة ، ثم المكيلة تشبع الرجلين والثلاثة (ثم الصحيفة تشبع الرجل).

والصحيفة الكتاب والجمع صحف وصحائف.

وأمال الكسائي - في رواية - بصحاف من ذهب ؟ " وأكواب " جمع كوب ، وهو إناء مستدير مدور الرأس لا عرى له.

وقيل : هو كالإبريق إلا أنه عروة له.

وقيل : إنه ما لا خرطوم له.

وقيل : إنه لا خرطوم له ولا عروة معا.

قال الجواليقي : ليتمكن الشارب من أين شاء ، فإن العروة تمنع من ذلك ، وقال عدي : ٤٤١٧. متكئا تصفق أبوابه

يطوف عليه العبد بالكوب

جزء : ١٧ رقم الصفحة : ٢٨٧

والتقدير : وأكواب مِن ذهب.

فقوله : ﴿يطاف عليهم بصحاف من ذهب﴾ إشارة إلى المطعوم ، وقوله : " وأكواب " إشارة إلى المشروب.

ثم إنه تعالى لما ذكر التفصيل ذكر بيانا كليا فقال : ﴿وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين﴾ أي في الجنة.

." (١)

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل - موافق للمطبوع، المؤلف غير معروف ص/٤٥٠٣

٤١٥"
الأنام.

فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم بئس العمل قال يا رسول الله دعني من العتب ، فإني ممن آمن مع نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ وعاتبته في دعوته فبكا وأبكاني وقال : إني والله لمن النادمينت ، وأعوذ بالله أن أكون من الجاهلين.

ولقيت إبراهيم وآمنت به ، وكنت بينه وبين الأرض إذ رمي به في المنجنيق ، كنت معه في النار إذ ألقي فيها وكنت مع يوسف إذ ألقي في الجب فسبقته إلى قصره ولقيت موسى بن عمران بالمكان الأثير.

وكنت مع عيسى ابن مريم فقال لي : إن لقيت محمدا فاقرأ عليه السلام ـ علمني التوراة وإن عيسى علمني الإنجيل ، فعلمني القرآن.

قال أنس : فعلمه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عشر سور ، وقبض رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم ينعه إلينا.

قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ولا أراه إلا حيا.

وروي أنه عمله سورة الواقعة ، و ﴿عم يتسآءلون﴾ [النبأ : ١ـ و ﴿إذا الشمس كورت﴾ [التكوير : ١] و ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ [الكافرون : ١] وسرة الإخلاص والمعوذتين.

فصل اختلفوا في عدد النفر ، فقال ابن عباس ـ (رضي الله عنهما) ـ كانوا سبعة وقد تقدم ، وقيل : كانوا تسعة.

وروى عاصم عن زر بن حبيش كان زوبعة من التسعة الذين استمعوا القرآن ، فلما حضروه قالوا أنصتوا أي قال بعضهم لبعض أنصتوا أي اسكتوا مستمعين يقال : أنصت لكذا ، واستنصت له.

روي في الحديث أن الجنة ثلاثة أصناف ، صنف لهم أجنحة يطيرون في الهواء ، وصنف حيات وكلاب ، وصنف يحلون ويظعنون.

ثم إنهم لما استمعوا القرآن حتى فرغ من تلاوته ﴿ولوا إلى قومهم﴾ انصرفوا إليهم " منذرين " مخوفين داعين بأمر رسول الله ـ صلى لله عليه وسلم ـ وذلك لا يكون إلىا بعد إيمانهم ، لأنهم لا يدعون غيرهم إلى سماع القرآن ، والتصديق به ، إلا وقد آمنوا.

وعند ذلك ﴿قالوا يا قومنآ إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه﴾ أي لكتب الأنبياء ، وذلك أن كتب سائر الأنبياء كانت مشتملة على الدعوة إلى التوحيد والدعوة إلى النبوة والمعاد وتطهير

الأخلاق ، وكذلك هذا الكتاب مشتمل على هذه المعاني وهو معنى قوله ﴿يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم﴾.

فإن قيل : كيف قالوا : من بعد موسى ، ولم يقولوا : من بعد عيسى ؟

٤١٦

فالجواب : أنه روي عن عطاء والحسن أنه كان دينهم اليهودية فلذلك قالوا : إنا سمعنا كتابا أنزل بعد موسى.

وعن ابن عباس - (رضي الله عنهما) - أن الجن ما سمعت أمر عيسى فلذلك قالوا : من بعد موسى ثم إن الجن لما وصفوا القرآن بهذه الصفات الفاضلة قالوا يا قومنا أ أجيبوا داعي الله " يعني محمدا - صلى الله عليه وسلم -.

فصل دلت هذه الآية على أنه - صلى الله عليه سولم - كان مبعوثا إلى الجن كما كان مبعوثا إلى الإنس.

قال مقاتل : لم يبعث الله نبيا إلى الإنس وإلى الجن قبله.

فإن قيل : قوله ﴿أجيبوا داعي الله﴾ أمر بإجابته في كل ما أمر به فيدخل فيه الأمر بالإيمان فكيف قال : وآمنوا به " ؟ فالجواب : أفاد ذكر الإيمان على التعيين ، لأنه أهم الأقسام وأشرفها وقد جرت عادة القرآن الكريم بأنه يذكر اللفظ العام ثم يعطف عليه أشرف أنواعه ، كقوله : ﴿وملا ائكته ورسله وجبريل وميكال﴾ [البقرة : ٩٨] وقوله ﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح﴾ [الأحزاب : ٧] ولما أمر بالإيمان به ذكر فائدة ذلك الإيمان فقال : ﴿يغفر لكم من ذنوبكم﴾ قال بعضهم : كلمة " من " هنا زائدة والتقدير : يغفر لكم ذنوبكم ، وقيل : بل فائدته أن كلمة " من " هنا لابتداء الغاية والمعنى أنه يقع ابتداء الغفران بالذنوب ثم ينتهي إلى عفو ما صدر عنكم من ترك الأولى والأكمل.

ويجوز أن تكون تبعيضية.

قوله : ﴿ويجركم من عذاب أليم﴾ قال ابن عباس - (رضي الله عنهما) - فاستجاب لهم من قومهم نحو سبعين بعلا من الجن فرجعوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فوافقوه في البطحاء فقرأ عليهم القرآن وأمرهم ونهاهم.

فصل اختلفوا في أن الجن هل لهم ثواب أم لا ؟ فقيل : لا ثواب لهم إلا النجاة من النار ، ثم يقال لهم : كونوا ترابا مثل البهائم.

واحتجوا على ذلك بقوله : (ويجركم من عذاب أليم) وقو قول أبي حنيفة والصحيح أن حكمهم حكم بني

آدم يستحقون الثواب على

٤١٧

(١) ".

"الإنسان ضعيفا﴾ [النساء:٢٨] إذ تسمعه يقول ﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ [فصلت:١٣] قال عياض في الشفا: إن عتبة بن ربيعة لما سمع هذه الآية أمسك بيده على فم النبي صلى الله عليه وسلم وقال له: ناشدتك الله والرحم إلا ما كففت.

عادات القرآن

يحق على المفسر أن يتعرف **عادات القرآن** من نظمه وكلمه. وقد تعرض بعض السلف لشيء منها، فعن ابن عباس: كل كاس في القرآن فالمراد بها الخمر. وذكر ذلك الطبري عن الضحاك أيضا.

وفي صحيح البخاري في تفسير سورة الأنفال قال ابن عيينة: ما سمى الله مطرا في القرآن إلا عذابا، وتسميه العرب الغيث كما قال تعالى ﴿وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا﴾ [الشورى: ٢٨]. وعن ابن عباس أن كل ما جاء من ﴿يا أيها الناس﴾ فالمقصود به أهل مكة المشركون.

وقال الجاحظ في البيان وفي القرآن معان لا تكاد تفترق، مثل الصلاة والزكاة، والجوع والخوف، والجنة والنار، والرغبة والرهبة، والمهاجرين والأنصار، والجن والإنس قلت: والنفع والضر، والسماء والأرض.

وذكر صاحب الكشاف وفخر الدين الرازي أن من **عادة القرآن** أنه ما جاء بوعيد إلا أعقبه بوعد، وما جاء بنذارة إلا أعقبها ببشارة. ويكون ذلك بأسلوب الاستطراد والاعتراض لمناسبة التضاد، ورأيت منه قليلا في شعر العرب كقول لبيد:

فاقطع لبانا من تعرض وصله ... فلشر واصل خل صرامها

واحب المجامل بالجزيل وصرمه ... باق إذا ظلعت وزاغ قوامها

وفي الكشاف في تفسير قوله تعالى ﴿فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قال قائل منهم إني كان لي قرين﴾ [الصافات:٥١] الآية: جيء به ماضيا على عادة الله في أخباره. وقال فخر الدين في تفسير قوله تعالى ﴿يوم يجمع الله الرسل﴾ من سورة العقود: [١٠٩] عادة هذا الكتاب الكريم أنه إذا ذكر أنواعا كثيرة من الشرائع والتكاليف أتبعها إما بالإلهيات وإما بشرح أحوال الأنبياء وأحوال القيامة ليصير ذلك مؤكدا لما تقدم ذكره من التكاليف والشرائع.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل - موافق للمطبوع، المؤلف غير معروف ص/٤٥٥٨

وقد استقريت بجهدي عادات كثيرة في اصطلاح القرآن سأذكرها في مواضعها، ومنها أن كلمة هؤلاء إذا لم يرد بعدها عطف بيان يبين المشار إليهم فإنها يراد بها." (١)

"وقد تبين أن "الذين كفروا" المذكورين هنا هم فريق من المشركين الذين هم مأيوس من إيمانهم، فالإتيان في ذكرهم بالتعريف بالموصول: إما أن يكون لتعريف العهد مرادا منه قوم معهودون كأبي جهل والوليد بن المغيرة وأضرابهم من رؤوس الشرك وزعماء العناد دون من كان مشركا في أيام نزول هذه الآية ثم من آمن بعد مثل أبي سفيان بن حرب وغيره من مسلمة الفتح، وإما أن يكون الموصول لتعريف الجنس المفيد للاستغراق على أن المراد من الكفر أبلغ أنواعه بقرينة قوله: ﴿لا يؤمنون﴾ فيكون عاما مخصوصا بالحس لمشاهدة من آمن منهم أو يكون عاما مرادا به الخصوص بالقرينة وهذان الوجهان هما اللذان اقتصر عليهما المحققون من المفسرين وهما ناظران إلى أن الله أخبر عن هؤلاء بأنهم لا يؤمنون فتعين أن يكونوا ممن تبين بعد أنه مات على الكفر.

ومن المفسرين من تأول قوله تعالى: ﴿الذين كفروا﴾ على معنى الذين قضي عليهم بالكفر والشقاء ونظره بقوله تعالى: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمت ربك لا يؤمنون﴾ [يونس:٩٦] وهو تأويل بعيد من اللفظ وشتان بينه وبين تنظيره. ومن المفسرين من حمل ﴿الذين كفروا﴾ على رؤساء اليهود مثل حيى بن أخطب وأبي رافع يعني بناء على أن السورة نزلت في المدينة وليس فيها من الكافرين سوى اليهود والمنافقين وهذا بعيد من **عادة القرآن** وإعراض عن السياق المقصود منه ذكر من حرم من هدى القرآن في مقابلة من حصل لهم الاهتداء به، وأيا ما كان فالمعنى عند الجميع أن فريقا خاصا من الكفار لا يرجى إيمانهم وهم الذين ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وروى ذلك عن ابن عباس والمقصود من ذلك أن عدم اهتدائهم بالقرآن كان لعدم قابليتهم لا لنقص في دلالة القرآن على الخير وهديه إليه.

والكفر بالضم إخفاء النعمة، وبالفتح: الستر مطلقا وهو مشتق من كفر إذا ستر. ولما كان إنكار الخالق أو إنكار كماله أو إنكار ما جاءت به رسله ضربا من كفران نعمته على جاحدها، أطلق عليه اسم الكفر وغلب استعماله في هذا المعنى وهو في الشرع إنكار ما دلت عليه الأدلة القاطعة وتناقلته جميع الشرائع الصحيحة الماضية حتى علمه البشر وتوجهت عقولهم إلى البحث عنه ونصبت عليه الأدلة كوحدانية الله تعالى ووجوده ولذلك عد أهل الشرك فيما بين الفترة كفارا. وإنكار ما علم بالضرورة مجيء النبي محمد

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ١٢٢/١

صلى الله عليه وسلم به ودعوته إليه وعده في أصول الإسلام أو المكابرة في الاعتراف بذلك ولو مع اعتقاد صدقه ولذلك عبر بالإنكار دون التكذيب. ويلحق بالكفر في إجراء أحكام الكفر عليه كل قول أو." (١)

"هنا معناه الملهم التوبة وهو كناية عن قبول توبة التائب.

وتعقيبه بالرحيم لأن الرحيم جار مجرى العلة للتواب إذ قبوله التوبة عن عباده ضرب من الرحمة بهم وإلا لكانت التوبة لا تقتضي إلا نفع التائب نفسه بعدم العود للذنب حتى تترتب عليه الآثام. وأما الإثم المترتب فكان من العدل أن يتحقق عقابه لكن الرحمة سبقت العدل هنا بوعد من الله.

[٣٩,٣٨] ﴿قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ [البقرة:٣٩]

كررت جملة ﴿قلنا اهبطوا﴾ فاحتمل تكريرها أن يكون لأجل ربط النظم في الآية القرآنية من غير أن تكون دالة على تكرير معناها في الكلام الذي خوطب به آدم فيكون هذا التكرير لمجرد اتصال ما تعلق بمدلول: ﴿وقلنا اهبطوا﴾ [البقرة: من الآية٣٦] وذلك قوله: ﴿بعضكم لبعض عدو﴾ [البقرة: من الآية٣٦] وقوله: ﴿فإما يأتينكم مني هدى﴾ إذ قد فصل بين هذين المتعلقين ما اعترض بينهما من قوله: ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم﴾ فإنه لو عقب ذلك بقوله: ﴿إما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي﴾ لم يرتبط كمال الارتباط ولتوهم السامع أنه خطاب للمؤمنين على عادة القرآن في التفنن فلدفع ذلك أعيد قوله: ﴿قلنا اهبطوا﴾ فهو قول واحد كرر مرتين لربط الكلام ولذلك لم يعطف ﴿قلنا﴾ لأن بينهما شبه كمال الاتصال لتنزل قوله: ﴿قلنا اهبطوا منها جميعا﴾ من قوله: ﴿وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو﴾ منزلة التوكيد اللفظي ثم بني عليه قوله: ﴿فإما يأتينكم مني هدى﴾ الآية وهو مغاير لما بني على قوله: ﴿وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو﴾ ليحصل شيء من تجدد فائدة في الكلام لكي لا يكون إعادة﴿اهبطوا﴾مجرد توكيد ويسمى هذا الأسلوب في علم البديع بالترديد نحو قوله تعالى: ﴿لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب﴾ [آل عمران:١٨٨]وإفادته التأكيد حاصلة بمجرد إعادة اللفظ.١

—

١ أردت بهذا أن أنبه على أن ما وقع في الكشاف أن اهبطوا الثاني تأكيد أراد به ما يقارب التأكيد وهو

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ١/٢٤٥

أنه يحصل من مجرد إعادة اللفظ تقرير لمدلوله في الذهن وإن لم يكن المقصود من ذكرهالتأكيد وعليه فالفصلليس لكمال الاتصال كما توهمه الشيخ عبد الحكيم عند قول البيضاوي كرر التأكيد.." (١)

"تمنى ابنتاي أن يعيش أبوهما ... وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر

أي فلا أخلد كما لم يخلد بنو ربيعة ومضر، فمن في قوله: ﴿من كسب سيئة﴾ شرطية بدليل دخول الفاء في جوابها وهي في الشرط من صيغ العموم فلذلك كانت مؤذنة بجملة محذوفة دل عليها تعقيب بلى بهذا العموم لأنه لو لم يرد به أن المخاطبين من زمر هذا العموم لكان ذكر العموم بعدها كلاما متناثرا ففي الكلام إيجاز الحذف ليكون المذكور كالقضية الكبرى لبرهان قوله بلى. والمراد بالسيئة هنا السيئة العظيمة وهي الكفر بدليل العطف عليها بقوله: ﴿وأحاطت به خطيئته﴾

وقوله: ﴿وأحاطت به خطيئته﴾ الخطيئة اسم لما يقترفه الإنسان من الجرائم وهي فعيلة بمعنى مفعولة من خطى إذا أساء، والإحاطة مستعارة لعدم الخلو عن الشيء لأن ما يحيط بالمرء لا يترك له منفذا للإقبال على غير ذلك قال تعالى ﴿وظنوا أنهم أحيط بهم﴾ وإحاطة الخطيئات هي حالة الكفر لأنها تجرئ على جميع الخطايا ولا يعتبر مع الكفر عمل صالح كما دل عليه قوله ﴿ثم كان من الذين آمنوا﴾ [البلد: ١٧]. فلذلك لم تكن في هذه الآية حجة للزاعمين خلود أصحاب الكبائر من المسلمين في النار إذ لا يكون المسلم محيطة به الخطيئات بل هو لا يخلو من عمل صالح وحسبك من ذلك سلامة اعتقاده من الكفر وسلامة لسانه من النطق بكلمة الكفر الخبيثة.

والقصر المستفاد من التعريف في قوله: ﴿فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ [البقرة: ٨١] قصر إضافي لقلب اعتقادهم.

وقوله : ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ [البقرة:٨٢]

تذييل لتعقيب النذارة بالبشارة على **عادة القرآن.**

والمراد بالخلود هنا حقيقته.

[٨٣] ﴿وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون﴾

أعيد ذكر أحوال بني إسرائيل بعد ذلك الاستطراد المتفنن فيه فأعيد الأسلوب." (٢)

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٤٢٥/١

(٢) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٥٦٣/١

"معظم المصاحف الأصلية إلا إبراهيم بإثبات الياء، قال أبو عمرو الداني لم أجد في مصاحف العراق والشام مكتوبا إبراهم بميم بعد الهاء ولم يكتب في شيء من المصاحف إبراهام بالألف بعد الهاء على وفق قراءة هشام، قال أبو زرعة سمعت عبد الله بن ذكوان قال سمعت أبا خليد القارئ يقول في القرآن ستة وثلاثون موضعا إبراهام قال أبو خليد فذكرت ذلك لمالك بن أنس فقال عندنا مصحف قديم فنظر فيه ثم أعلمني أنه وجدها فيه كذلك، وقال أبو بكر ابن مهران روى عن مالك بن أنس أنه قيل له إن أهل دمشق يقرأون إبراهام ويدعون أنها قراءة عثمان رضي الله عنه فقال مالك ها مصحف عثمان عندي ثم دعا به فإذا فيه كما قرأ أهل دمشق.

وتقديم المفعول وهو لفظ "إبراهيم" لأن المقصود تشريف إبراهيم بإضافة اسم رب إلى اسمه مع مراعاة الإيجاز فلذلك لم يقل وإذ ابتلى الله إبراهيم.

والكلمات الكلام الذي أوحى الله به إلى إبراهيم إذ الكلمة لفظ يدل على معنى والمراد بها هنا الجمل كما في قوله تعالى: ﴿كلا إنها كلمة هو قائلها﴾ [المؤمنون: من الآية١٠٠]، وأجملها هنا إذ ليس الغرض تفصيل شريعة إبراهيم ولا بسط القصة والحكاية وإنما الغرض بيان فضل إبراهيم ببيان ظهور عزمه وامتثاله لتكاليف فأتى بها كاملة فجوزي بعظيم الجزاء، وهذه **عادة القرآن** في إجمال ما ليس بمحل الحاجة، ولعل جمع الكلمات جمع السلامة يؤذن بأن المراد بها أصول الحنيفية وهي قليلة العدد كثيرة الكلفة، فلعل منها الأمر بذبح ولده، وأمره بالاختتان، وبالمهاجرة بهاجر إلى شقة بعيدة وأعظم ذلك أمره بذبح ولده إسماعيل بوحي من الله إليه في الرؤيا، وقد سمي ذلك بلاء في قوله تعالى: ﴿إن هذا لهو البلاء المبين﴾ [الصافات:١٠٦]

وقوله: ﴿فأتمهن﴾ جيء فيه بالفاء للدلالة على الفور في الامتثال وذلك من شدة العزم والإتمام في الأصل الإتيان بنهاية الفعل أو إكمال آخر أجزاء المصنوع.

وتعدية فعل أتم إلى ضمير كلمات مجاز عقلي، وهو من تعليق الفعل بحاوي المفعول لأنه كالمكان له وفي معنى الإتمام قوله تعالى: ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾ [لنجم:٣٧]

وقوله: ﴿قد صدقت الرؤيا﴾ [الصافات: ١٠٥]، فالإفعال هنا بمعنى إيقاع الفعل على الوجه الأتم وليس المراد بالهمز التصيير أي صيرها تامة بعد أن كانت ناقصة إذ ليس المراد أنه فعل بعضها ثم أتى بالبعض

الآخر، فدل قوله ﴿فأتمهن﴾ مع إيجازه على الامتثال وإتقانه والفور فيه. وهذه الجملة هي المقصود من جزء القصة فيكون عطفها للدلالة على أنه ابتلى." (١)

"المراد من اسم الإشارة. وقد عدل هنا عن بيان المشار إليه اكتفاء عنه بما هو واقع عند الدعاء، فإن إبراهيم دعا دعوته وهو في الموضع الذي بنى فيه الكعبة لأن الغرض ليس تفصيل حالة الدعاء إنما هو بيان استجابة دعائه وفضيلة محل الدعوة وجعل مكة بلدا آمنا ورزق أهله من الثمرات، وتلك **عادة القرآن** في الإعراض عما لا تعلق به بالمقصود ألا ترى أنه لما جعل البلد مفعولا ثانيا استغنى عن بيان اسم الإشارة، وفي سورة إبراهيم لما جعل ﴿آمنا﴾ مفعولا ثانيا بين اسم الإشارة بلفظ البلد، فحصل من الآيتين أن إبراهيم دعا لبلد بأن يكون آمنا.

والبلد المكان المتسع من الأرض المتحيز عامرا أو غامرا، وهو أيضا الأرض مطلقا، قال صنان اليشكري:

لكنه حوض من أودى بإخوته ... ريب المنون فأضحى بيضة البلد

يريد بيضة النعام في أدحى النعام أي محل بيضة، ويطلق البلد على القرية المكونة من بيوت عدة لسكنى أهلها بها وهو إطلاق حقيقي هو أشهر من إطلاق البلد على الأرض المتسعة والظاهر أن دعوة إبراهيم المحكية في هذه الآية كانت قبل أن تتقرى مكة حيث لم يكن بها إلا بيت إسماعيل أو بيت أو بيتان آخران لأن إبراهيم ابتدأ عمارته ببناء البيت من حجر، ولأن إلهام الله إياه لذلك لإرادته تعالى مصيرها مهيع الحضارة لتلك الجهة إرهاصا لنبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ويحتمل أن ذلك المكان كان مأهولا بسكان وقت مجيء إبراهيم وامرأته وابنه، والعرب يذكرون أنه كان في تلك الجهة عشائر من جرهم وقطورا والعمالقة والكركر في جهات أجياد وعرفات.

والآمن اسم فاعل من أمن ضد خاف، وهو عند الإطلاق عدم الخوف من عدو ومن قتال ذلك ما ميز الله مكة به من بين سائر بلاد العرب، وقد يطلق الأمن على عدم الخوف مطلقا فتعين ذكر متعلقة، وإنما يوصف بالأمن ما يصح اتصافه بالخوف وهو ذو الإدراكية، فالإخبار بآمنا عن البلد إما بجعل وزن فاعل هنا للنسبة بمعنى ذا أمن كقول النابغة

كليني لهم يا أميمة ناصب

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ١/٦٨٤

أي ذي نصب، وإما على إرادة آمنا أهله على طريقة المجاز العقلي لملابسة المكان، ثم إن كان المشار إليه في وقت دعاء إبراهيم أرضا فيها بيت أو بيتان. فالتقدير في الكلام." (١)

"تكونن من الممترين﴾ نهى عن أن يكون من الشاكين في ذلك والمقصود من هذا.

والتعريف في ﴿الحق﴾ تعريف الجنس كما في قوله: ﴿الحمد لله﴾ وقولهم الكرم في العرب هذا التعريف لجزئي الجملة الظاهر والمقدر يفيد قصر الحقيقة على الذي يكتمونه وهو قصر قلب أي لا ما يظهرونه من التكذيب وإظهار أن ذلك مخالف للحق.

والامتراء افتعال من المراء وهو الشك، والافتعال فيه ليس للمطاوعة ومصدر المرية لا يعرف له فعل مجرد بل هو دائما بصيغة الافتعال،

والمقصود من خطاب النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: ﴿ولئن اتبعت﴾ وقوله: ﴿فلا تكونن من الممترين﴾ تحذير الأمة وهذه عادة القرآن في كل تحذير مهم ليكون خطاب النبي بمثل ذلك وهو أقرب الخلق إلى الله تعالى وأولاهم بكرامته دليلا على أن من وقع في مثل ذلك من الأمة قد حقت عليه كلمة العذاب، وليس له من النجاة باب، ويجوز أن يكون الخطاب في قوله: ﴿من ربك﴾ وقوله: ﴿فلا تكونن﴾ خطابا لغير معين من كل من يصلح لهذا الخطاب.

[١٤٨] ﴿ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات أين ما تكونوا يأت بكم الله جميعا إن الله على كل شيء قدير﴾ عطف على جملة: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾ [البقرة:١٤٦]، فهو من تمام الاعتراض، أو عطف على جملة ﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك﴾ [البقرة:١٤٥] مع اعتبار ما استؤنف عنه من الجمل، ذلك أنه بعد أن لقن الرسول صلى الله عليه وسلم ما يجيب به عن قولهم: ﴿ما ولاهم عن قبلتهم﴾ وبعد أن بين للمسلمين فضيلة قبلتهم وأنهم على الحق وأيأسهم من ترقب اعتراف اليهود بصحة استقبال الكعبة، ذيل ذلك بهذا التذييل الجامع لمعان سامية، طيا لبساط المجادلة مع اليهود في أمر القبلة، كما يقال في المخاطبات دع هذا أو عد عن هذا ، والمعنى أن لكل فريق اتجاها من الفهم والخشية عند طلب الوصول إلى الحق. وهذا الكلام موجه إلى المسلمين أي اتركوا مجادلة أهل الكتاب في أمر القبلة ولا يهمنكم خلافهم فإن خلاف المخالف لا يناكد حق المحق.

وفيه صرف للمسلمين بأن يهتموا بالمقاصد ويعتنوا بإصلاح مجتمعهم، وفي معناه قوله تعالى: ﴿ليس البر

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ١/٦٩٥

أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر﴾ [البقرة:١٧٧] الآية، ولذلك أعقبه بقوله: ﴿فاستبقوا." (١)

"البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم﴾

استئناف على طريقة للاعتراض انتهازا للفرصة إلى الدخول في السلم، ومناسبة ذكره عقب ما قبله أن الآيات السابقة اشتملت على تقسيم الناس تجاه الدين مراتب، أعلاها ﴿من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله﴾ [البقرة:٢٠٧] لأن النفس أغلى ما يبذل، وأقلها ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام﴾ [البقرة:٢٠٤] أي يضمر الكيد ويفسد على الناس ما فيه نفع الجميع وهو خيرات الأرض، وذلك يشتمل على أنه اعتدى على قوم مسالمين فناسب بعد أن يدعي الناس إلى الدخول فيما يطلق عليه اسم السلم وهذه المناسبة تقوى وتضعف بحسب تعدد الاحتمالات في معنى طلب الدخول في السلم.

والخطاب بيا أيها الذين آمنوا خطاب للمسلمين على **عادة القرآن** في إطلاق هذا العنوان، ولأن شأن الموصول أن يكون بمنزلة المعرف بلام العهد.

و"الدخول" حقيقته نفوذ الجسم في جسم أو مكان محوط كالبيت والمسجد، ويطلق مجازا مشهورا على حلول المكان الواسع يقال دخل بلاد بني أسد وهو هنا مستعار للاتباع والالتزام وشدة التلبس بالفعل.

و"السلم" بفتح السين وكسرها مع سكون اللام، قرأ نافع وابن كثير والكسائي وأبو جعفر بفتح السين وقرأ باقي العشرة بكسر السين، ويقال سلم بفتح السين واللام قال تعالى: ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا﴾ [النساء:٩٤] وحقيقة السلم الصلح وترك الحرب قال عباس ابن مرداس:

السلم تأخذ منها ما رضيت به ... والحرب تكفيك من أنفاسها جزع

وشواهد هذا كثيرة في كلامهم وقال زهير:

وقد قلتما إن ندرك السلم واسعا

بكسر السين واشتقاقه من السلامة وهي النجاة من ألم أو ضر أو عناد يقال أسلم نفسه لفلان أي أعطاه إياها بدون مقاومة، واستسلم طلب السلم أي ترك المقاومة، وتقول العرب: أسلم أم حرب، أي أ أنت مسالم

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٢/٤١

أم محارب، وكلها معان متولد بعضها من بعض فلذلك جزم أئمة اللغة بأن السلم بكسر السين وفتحها وبالتحريك يستعمل كل واحد منها فيما يستعمل فيه الآخر.." (١)

"باطل، وممن كان يسخر بهم عبد الله بن أبي والمنافقون.

وجيء في فعل التزيين بصيغة الماضي وفي فعل السخرية بصيغة المضارع قضاء لحقي الدلالة على أن معنيي فعل التزيين أمر مستقر فيهم؛ لأن الماضي يدل على التحقق، وأن معنى ﴿يسخرون﴾ متكرر متجدد منهم؛ لأن المضارع يفيد التجدد، ويعلم السامع أن ما هو محقق بين الفعلين هو أيضا مستمر؛ لأن الشيء الراسخ في النفس لا تفتر عن تكريره، ويعلم أن ما كان مستمرا هو أيضا محقق؛ لأن الفعل لا يستمر إلا وقد تمكن من نفس فاعله وسكنت إليه، فيكون المعنى في الآية: زين للذين كفروا وتزين الحياة الدنيا وسخروا ويسخرون من الذين آمنوا، وعلى هذا فإنما اختير لفعل التزيين خصوص المضي ولفعل السخرية خصوص المضارعة إيثار لكل من الصفتين بالفعل التي هي به أجدر؛ لأن التزيين لما كان هو الأسبق في الوجود وهو منشأ السخرية أوثر بما يدل على التحقق، ليدل على ملكة واعتمد في دلالته على الاستمرار بالاستتباع، والسخرية لما كانت مترتبة على التزيين وكان تكررها يزيد في الذم، إذ لا يليق بذي المروة السخرية بغيره، أوثرت بما يدل على الاستمرار واعتمد في دلالتها على التحقق دلالة الالتزام، لأن الشيء المستمر لا يكون إلا متحققا.

وقوله: ﴿والذين اتقوا فوقهم﴾ أريد من الذين اتقوا المؤمنون الذين سخر منهم الذين كفروا؛ لأن أولئك المؤمنين كانوا متقين، وكان مقتضى الظاهر أن يقال وهم فوقهم لكن عدل عن الإضمار إلى اسم ظاهر لدفع إيهام أن يغتر الكافرون بأن الضمير عائد إليهم ويضموا إليه كذبا وتلفيقا كما فعلوا حين سمعوا قوله تعالى: ﴿أفرأيتم اللات والعزى﴾ [لنجم:١٩] إذ سجد المشركون وزعموا أن محمدا أثنى على آلهتهم.

فعدل لذلك عن الإضمار إلى الإظهار ولكنه لم يكن بالاسم الذي سبق أعني ﴿الذين آمنوا﴾ لقصد التنبيه على مزية التقوى وكونها سببا عظيما في هذه الفوقية، على **عادة القرآن** في انتهاز فرص الهدى والإرشاد ليفيد فضل المؤمنين على الذين كفروا، وينبه المؤمنين على وجوب التقوى لتكون سبب تفوقهم على الذين كفروا يوم القيامة، وأما المؤمنون غير المتقين فليس من غرض القرآن أن يعبأ بذكر حالهم ليكونوا دوما بين شدة الخوف وقليل الرجاء، وهذه **عادة القرآن** في مثل هذا المقام.

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٢٥٩/٢

والفوقية هنا فوقية تشريف وهي مجاز في تناهي الفضل والسيادة كما استعير التحت لحالة الفضول والمسخر والمملوك. وقيدت بيوم القيامة تنصيصا على دوامها، لأن ذلك." (١)

"تعالى: ﴿كان الناس أمة واحدة﴾ الآية إجمال لذلك وقد ختم بقوله: ﴿فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه﴾ ، ولما كان هذا الختام منقبة للمسلمين أوقظوا أن لا يزهوا بهذا الثناء فيحسبوا أنهم قضوا حق شكر النعمة فعقب بأن عليهم أن يصبروا لما عسى أن يعترضهم في طريق إيمانهم من البأساء والضراء اقتداء بصالحي الأمم السالفة، فكما حذرهم الله من الوقوع فيما وقع فيه الضالون من أولئك الأمم حرضهم هنا على الاقتداء بهدى المهتدين منهم على **عادة القرآن** في تعقيب البشارة بالنذارة وعكس ذلك، فيكون قوله: ﴿أم حسبتم﴾ إضرابا عن قوله: ﴿فهدى الله الذين آمنوا﴾ وليكون ذلك تصبيرا لهم على ما نالهم يوم الحديبية من تطاول المشركين عليهم بمنعهم من العمرة وما اشترطوا عليهم للعام القابل، ويكون أيضا تمهيدا لقوله: ﴿كتب عليكم القتال﴾ [البقرة:٢١٦] الآية، وقد روى عن أكثر المفسرين الأولين أن هذه الآية نزلت في غزوة الخندق حين أصاب المسلمين ما أصابهم من الجهد والشدائد فتكون تلك الحادثة زيادة في المناسبة.

و"أم" في الإضراب كبل إلا أن أم تؤذن بالاستفهام وهو هنا تقرير بذلك وإنكاره إن كان حاصلا أي بل أحسبتم أن تدخلوا دون بلوى وهو حسبان باطل لا ينبغي اعتقاده.

وحسب بكسر السين في الماضي: فعل من أفعال القلوب أخوات ظن، وفي مضارعه وجهان كسر السين وهو أجود وفتحها وهو أقيس وقد قريء بهما في المشهور، ومصدره الحسبان بكسر الحاء وأصله من الحساب بمعنى العد فاستعمال في الظن تشبيها لجولان النفس في استخراج علم ما يقع بجولان اليد في الأشياء لتعيين عددها ومثله في ذلك فعل عد بمعنى ظن.

والخطاب للمسلمين وهو إقبال عليهم بالخطاب بعد أن كان الكلام على غيرهم فليس فيه التفات، وجعله صاحب "الكشاف" التفاتا بناء على تقدم قوله: ﴿فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه﴾ [البقرة:٢١٣] وأنه يقتضي أن يقال أم حسبوا أي الذين آمنوا، والأظهر أنه لما وقع الانتقال من غرض إلى غرض بالإضراب الانتقالي الحاصل بأم، صار الكلام افتتاحا محضا وبذلك يتأكد اعتبار الانتقال من أسلوب إلى أسلوب، فالالتفات هنا غير منظور إليه على التحقيق.

ودخول الجنة هنا دخولها بدون سبق عناء وبلوى، وهو دخول الذين استوفوا كل ما وجب عليهم ولم يقصروا

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٢/ ٢٨٠

في شئ منه، وإلا فإن دخول الجنة محسوب لكل مؤمن ولو لم تأته البأساء والضراء أو أتته ولم يصبر عليها، بمعنى أن الصبر على ذلك وعدم الضجر منه." (١)

"حكيم﴾

﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾

استئناف لإبطال عملين غالبين على الناس في الجاهلية وهما شرب الخمر والميسر وهذا من عداد الأحكام التي بينها في هاته السورة مما يرجع إلى إصلاح الأحوال التي كان عليها الناس في الجاهلية، والمشروع في بيانها من قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى﴾ [البقرة:١٧٨] إلى آخر السورة، عدا ما تخلل ذلك من الآداب والزواجر والبشائر والمواعظ والأمثال والقصص؛ على عادة القرآن في تفنن أساليبه تنشيطا للمخاطبين والسامعين والقارئين ومن بلغ، وقد تناسقت في هذه الآية.

والسائلون هم المسلمون؛ قال الواحدي: نزلت في عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل ونفر من الأنصار أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله افتنا في الخمر فإنها مذهبة للعقل متلفة للمال؛ فنزلت هذه الآية، قال في "الكشاف": فلما نزلت هذه الآية ترك الخمر قوم وشربها آخرون ثم نزلت بعدها آية المائدة: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر﴾ الآية.

وشرب الخمر عمل متأصل في البشر قديما لم تحرمه شريعة من الشرائع لا القدر المسكر بله ما دونه، وأما ما يذكره بعض علماء الإسلام: إن الإسكار حرام في الشرائع كلها فكلام لا شاهد لهم عليه بل الشواهد على ضده متوافرة، وإنما جرأهم على هذا القول ما قعدوه في أصول الفقه من أن الكليات التشريعية وهي حفظ الدين والنفس والعقل والنسب والمال والعرض هي مما اتفقت عليه الشرائع، وهذا القول وإن كنا نساعد عليه فإن معناه عندي أن الشرائع كلها نظرت إلى حفظ هاته الأمور في تشريعاتها، وأما أن تكون مراعاة باطراد في غير سريعة الإسلام فلا أحسب ذلك يتم، على أن في مراعاتها درجات، ولا حاجة إلى البحث في هذا بيد أن كتب أهل الكتاب ليس فيها تحريم الخمر ولا التنزيه عن شربها. وفي التوراة التي بيد اليهود أن نوحا شرب الخمر حتى سكر، وأن لوطا شرب الخمر حتى سكر سكرا أفضى بزعمهم إلى أمر شنيع، والأخير من الأكاذيب؛ لأن النبوة تستلزم العصمة، والشرائع وإن اختلفت في إباحة أشياء فهنالك ما

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٢٩٧/٢

يستحيل على الأنبياء مما يؤدي إلى نقصهم في أنظار العقلاء والذي يجب اعتقاده: أن شرب الخمر لا يأتيه الأنبياء؛ لأنها لا يشربها شاربوها إلا للطرب واللهو والسكر وكل ذلك مما يتنزه عنه الأنبياء." [1]

"ثلاثة أشهر، وينفد في أربعة أشهر وقيل: إنه سأل ابنته حفصة. فأمر عمر قواد الأجناد ألا يمسكوا الرجل في الغزو أكثر من أربعة أشهر، فإذا مضت استرد الغازين ووجه قوما آخرين.

[٢٢٨] ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحا ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم﴾

﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحا﴾

عطف على الجملة قبلها، لشدة المناسبة، وللاتحاد في الحكم وهو التربص، إذ كلاهما انتظار لأجل المراجعة، ولذلك لم يقدم قوله: ﴿الطلاق مرتان﴾ [البقرة:٢٢٩] على قوله: ﴿والمطلقات يتربصن﴾ لأن هذه الآي جاءت متناسقة، منتظمة على حسب مناسبات الانتقال على عادة القرآن في إبداع الأحكام، وإلقائها، بأسلوب سهل لا تسأم له النفس، ولا يجيء على صورة التعليم والدرس.

وسيأتي كلامنا على الطلاق عند قوله تعالى: ﴿الطلاق مرتان﴾.

وجملة: ﴿والمطلقات يتربصن﴾ خبرية مراد بها الأمر، فالخبر مستعمل في الإنشاء وهو مجاز فيجوز جعله مجازا مرسلا مركبا، باستعمال الخبر في لازم معناه، وهو التقرر والحصول. وهو الوجه الذي اختاره التفتازاني في قوله تعالى: ﴿أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار﴾ [الزمر:١٩] بأن يكون الخبر مستعملا في المعنى المركب الإنشائي، بعلاقة اللزوم بين الأمر، مثلا كما هنا، وبين الامتثال، حتى يقدر المأمور فاعلا فيخبر عنه. ويجوز جعله مجازا تمثيليا، كما اختاره الزمخشري في هذه الآية إذ قال "فكأنهن امتثلن الأمر بالتربص فهو يخبر عنه موجودا ونحوه قولهم في الدعاء: رحمه الله ثقة بالاستجابة" قال التفتازاني: فهو تشبيه ما هو مطلوب الوقوع بما هو محقق الوقوع في الماضي كما في قول الناس: رحمه الله، أو في المستقبل، أو الحال، كما في هذه الآية. قلت: وقد تقدم في قوله تعالى: ﴿فلا رفث ولا فسوق

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٢/٣٢١

ولا جدال في الحج﴾ [البقرة:١٩٧] وأنه أطلق المركب الدال على الهيئة المشبه بها على الهيئة المشبهة. والتعريف في "المطلقات" تعريف الجنس. وهو مفيد للاستغراق، إذ لا يصلح لغيره." (١)

"وجملة ﴿إن الله لا يخلف الميعاد﴾ تعليل لنفي الريب أي لأن الله وعد بجمع الناس له، فلا يخلف ذلك، والمعنى: إن الله لا يخلف خبره، والميعاد هنا اسم مكان.

﴿إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك هم وقود النار [١٠] كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب﴾ [١١]

استئناف كلام ناشئ عن حكاية ما دعا به المؤمنون: من دوام الهداية، وسؤال الرحمة، وانتظار الفوز يوم القيامة، بذكر حال الكافرين في ذلك اليوم، على **عادة القرآن** في إرداف البشارة بالنذارة. وتعقيب دعاء المؤمنين، بذكر حال المشركين، إيماء إلى أن دعوتهم استجيبت. والمراد بالذين كفروا: المشركون، وهذا وصف غالب عليهم في اصطلاح القرآن وقيل: الذين كفروا بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم أريد هنا قريظة والنضير وأهل نجران؛ ويرجح هذا بأنهم ذكروا بحال فرعون دون حال عاد وثمود، فأن اليهود والنصارى أعلق بأخبار فرعون. كما أن العرب أعلق بأخبار عاد وثمود، وأن الرد على النصارى من أهم أغراض هذه السورة. ويجوز أن يكون المراد جميع الكافرين: من المشركين، وأهل الكتابين، ويكون التذكير بفرعون لأن وعيد اليهود في هذه الآية أهم.

ومعنى تغني تجزي وتكفي وتدفع، وهو فعل قاصر يتعدى إلى المفعول بعن نحو ما أغنى عني ماليه. ولدلالة هذا الفعل على الإجزاء والدفع، كان مؤذنا بأن هنالك شيئا يدفع ضره، وتكفى كلفته، فلذلك قد يذكرون مع هذا الفعل متعلقا ثانيا ويعدون الفعل إليه بحرف من كما في هذه الآية، فتكون من للبدل والعوض على ما ذهب إليه في الكشاف، وجعل ابن عطية من للابتداء.

وقوله ﴿من الله﴾ أي من أمر يضاف إلى الله؛ لأن تعليق هذا الفعل، تعليقا ثانيا، باسم ذات لا يقصد منه إلا أخص حال اشتهرت به، أو في الغرض المسوق له الكلام فيقدر معنى اسم مضاف إلى اسم الجلالة. والتقدير هنا من رحمة الله، أو من طاعته، إذا كانت من للبدل وكذا قدره في الكشاف، ونظره بقوله تعالى ﴿وإن الظن لا يغني من الحق شيئا﴾ [النجم:٢٨]. وعلى جعل من للابتداء كما قال ابن عطية تقدر من

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٣٦٩/٢

غضب الله، أو من عذابه، أي غناء مبتدئا من ذلك: على حد قولهم: نجاه من كذا أي فصله منه، ولا." (١)

"وقوله: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ يجوز أن كون تكريرا للتحذير الأول لزيادة التأكيد لقول لبيد:

فتنازعا سبطا يطير ظلاله ... كدخان مشعلة يشب ضرامها

مشمولة غلثت بنابت عرنج ... كدخان نار ساطع أسنامها

ويجوز أن يكون الأول تحذيرا من موالاة الكافرين، والثاني تحذيرا من أن يجدوا يوم القيامة ما عملوا من سوء محضرا.

والخطاب للمؤمنين ولذلك سمى الموعظة تحذيرا: لأن المحذر لا يكون متلبسا بالوقوع في الخطر، فإن التحذير تبعيد من الوقوع وليس انتشالا بعد الوقوع وذيله هنا بقوله: ﴿والله رؤوف بالعباد﴾ للتذكير بأن هذا التحذير لمصلحة المحذرين.

والتعريف في العباد للاستغراق: لأن رأفة الله شاملة لكل الناس مسلمهم وكافرهم ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾ [فاطر: ٤٥] ﴿الله لطيف بعباده﴾ [الشورى: ١٩] وما وعيدهم إلا لجلب صلاحهم، وما تنفيذه بعد فوات المقصود منه إلا لصدق كلماته، وانتظام حكمته سبحانه. ولك أن تجعل أل عوضا عن المضاف إليه أي بعباده فيكون بشارة للمؤمنين.

﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم﴾ [٣١].ا

نتقال إلى الترغيب بعد الترهيب على **عادة القرآن**. والمناسبة أن الترهيب المتقدم ختم بقوله ﴿والله رؤوف بالعباد﴾ [آل عمران: ٣٠] والرأفة تستلزم محبة المرؤوف به الرؤف، فجعل محبة الله فعلا للشرط في مقام تعليق الأمر باتباع الرسول عليه مبني على كون الرأفة تستلزم المحبة، أو هو مبني على أن محبة الله أمر مقطوع به من جانب المخاطبين، فالتعليق عليه تعليق شرط محقق، ثم رتب على الجزاء مشروط آخر وهو قوله: ﴿يحببكم الله﴾ لكونه أيضا مقطوع الرغبة من المخاطبين، لأن الخطاب للمؤمنين، والمؤمن غاية قصده تحصيل رضا الله عنه ومحبته إياه.

والمحبة: انفعال نفساني ينشأ عند الشعور بحسن شيء: من صفات ذاتية. أو إحسان، أو اعتقاد أنه يحب

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٣١/٣

المستحسن ويجر إليه الخير. فإذا حصل ذلك الانفعال عقبه ميل وانجذاب إلى الشيء المشعور بمحاسنه، فيكون المنفعل محبا، ويكون المشعور." (١)

"خذلان المسلمين، وكله تمهيد لما يأتي من قوله: ﴿ولقد عفا عنكم﴾ .

وقوله: ﴿منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة﴾ تفصيل لتنازعتم، وتبيين لعصيتم، وتخصيص له بأن العاصين بعض المخاطبين المتنازعين إذ الذين أرادوا الآخرة ليسوا بعاصين، ولذلك أخرت هاته الجملة إلى بعد الفعلين، وكان مقتضى الظاهر أن يعقب بها قوله: ﴿وتنازعتم في الأمر﴾ وفي هذا الموضع للجملة ما أغنى عن ذكر ثلاث جمل وهذا من أبدع وجوه الإعجاز، والقرينة واضحة.

والمراد بقوله: ﴿منكم من يريد الدنيا﴾ إرادة نعمة الدنيا وخيرها، وهي الغنيمة، لأن من أراد الغنيمة لم يحرص على ثواب الامتثال لأمر الرسول بدون تأويل، وليس هو مفرطا في الآخرة مطلقا، ولا حاسبا تحصيل خير الدنيا في فعله ذلك مفيتا عليه ثواب الآخرة في غير ذلك الفعل، فليس في هذا الكلام ما يدل على أن الفريق الذين أرادوا ثواب الدنيا قد ارتدوا عن الإيمان حينئذ، إذ ليس الحرص على تحصيل فائدة دنيوية من فعل من الأفعال، مع عدم الحرص على تحصيل ثواب الآخرة ن ذلك الفعل بدال على استخفاف بالآخرة، وإنكار لها، كما هو بين، ولا حاجة إلى تقدير: منكم من يريد الدنيا فقط. وإنما سميت من خالف أمر الرسول عصيانا، مع أن تلك المخالفة كانت عن اجتهاد لا عن استخفاف، إذ كانوا قالوا: إن رسول الله أمرنا بالثبات هنا لحماية ظهور المسلمين، فلما نصر الله المسلمين فما لنا وللوقوف هنا حتى تفوتنا الغنائم، فكانوا متأولين، فإنما سميت هنا عصيانا لأن المقام ليس مقام اجتهاد، فإن شأن الحرب الطاعنة للقائد من دون تأويل، أو لأن التأويل كان بعيدا فلم يعذروا فيه، أو لأنه كان تأويلا لإرضاء حب المال، فلم يكن مكافئا لدليل وجوب طاعة الرسول.

وإنما قال: ﴿ثم صرفكم عنهم ليبتليكم﴾ ليدل على أن ذلك الصرف بإذن الله وتقديره، كما كان القتل بإذن الله وأن حكمته الابتلاء، ليظهر للرسول وللناس من ثبت على الإيمان من غيره، ولأن في الابتلاء أسرارا عظيمة في المحاسبة بين العبد وربه سبحانه وقد أجمل هذا الابتلاء هنا وسيبينه.

وعقب هذا الملام بقوله: ﴿ولقد عفا عنكم﴾ تسكينا لخواطرهم، وفي ذلك تلطف معهم على **عادة القرآن** في تقريع المؤمنين، وأعظم من ذلك تقديم العفو على الملام في ملام الرسول عليه السلام في قوله تعالى:

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٣/٧٨

﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ [التوبة: ٤٣]. فتلك رتبة أشرف من رتبة تعقيب الملام بذكر العفو، وفيه أيضا دلالة على صدق إيمانهم إذ." (١)

"تقتلوا أنفسكم﴾ ، فلم ينكر عليه النبي صلى الله عليه وسلم فذلك من الاحتجاج بعموم ضمير تقتلوا دون خصوص السبب.

وقوله ﴿ومن يفعل ذلك﴾ أي المذكور: من أكل المال بالباطل والقتل. وقيل: الإشارة إلى ما ذكر من قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها﴾ [النساء:١٩] لأن ذلك كله لم يرد بعده وعيد، وورد وعيد قبله، قاله الطبري، وإنما قيده بالعدوان والظلم ليخرج أكل المال بوجه الحق، وقتل النفس كذلك، كقتل القاتل، وفي الحديث "فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها" .

والعدوان بضم العين مصدر بوزن كفران، ويقال بكسر العين وهو التسلط بشدة، فقد يكون بظلم غالبا، ويدون حق، قال تعالى ﴿فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ [البقرة:١٩٣] وعطف قوله ﴿وظلما﴾ على ﴿عدوانا﴾ من عطف الخاص على العام.

وسوف حرف يدخل على المضارع فيمحضه للزكم المستقبل، وهو مرادف للسين على الأصح، وقال بعض النحاة: سوف تدل على مستقبل بعيد وسماه: التسويف، وليس في الاستعمال ما يشهد لهذا، وقد تقدم عند قوله ﴿وسيصلون سعيرا﴾ في هذه السورة [النساء:١٠]. ونصليه نجعله صاليا أو محترقا، وقد مضى فعل صلي أيضا، ووجه نصب نارا هنالك، والآية دلت على كليتين من كليات الشريعة: وهما حفظ الأموال، وحفظ الأنفس، من قسم المناسب الضروري.

[٣١] ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما﴾ .

اعتراض ناسب ذكره بعد ذكر ذنبين كبيرين: وهما قتل النفس، وأكل المال بالباطل، على **عادة القرآن** في التفنن من أسلوب إلى أسلوب، وفي انتهاز الفرص في إلقاء التشريع عقب المواعظ وعكسه.

وقد دلت إضافة ﴿كبائر﴾ إلى ﴿ما تنهون عنه﴾ على أن المنبهات قسمان: كبائر، ودونها، وهي التي تسمى الصغائر، وصفا بطريق المقابلة، وقد سميت هنا سيئات. ووعد بأنه يغفر السيئات للذين يجتنبون كبائر المنهيات، وقال في آية النجم [٣٢] ﴿الذين يجتنبون كبائر الأثم والفواحش إلا اللمم﴾ فسمى

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٢٥٣/٣

الكبائر فواحش وسمى مقابلها اللمم، فثبت بذلك أن المعاصي عند الله قسمان: معاصي كبيرة فاحشة، ومعاصي دون ذلك يكثر." (١)

"[٨٥] ﴿من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها وكان الله على كل شيء مقيتا﴾ .

استئناف فيه معنى التذييل والتعليل لقوله ﴿لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين﴾ [النساء:٨٤] وهو بشارة للرسول عليه الصلاة والسلام بأن جهاد المجاهدين بدعوته يناله منه نصيب عظيم من الأجر، فإن تحريضه إياهم وساطة بهم في خيرات عظيمة، فجاءت هذه الآية بهذا الحكم العام على **عادة القرآن** في انتهاز فرص الإرشاد. ويعلم من عمومها أن التحريض على القتال في سبيل الله من الشفاعة الحسنة، وأن سعي المثبطين للناس من قبيل الشفاعة السيئة، فجاءت هذه الآية إيذانا للفريقين بحالتهما. والمقصود مع ذلك الترغيب في التوسط في الخير والترهيب من ضده.

والشفاعة: الوساطة في إيصال خير أو دفع شر، سواء كانت بطلب من المنتفع أم لا، وتقدمت في قوله تعالى ﴿لا يقبل منها شفاعة﴾ في سورة البقرة[٤٨]، وفي الحديث "اشفعوا فلتؤجروا". ووصفها بالحسنة وصف كاشف؛ لأن الشفاعة لا تطلق إلا على الوساطة في الخير، وأما إطلاق الشفاعة على السعي في جلب شر فهو مشاكلة، وقرينتها وصفها بسيئة، إذ لا يقال شفع للذي سعى بجلب سوء.

والنصيب: الحظ من كل شيء: خيرا كان أو شرا، وتقدم في قوله تعالى ﴿أولئك لهم نصيب مما كسبوا﴾ في سورة البقرة[٢٠٢].

والكفل بكسر الكاف وسكون الفاء الحظ كذلك، ولم يتبين لي وجه اشتقاقه بوضوح. ويستعمل الكفل بمعنى المثل، فيؤخذ من التفسيرين أن الكفل هو الحظ المماثل لحظ آخر، وقال صاحب اللسان: لا يقال هذا كفل فلان حتى يكون قد هيئ لغيره مثله، ولم يعز هذا، ونسبه الفخر إلى ابن المظفر، ولم يذكر ذلك أحد غير هذين فيما علمت، ولعله لا يساعد عليه الاستعمال. وقد قال الله تعالى ﴿يؤتكم كفلين من رحمته﴾ [الحديد:٢٨]. وهل يحتج بما قاله ابن المظفر وابن المظفر هو محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمي الأديب معاصر المتنبي. وفي مفردات الراغب أن الكفل هو الحظ من الشر والشدة، وأنه مستعار من الكفل وهو الشيء الرديء، فالجزاء في جانب الشفاعة الحسنة بأنه نصيب إيماء إلى أنه قد يكون له

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ١٠٢/٤

أجر أكثر من ثواب من شفع عنده.

وجملة ﴿وكان الله على كل شيء مقيتا﴾ تذييل لجملة ﴿من يشفع شفاعة حسنة﴾." (١)

"يتهم المتهم غيره أن يتهم من اتهمه، وبذلك ترتفع الثقة، ويسهل على ضعفاء الإيمان المروق، إذ قد أصبحت التهمة تظل الصادق والمنافق، وانظر معاملة النبي صلى الله عليه وسلم المنافقين معاملة المسلمين. على أن هذا الدين سريع السريان في القلوب فيكتفي أهله بدخول الداخلين فيه من غير مناقشة، إذ لا يلبثون أن يألفوه، وتخالط بشاشته قلوبهم، فهم يقتحمونه على شك وتردد فيصير إيمانا راسخا، ومما يعين على ذلك ثقة السابقين فيه باللاحقين بهم.

ومن أجل ذلك أعاد الله الأمر فقال ﴿فتبينوا﴾ تأكيدا لتبينوا المذكور قبله، وذيله بقوله ﴿إن الله كان بما تعملون خبيرا﴾ وهو يجمع وعيدا ووعدا.

[٩٥,٩٦] ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما﴾ .

ولما لام الله بعض المجاهدين على ما صدر منهم من التعمق في الغاية من الجهاد، عقب ذلك ببيان فضل المجاهدين كيلا يكون ذلك اللوم موهما انحطاط فضيلتهم في بعض أحوالهم، على **عادة القرآن** في تعقيب النذارة بالبشارة دفعا لليأس من الرحمة عن أنفس المسلمين.

يقول العرب لا يستوي وليس سواء بمعنى أن أحد المذكورين أفضل من الآخر. ويعتمدون في ذلك على القرينة الدالة على تعيين المفضل لأن من شأنه أن يكون أفضل. قال السمؤال أو غيره:

فليس سواء عالم وجهول

وقال تعالى ﴿ليسوا سواء﴾ [آل عمران:١١٣]، وقد يتبعونه بما يصرح بوجه نفي السوائية: إما لخفائه كقوله تعالى ﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا﴾ [الحديد:١٠]، وقد يكون التصريح لمجرد التأكيد كقوله ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون﴾ [الحشر:٢٠]. وإذ قد كان وجه التفاضل معلوما في أكثر مواقع أمثال هذا

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٤/٢٠٥

التركيب، صار في الغالب أمثال هذا التركيب مستعملة في معنى الكناية، وهو التعريض بالمفضول في تفريطه." (١)

"الهجرة المرادة من هذه الآية: فقيل: الهجرة إلى المدينة، وقيل: الهجرة إلى الحبشة. واختلف في المعني بالموصول من قوله ﴿ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله﴾ . فعند من قالوا: إن المراد الهجرة إلى المدينة قالوا المراد بمن يخرج رجل من المسلمين كان بقي بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، فلما نزل قوله تعالى ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم﴾ إلى قوله ﴿وكان الله عفوا غفورا﴾ [النساء:٩٧، ١٠٠] كتب بها النبي صلى الله عليه وسلم إلى المسلمين من أهل مكة، وكان هذا الرجل مريضا، فقال: إني لذو مال وعبيد، فدعا أبناءه وقال لهم: احملوني إلى المدينة. فحملوه على سرير، فلما بلغ التنعيم توفي، فنزلت هذه الآية فيه. وتعم أمثاله، فهي عامة في سياق الشرط لا يخصصها سبب النزول.

وكان هذا الرجل من كنانة، وقيل من خزاعة، وقيل من جندع، واختلف في اسمه على عشرة أقوال: جندب بن حمزة الجندعي، حندج بن ضمرة الليثي الخزاعي. ضمرة بن بغيض الليثي، ضمرة بن جندب الضمري، ضمرة بن ضمرة بن نعيم. ضمرة من خزاعة كذا. ضمرة بن العيص. العيص بن ضمرة بن زنباع، حبيب بن ضمرة، أكثم بن صيفي.

والذين قالوا: إنها الهجرة إلى الحبشة قالوا: إن المعني بمن يخرج من بيته خالدين حزام بن خويلد الأسدي ابن أخي خديجة أم المؤمنين، خرج مهاجرا إلى الحبشة فنهشته حية في الطريق فمات. وسياق الشرط يأبى هذا التفسير.

[١٠١,١٠٢] ﴿وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا﴾ .

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٢٢٧/٤

انتقال إلى التشريع آخر بمناسبة ذكر السفر للخروج من سلطة الكفر، على عادة القرآن في تفنين أغراضه، والتماس مناسباتها. والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها. والضرب." (١)

"خلق الله إنما يكون إثما إذا كان فيه حظ من طاعة الشيطان، بأن يجعل علامة لنحلة شيطانية، كما هو سياق الآية واتصال الحديث بها. وقد أوضحناه ذلك في كتابي المسمى: النظر الفسيح على مشكل الجامع الصحيح.

وجملة ﴿ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا﴾ تذييل دال على أن ما دعاهم إليه الشيطان: من تبتيك آذان الأنعام، وتغيير خلق الله، إنما دعاهم إليه لما يقتضيه من الدلالة على استشعارهم بشعاره، والتدين بدعوته، وإلا فإن الشيطان لا ينفعه أن يبتك أحد أذن ناقته، أو أن يغير شيئا من خلقته، إلا إذا كان ذلك للتأثر بدعوته.

وقوله ﴿يعدهم ويمنيهم﴾ استئناف لبيان أنه أنجز عزمه فوعد ومنى وهو لا يزال يعد ويمني، فلذلك جيء بالمضارع. وإنما لم يذكر أنه يأمرهم فيبتكون آذان الأنعام ويغيرون خلق الله لظهور وقوعه لكل أحد.

وجيء باسم الإشارة في قوله ﴿أولئك مأواهم جهنم﴾ لتنبيه السامعين إلى ما يرد بعد اسم الإشارة من الخبر وأن المشار إليهم أحرياء به عقب ما تقدم من ذكر صفاتهم.

والمحيص: المراغ والملجأ، من حاص إذا نفر وراغ، وفي حديث هرقل فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب. وقال جعفر بن علبة الحارثي:

ولم ندر إن حصنا من الموت حيصة

...

كم العمر باق والمدى متطاول

روي: حصنا وحيصة بالحاء والصاد المهملتين ويقال: جاض أيضا بالجيم والضاد المعجمة، وبهما روي بيت جعفر أيضا.

[١٢٢] ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا وعد الله حقا ومن أصدق من الله قيلا﴾ .

عطف على جملة ﴿أولئك مأواهم جهنم﴾ جريا على عادة القرآن في تعقيب الإنذار بالبشارة، والوعيد بالوعد.

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٤/٢٣٨

وقوله ﴿وعد الله﴾ مصدر مؤكد لمضمون جملة ﴿سندخلهم جنات تجري﴾ الخ، وهي بمعناه، فلذلك يسمي النحاة مثله مؤكدا لنفسه، أي مؤكدا لما هو بمعناه.

وقوله ﴿حقا﴾ مصدر مؤكد لمضمون ﴿سندخلهم جنات﴾ ، إذ كان هذا في معنى الوعد، أي هذا الوعد أحققه حقا، أي لا يتخلف. ولما كان مضمون الجملة التي قبله." (١)

"هذا ما أراه في معنى الجواب. وقال المفسرون: جملة الجزاء تحريض على العفو ببيان أن فيه تخلقا بالكمال، لأن صفات الله غاية الكمالات. والتقدير: إن تبدوا خيرا الخ تكونوا متخلقين بصفات الله، فإن الله كان عفوا قديرا، وهذا التقدير لا يناسب إلا قوله ﴿أو تعفوا عن سوء﴾ ولا يناسب قوله ﴿إن تبدوا خيرا أو تخفوه﴾ إلا إذا خصص ذلك بإبداء الخير لمن ظلمهم، وإخفائه عمن ظلمهم. وفي الحديث "أن تعفو عمن ظلمك وتعطي من حرمك وتصل من قطعك".

[١٥٠,١٥٢] ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفورا رحيما﴾ .

عادة القرآن عند التعرض إلى أحوال من أظهروا النواء للمسلمين أن ينتقل من صفات المنافقين، أو أهل الكتاب، أو المشركين إلى صفات الآخرين، فالمراد من الذين يكفرون بالله ورسله هنا هم اليهود والنصارى، قاله أهل التفسير. والأظهر أن المراد به اليهود خاصة لأنهم المختلطون بالمسلمين والمنافقين، وكان كثير من المنافقين يهودا وعبر عنهم بطريق الموصول دون الاسم لما في الصلة من الإيماء إلى وجه الخبر، ومن شناعة صنيعهم ليناسب الإخبار عنهم باسم الإشارة بعد ذلك.

وجمع الرسل لأن اليهود كفروا بعيسى ومحمد عليهما السلام، النصارى كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم، فجمع الرسل باعتبار مجموع الكفار، أو أراد بالجمع الاثنين، أو أراد بالإضافة معنى الجنس فاستوى فيه صيغة الإفراد والجمع، لأن المقصود ذم من هذه صفتهم بدون تعيين فريق، وطريقة العرب في مثل هذا أن يعبروا بصيغ الجموع وإن كان المعرض به واحدا كقوله تعالى ﴿أم يحسدون الناس﴾ [النساء:٥٤] وقوله ﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل﴾ [النساء:٣٧] ﴿يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا﴾ [المائدة:٤٤] وقول النبي صلى الله عليه وسلم "ما بال أقوام يشترطون شروطا" .

وجيء بالمضارع هنا للدلالة على أن هذا أمر متجدد فيهم مستمر، لأنهم لو كفروا في الماضي ثم رجعوا

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٢٥٩/٤

لما كانوا أحرياء بالذم.

ومعنى كفرهم بالله: أنهم لما آمنوا به ووصفوه بصفات غير صفاته من التجسيم." (١)

"الأوصاف أحرياء بما سيحكم عليهم من الحكم المعاقب لاسم الإشارة.

وأفاد تعريف جزأي الجملة والإتيان بضمير الفصل تأكيد قصر صفة الكفر عليهم، وهو قصر ادعائي مجازي بتنزيل كفر غيرهم في جانب كفرهم منزلة العدم، كقوله تعالى في المنافقين ﴿هم العدو﴾ [المنافقون:٤].

ومثل هذا القصر يدل على كمال الموصوف في تلك الصفة المقصورة.

ووجه هذه المبالغة: أن كفرهم قد اشتمل على أحوال عديدة من الكفر، وعلى سفالة في الخلق، أو سفاهة في الرأي بمجموع ما حكي عنهم من تلك الصلات، فإن كل خصلة منها إذا انفردت هي كفر، فكيف بها إذا اجتمعت.

و ﴿حقا﴾ مصدر مؤكد لمضمون الجملة التي قبله، أي حقهم حقا أيها السامع بالغين النهاية في الكفر، ونظير هذا قولهم جدا. والتوكيد في مثل هذا لمضمون الجملة التي قبله على ما أفادته الجملة، وليس هو لرفع المجاز، فهو تأكيد لما أفادته الجملة من الدلالة على معنى النهاية لأن القصر مستعمل في ذلك المعنى، ولم يقصد بالتوكيد أن يصير القصر حقيقيا لظهور أن ذلك لا يستقيم، فقول بعض النحاة، في المصدر المؤكد لمضمون الجملة: إنه يفيد رفع احتمال المجاز، بناء منهم على الغالب في مفاد التأكيد.

و ﴿أعتدنا﴾ معناه هيأنا وقدرنا، والتاء في ﴿أعتدنا﴾ بدل من الدال عند كثير من علماء اللغة، وقال كثير منهم: التاء أصلية، وأنه بناء على حدة هو غير بناء عد. وقال بعضهم: إن عتد هو الأصل وأن عد أدغمت منه التاء في الدال، وقد ورد البناءان كثيرا في كلامهم وفي القرآن.

وجيء بجملة ﴿والذين آمنوا بالله ورسله﴾ إلى آخرها لمقابلة المسيئين بالمحسنين، والنذارة بالبشارة على **عادة القرآن**. والمراد بالذين أمنوا المؤمنون كلهم وخاصة من آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله ابن سلام.

فهم مقصودون ابتداء لما أشعر به موقع هذه الجملة بعد ذكر ضلالهم ولما اقتضاه تذييل الجملة بقوله ﴿وكان الله غفورا رحيما﴾ أي غفورا لهم ما سلف من كفرهم، رحيما بهم.

والقول في الإتيان بالموصول وباسم الإشارة في هذه الجملة كالقول في مقابله.

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٤/٢٩٦

وقوله ﴿بين أحد منهم﴾ تقدم الكلام على مثله في قوله تعالى ﴿لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ في سورة البقرة [١٣٦].." (١)

"شرعيا، فتمحض لأن يكون افتراء،مع أن ما فيه من توهم الناس إياه كاشفا عن مراد الله بهم،من الكذب على الله، لأن الله نصب لمعرفة المسببات أسبابا عقلية:هي العلوم والمعارف المنتزعة من العقل، أو من أدلته، كالتجربة، وجعل أسبابا لا تعرف سببيتها إلا بتوقيف منه على لسان الرسل:كجعل الزوال سببا للصلاة.وما عدا ذلك كذب وبهتان، فمن أجل ذلك كان فسقا،ولذلك قال فقهاؤنا بجرحة من ينتحل ادعاء معرفة الغيوب.

وليس من ذلك تعرف المسببات من أسبابها كتعرف نزول المطر من السحاب،وترقب خروج الفرخ من البيضة بانقضاء مدة الحضانة،وفي الحديث: "إذا نشأت بحرية ثم تشاءمت فتلك عين غديقة أي من جهة بحرهم،ومعنى عين أنها كثيرة المطر.وأما أزلام الميسر،فهي فسق،لأنها من أكل المال بالباطل

﴿اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون﴾

جملة وقعت معترضة بين آية المحرمات المتقدمة،وبين آية الرخصة الآتية:وهي قوله :﴿فمن اضطر في مخمصة﴾ لأن اقتران الآية بفاء الفريع يقضي باتصالها بما تقدمها.ولا يصلح للاتصال بها إلا قوله :﴿حرمت عليكم الميتة﴾ الآية.

والمناسبة في هذا الاعتراض:هي أن الله لما حرم أمورا كان فعلها من جملة دين الشرك،وهي ما أهل لغير الله به،وما ذبح على النصب،وتحريم الاستقسام بالأزلام،وكان في كثير منها تضييق عليهم بمفارقة معتادهم،والتقليل من أقواتهم،أعقب هذه الشدة بإيناسهم بتذكير أن هذا كله إكمال لدينهم،وإخراج لهم من أحوال ضلال الجاهلية،وأنهم كما أيدوا بدين عظيم سمح فيه صلاحهم، فعليهم أن يقبلوا ما فيه من الشدة الراجعة إلى إصلاحهم:فالبعض مصلحته راجعة إلى المنافع البدنية، والبعض مصلحته راجعة إلى الترفع عن حضيض الكفر:وهو ما أهل به لغير الله،وما ذبح على النصب.والاستقسام بالأزلام أذكرهم بفوزهم على من يناويهم،وبمحاسن دينهم وإكماله،فإن من إكمال الإصلاح إجراء الشدة عند الاقتضاء.وذكروا بالنعمة،على عادة القرآن في تعقيب الشدة باللين.وكان المشركون، زمانا،إذا سمعوا أحكام الإسلام رجوا أن تثقل على المسلمين فيرتدوا عن الدين،ويرجعوا إلى الشرك، كما قال المنافقون ﴿لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا﴾ [المنافقون:٧].فلما نزلت هذه الأحكام أنزل الله هذه الآية:بشارة للمؤمنين، ونكاية

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٤/٢٩٩

بالمشركين.وقد روي:أنها نزلت يوم فتح مكة، كما رواه الطبري عن مجاهد،والقرطبي عن الضحاك.وقيل:نزلت يوم عرفة في حجة الوداع مع الآية التي." (١)

"زيادة تصريح بانتفاء الحكم المستثنى منه عن المستثنى في استعمال العرب، وعند جمهور العلماء.فليس المستثنى مسكوتا عنه كما يقول الحنفية، ولولا الاستثناء لما دلت الآية على سقوط عقوبة المحارب المذكورة.فلو قيل:فإن تابوا، لم تدل إلا على قبول التوبة منهم في إسقاط عقاب الآخرة.

ومعنى ﴿من قبل أن تقدروا عليهم﴾ ما كان قبل أن يتحقق المحارب أنه مأخوذ أو يضيق عليه الحصار أو يطارد في جميع البلاد ويضيق عليه، فإن أتى قبل ذلك كله طائعا نادما سقط عنه ما شرع الله له من العقوبة، لأنه قد دل على انتقال حاله من فساد إلى صلاح فلم تبق حكمة في عقابه.ولما لم تتعرض الآية إلى غرم ما أتلفه بحرابته علم أن التوبة لا تؤثر في سقوط ما كان قد اعتلق به من حقوق الناس من مال أو دم، لأن ذلك معلوم بأدلة أخرى.

وقوله: ﴿فاعلموا أن الله غفور رحيم﴾ تذكير بعد تمام الكلام ودفع لعجب من يتعجب من سقوط العقاب عنهم.فالفاء فصيحة عما دل عليه الاستثناء من سقوط العقوبة مع عظم الجرم، والمعنى:إن عظم عندكم سقوط العقوبة عمن تاب قبل أن يقدر عليه فاعلموا أن الله غفور رحيم.

وقد دل قوله ﴿فاعلموا﴾ على تنزيل المخاطبين منزلة من لا يعلم ذلك نظرا لاستعظامهم هذا العفو.وقد رأيت أن شأن فعل "اعلم" أن يدل على أهمية الخبر، كما سيأتي في قوله تعالى : ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾ في سورة الأنفال[٢٤] وقوله فيها ﴿واعلموا أنما غنمتم﴾ [الأنفال:٤١]

[٣٥] ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون﴾ [٣٥]

اعتراض بين آيات وعيد المحاربين وأحكام جزائهم وبين ما بعده من قوله: ﴿إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعا﴾ [المائدة:٣٦] الآية.خاطب المؤمنين بالترغيب بعد أن حذرهم من المفاسد، على عادة القرآن في تخلل الأغراض بالموعظة والترغيب والترهيب، وهي طريقة من الخطابة لاصطياد النفوس، كما قال الحريري:"فلما دفنوا الميت، وفات قول ليت، أقبل شيخ من رباوة، متأبطا لهراوة.فقال:لمثل هذا فليعمل العاملون"، إلخ.فعقب حكم المحاربين من أهل الكفر بأمر المؤمنين بالتقوى." (٢)

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٢٨/٥

(٢) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٩٦/٥

"والله لو أن فاطمة سرقت لقطعت يدها".

وفي تحقيق معنى السرقة ونصاب المقدار المسروق الموجب للحد وكيفية القطع مجال لأهل الاجتهاد من علماء السلف وأئمة المذاهب وليس من غرض المفسر.

وليس من **عادة القرآن** تحديد المعاني الرعية وتفاصيلها ولكنه يؤصل تأصيلها ويحيل ما وراء ذلك إلى متعارف أهل اللسان من معرفة حقائقها وتمييزها عما يشابهها.

فالسارق:المتصف بالسرقة.والسرقة معروفة عند العرب مميزة عن الغارة والغصب والاغتصاب والخلسة، والمؤاخذة بها ترجع إلى اعتبار الشيء المسروق مما يشح به معظم الناس.

فالسرقة: أخذ أحد شيئا لا يملكه خفية عن مالكه مخرجا إياه من موضع هو حرز مثله لم يؤذن آخذه بالدخول إليه.

والمسروق: ما له منفعة لا يتسامح الناس في إضاعته.وقد أخذ العلماء تحديده بالرجوع إلى قيمة أقل شيء حكم النبي صلى الله عليه وسلم بقطع يد من سرقه.وقد ثبت في الصحيح أنه حكم بقطع يد سارق حجفة بحاء مهملة فجيم مفوحتين "ترس بن جلد" تساوي ربع دينار في قول الجمهور، وتساوي دينارا في قول أبي حنيفة، والثوري، وابن عباس، وتساوي نصف دينار في قول بعض الفقهاء.

ولم يذكر القرآن في عقوبة السارق سوى قطع اليد.وقد كان قطع يد السارق حكما من عهد الجاهلية، قضى به الوليد بن المغيرة فأقره الإسلام كما في الآية.ولم يرد في السنة خبر صحيح إلا بقطع اليد.وأول رجل قطعت يده في الإسلام الخيار بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، وأول امرأة قطعت يدها المخزومية مرة بنت سفيان.

فاتفق الفقهاء على أن أول ما يبدأ به في عقوبة السارق أن تقطع يده.فقال الجمهور:"اليد اليمنى"، وقال فريق:"اليد اليسرى"، فإن سرق ثانية، فقال جمهور الأئمة:"تقطع رجله المخالفة ليده المقطوعة".وقال علي بن أبي طالب:"لا يقطع ولكن يحبس ويضرب".وقضى بذلك عمر بن الخطاب، وهو قول أبي حنيفة.فقال علي:"إني لأستحيي أن أقطع يده الأخرى فب ا ي شيء يأكل ويستنجي أو رجله فعلى أي شيء يعتمد"؛ فإن سرق الثالثة والرابعة فقال مالك والشافعي:"تقطع يده الأخرى ورجله الأخرى"، وقال الزهري:"لم يبلغنا في السنة إلا قطع اليد والرجل لا يزاد على ذلك"، وبه قال أحمد بن حنبل،." (١)

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٥/١٠٠

"بأصولهم أن يقال: الأمور أربعة أقسام؛ فإنها إما أن لا تكون متشكلة ولا متغيرة، وإما أن تكون متشكلة غير متغيرة، وإما أن تكون متغيرة غير متشكلة؛ وإما أن تكون متشكلة ومتغيرة معا.فأما ما لاتكون متشكلة ولا متغيرة فإنه تعالى عالم به سواء كان كليا أو جزئيا.وكيف يمكن القول بأنه تعالى لا يعلم الجزئيات منها مع اتفاق الأكثر منهم على علمه تعالى بذاته المخصوصة وبالعقول.

وأما المتشكلة غير المتغيرة وهي الأجرام العلوية فهي غير معلومة له تعالى بأشخاصها عندهم، لأن إدراك الجسمانيات لا يكون إلا بالآت جسمانية.

وأما المتغيرة غير المتشكلة فذلك مثل الصور والأعراض الحادثة والنفوس الناطقة، فإنها غير معلومة له لأن تعلقها يحوج إلى آلة جسمانية بل لأنها لما كانت متغيرة يلزم من تغيرها العلم.

وأما ما يكون متشكلا ومتغيرا فهو الأجسام الكائنة الفاسدة١.وهي يمتنع أن تكون مدركة له تعالى للوجهين" أي المذكورين في القسمين الثاني والثالث"اهـ.

وقد عد إنكار الفلاسفة أن الله يعلم الجزئيات من أصول ثلاثة لهم خالفت المعلوم بالضرورة من دين الإسلام.وهي: إنكار علم الله بالجزئيات؛ وإنكار حشر الأجساد، والقول بقدم العالم.ذكر ذلك الغزالي في تهافت الفلاسفة فمن يوافقهم في ذلك من ا لمسلمين يعتبر قوله كفرا، لكنه من قبيل الكفر باللازم فلا يعتبر قائله مرتدا إلا بعد أن يوقف على ما يفضي إليه قوله ويأبى أن يرجع عنه فحينئذ يستتاب ثلاثا فإن تاب وإلا حكم بردته.

[٦٠] ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون﴾

عطف جملة ﴿وهو الذي يتوفاكم﴾ على جملة ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها﴾ [الأنعام: ٥٩] انتقالا من بيان سعة علمه إلى بيان عظيم قدرته لأن ذلك كله من دلائل الإلهية تعليما لأوليائه ونعيا على المشركين أعدائه.وقد جرت عادة القرآن بذكر دلائل الوحدانية في أنفس الناس عقب ذكر دلائلها في الآفاق فجمع ذلك هنا على وجه بديع مؤذن بتعليم

ـ

١ يعني التي يعتريها الكون والفساد.." (١)

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ١٣٩/٦

"اسمه آزر فإن العرب كانوا معتنين بذكر إبراهيم عليه السلام ونسبه وأبنائه.وليس من **عادة القرآن** التعرض لذكر أسماء غير الأنبياء فما ذكر اسمه في هذه الآية إلا لقصد سنذكره.ولم يذكر هذا الاسم في غير هذه الآية.والذي في كتب الإسرائيليين أن اسم أبي إبراهيم"تارح". بمثناة فوقية فألف فراء مفتوحة فحاء مهملة..قال الزجاج: "لا خلاف بين النسابين في أن اسم أبي إبراهيم تارح".وتبعه محمد ابن الحسن الجويني الشافعي في تفسير النكت.وفي كلامهما نظر لأن الاختلاف المنفي إنما هو في أن آزر اسم لأبي إبراهيم ولا يقتضي ذلك أنه ليس له اسم آخر بين قومه أو غيرهم أو في لغة أخرى غير لغة قومه.ومثل ذلك كثير.وقد قيل: "إن "آزر"وصف".قال الفخر: "قيل معناه الهرم بلغة خوارزم، وهي الفارسية الأصلية".وقال ابن عطية عن الضحاك: "آزر"الشيخ".وعن الضحاك: "أن اسم أبي إبراهيم بلغة الفرس"آزر".وقال ابن إسحاق ومقاتل والكلبي والضحاك: "اسم أبي إبراهيم تارح وآزر لقب له مثل يعقوب الملقب إسرائيل"، وقال مجاهد: "آزر"اسم الصنم الذي كان يعبده أبو إبراهيم فلقب به".وأظهر منه أن يقال: أنه الصنم الذي كان أبو إبراهيم سادن بيته.

وعن سليمان التيمي والفراء: "آزر"كلمة سب في لغتهم بمعنى المعوج، أي عن طريق الخير".وهذا وهم لأنه يقتضي وقوع لفظ غير عربي ليس بعلم ولا بمعرب في القرآن.فإن المعرب شرطه أن يكون لفظا غير علم نقله العرب إلى لغتهم.وفي تفسير الفخر: "أن من الوجوه أن يكون"آزر"عم إبراهيم وأطلق عليه اسم الأب لأن العم قد يقال له: أب.ونسب هذا إلى محمد بن كعب القرظي.وهذا بعيد لا ينبغي المصير إليه فقد تكرر في القرآن ذكر هذه المجادلة مع أبيه، فيبعد أن يكون المراد أنه عمه في تلك الآيات كلها.

قال الفخر: وقالت الشيعة: "لا يكون أحد من آباء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجداده كافرا.وأنكروا أن"آزر"أب لإبراهيم وإنما كان عمه.وأما أصحابنا فلم يلتزموا ذلك".قلت: هو كما قال الفخر من عدم التزام هذا وقد بينت في"رسالة"لي في طهارة نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الكفر لا ينافي خلوص النسب النبوي خلوصا جبليا لأن الخلوص المبحوث عنه هو الخلوص مما يتعير به في العادة.والذي يظهر لي أنه: أن "تارح"لقب في بلد غربة بلقب"آزر"باسم البلد الذي جاء منه، ففي "معجم ياقوت". آزر. بفتح الزاي وبالراء . ناحية بين سوق الأهواز ورامهرمز.." (١)

"لا يظلمون﴾.

من **عادة القرآن** أنه أنذر أعقب الإنذار لمن لا يحق عليه ذلك الإنذار، وإذا بشر أعقب البشارة لمن

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٦/١٧٠

يتصف بضد ما بشر عليه، وقد جرى على ذلك ههنا: فإنه لما أنذر المؤمنين وحذرهم من التريث في اكتساب الخير، قبل أن يأتي بعض آيات الله القاهرة، بقوله: ﴿لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا﴾ [الأنعام: ١٥٨] فحد لهم بذلك حدا هو من مظهر عدله، أعقب ذلك ببشرى من مظاهر فضله وعدله. وهي الجزاء على الحسنة بعشر أمثالها والجزاء على السيئة بمثلها، فقوله: ﴿من جاء بالحسنة﴾ إلى آخره استئناف ابتدائي جرى على عرف القرآن في الأنفال بين الأغراض.

فالكلام تذييل جامع لأحوال الفريقين اللذين اقتضاهما قوله: ﴿لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا﴾ [الأنعام: ١٥٨] الآية، كما تقد آنفا.

و ﴿جاء بالحسنة﴾ معناه عمل الحسنة: شبه عمله الحسن بحال ا٫مكتسب، إذ يخرج يطلب رزقا من وجوه أو احتطاب أو صيد فيجيء أهله بشيء. وهذا كما استعير له أسم التجارة في قوله تعالى: ﴿فما ربحت تجارتهم﴾ [البقرة: ١٦].

فالباء للمصاحبة، والكلام تمثيل، ويجوز حمل المجيء على حقيقته، أي مجيء إلى الحساب على أن يكون المراد بالحسنة أن يجيء بكتابها في صحيفة أعماله.

وأمثال الحسنة ثواب أمثالها، فالكلام على حذف مضاف بقرينة قوله: ﴿فلا يجزى إلا مثلها﴾، أو معناه تحسب له عشر حسنات مثل التي جاء بها كما في الحديث: "كتبها الله عنده عشر حسنات" ويعرف من ذلك أن الثواب على نحو ذلك الحساب كما دل عليه قوله: ﴿فلا يجزى إلا مثلها﴾.

والأمثال: جمع مثل وهو المماثل المساوي، وجيء له باسم عدد المؤنث وهو عشر اعتبارا بأن الأمثال صفة لموصوف محذوف دل عليه الحسنة أي فله عشر حسنات أمثالها، فروعي في أسم العدد معنى مميزة دون لفظه وهو أمثال. والجزاء على الحسنة بعشرة أضع٫ف فضل من الله، وهو جزاء غالب الحسنات. وقد زاد الله في بعض الحسنات أن ضاعفها سبعمائة ضعف كما في قوله تعالى: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله." (١)

"ممن يحذر الشيطان ولا يتبع خطواته.

والنداء للإقبال على آدم والتنويه بذكره في ذلك الملأ. والإتيان بالضمير المنفصل بعد الأمر، لقصد زيادة التنكيل بإبليس لأن ذكر ضميره في مقام العطف يذكر غيره بأنه ليس مثله، إذ الضمير وإن كان من قبيل اللقب وليس له مفهوم مخالفة فإنه قد يفيد الاحتراز عن غير صاحب الضمير بالقرينة على طريقة التعريض

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ١٤٥/٧

ولا يمنه من هذا الاعتبار في الضمير كون إظهاره لأجل تحسين أو تصحيح العطف على الضمير المرفوع المستتر، لأن تصحيح أو تحسين العطف يحصل بكل فاصل بين الفعل الرافع المستتر وبين المعطوف، لا خصوص الضمير، كأن يقال: ويا آدم اسكن الجنة وزوجك، فما اختير الفصل بالضمير المنفصل إلا لما يفيد من التعريض بغيره. وهذه نكتة فاتني العلم بها في آية سورة البقرة فضمها إليها أيضا.

والكلام على قوله: ﴿اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾ يعلم مما مضى من الكلام على نظيره من سورة البقرة.

سوى أن الذي وقع في سورة البقرة [٣٥] ﴿وكلا﴾ بالواو وهنا بالفاء، والعطف بالواو أعم، فالآية هنا أفادت أن الله تعالى أذن آدم بأن يتمتع بثمار الجنة عقب أمره بسكنى الجنة. وتلك منة عاجلة تؤذن بتمام الإكرام، ولما كان ذلك حاصلا في تلك الحصرة، وكان فيه زيادة تنغيص لإبليس، الذي تكبر وفضل نفسه عليه، كان الحال مقتضيا إعلام السامعين به في المقام الذي حكي فيه الغضب على إبليس وطرده، وأما آية البقرة فإنما أفادت السامعين أن الله امتن على آدم بمنة سكنى الجنة والتمتع بثمارها، لأن المقام هنالك لتذكير بني إسرائيل بفضل آدم وبذنبه وتوبته، والتحذير من كيد الشيطان ذلك الكيد الذي هم واقعون في شيء منه عظيم.

على أن آية البقرة [٣٥] لم تخل عن ذكر ما فيه تكرمه له وهو قوله: ﴿رغدا﴾ لأنه مدح للممتن به أو دعاء لآدم. فحصل من مجموع الآيتين عدة مكارم لآدم، وقد وزعت على عادة القرآن في توزيع أغراض القصص على مواقعها، ليحصل تجديد الفائدة، تنشيطا للسامع، وتفننا في أساليب الحكاية، لأن الغرض الأهم من القصص في القرآن إنما هو العبرة والموعظة والتأسي.

وقوله: ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ أشد في التحذير من أن ينهى عن الأكل منها، لأن النهي عن قربانها سد لذريعة الأكل منها وقد تقدم نظيره في سورة البقرة.." (١)

"الشجرة بعد أن صارت معروفة لهما زيادة في إغرائهما بالمعصية بالأكل من الشجرة، فقد وزعت الوسوسة وتذييلها على الصورتين على عادة القرآن في الاختصار في سوق القصص اكتفاء بالمقصود من مغزى القصة لئلا يصير القصص مقصدا أصليا للتنزيل.

والإشارة بقوله: ﴿عن هذه الشجرة﴾ إلى شجرة معينة قد تبين لآدم بعد أن وسوس إليه الشيطان أنها الشجرة التي نهاه الله عنها، فأراد إبليس إقدامه على المعصية وإزالة خوفه بإساءة ظنه في مراد الله تعالى من النهي.

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٤٢/٨

والاستثناء في قوله: ﴿إلا أن تكونا ملكين﴾ استثناء من علل. أي ما نهاكما لعلة وغرض إلا لغرض أن تكونا ملكين، فتعين تقدير لام التعليل قبل "أن" وحذف حروف الجر الداخلة على "أن" مطرد في كلام العرب عند أمن اللبس.

وكونهما ملكين أو خالدين علة للنهي: أي كونكما ملكين هو باعث النهي، إلا أنه باعث باعتبار نفي حصوله لا باعتبار حصوله، أي هو علة في الجملة، ولذلك تأوله سيبويه والزمخشري بتقدير: كراهة أن تكونا. وهو تقدير معنى لا تقدير إعراب، كما تقدم في سورة الأنعام، وقيل حذفت "لا" بعد "أن" وحذفها موجود، وبذلك تأول الكوفيون وقد تقدم القول فيه. وقد أوهم إبليس آدم وزوجه أنهما متمكنان أن يصيرا ملكين من الملائكة، إذا أكلا من الشجرة، وهذا من تدجيله وتلبيسه إذ ألفى آدم وزوجه غير متبصرين في حقائق الأشياء، ولا عالمين المقدار الممكن في انقلاب الأعيان وتطور الموجودات، وكانا يشاهدان تفضيل الملائكة عند الله تعالى وزلفاهم وسعة مقدرتهم، فأطمعهما إبليس أن يصيرا من الملائكة إذا أكلا من الشجرة، وقيل المراد التشبيه البليغ أي إلا أن تكونا في القرب والزلفى كالملكين، وقد مثل لهما بما يعرفان من كمال الملائكة.

وقوله: ﴿أو تكونا من الخالدين﴾ عطف على: ﴿أن تكونا ملكين﴾ وأصل "أو" الدلالة على الترديد بين أحد الشيئين أو الأشياء، سواء كان مع تجويز حصول المتعاطفات كلها فتكون للإباحة بعد الطلب، وللتجويز بعد الخبر أو للشك؛ أم كان مع منع البعض عند تجويز البعض فتكون للتخيير بعد الطلب وللشك أو الترديد بعد الخبر، والترديد لا ينافي الجزم بأن أحد الأمرين واقع لا محالة كما هنا، فمعنى الكلام أن الآكل من هذه الشجرة يكون ملكا وخالدا، كما قال عنه في سورة طه [١٢٠]: ﴿هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى﴾ فجعل نهي الله لهما عن الأكل لا يعدو إرادة أحد الأمرين، ويستفاد من المقام أنه قد يريد حرمانهما من الأمرين جميعا بدلالة الفحوى، ولم يكن آدم." (١)

"وكانوا مثلا لذلك العموم.

والإجرام: فعل الجرم بضم الجيم وهو الذنب، وأصل: أجرم صار ذا جرم، كما يقال: ألبن وأتمر وأخصب. والمهاد بكسر الميم ما يمهد أي يفرش، و ﴿غواش﴾ جمع غاشية وهي ما يغشى الإنسان، أي يغطيه ما للحاف، شبه ما هو تحتهم من النار بالمهاد، وما هو فوقهم منها بالغواشي، وذلك كناية عن انتفاء الراحة لهم في جهنم، فإن المرء يحتاج إلى المهاد والغاشية عند اضطجاعه للراحة، فإذا كان مهادهم وغاشيتهم

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٤٦/٨

النار، فقد انتفت راحتهم، وهذا ذكر لعذابهم السوء بعد أن ذكر حرمانهم من الخير.

وقوله: ﴿غواش﴾ وصف لمقدر دل عليه قوله: ﴿من جهنم﴾، أي ومن فوقهم نيران كالغواشي. وذيله بقوله: ﴿وكذلك نجزي الظالمين﴾ ليدل على أن سبب ذلك الجزاء بالعقاب: هو الظلم، وهو الشرك، ولما كان جزاء الظالمين قد شبه بجزاء الذين كذبوا بالآيات واستكبروا عنها، علم أن هؤلاء المكذبين من جملة الظالمين، وهم المقصود الأول من هذا التشبيه، بحيث صاروا مثلا لعموم الظالمين، وبهذين العمومين كان الجملتان تذييلين.

وليس في هذه الجملة الثانية وضع الظاهر موضع المضمر: لأن الوصفين، وإن كانا صادقين معا على المكذبين المشبه عقاب أصحاب الوصفين بعقابهم. فوصف المجرمين أعم مفهوما من وصف الظالمين، لأن الإجرام يشمل التعطيل والمجوسية بخلاف الإشراك، وحقيقة وضع المظهر موقع المضمر إنما تقوم حيث لا يكون للاسم الظاهر المذكور معنى زائد على معنى الضمير.

[٤٨] ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾.

أعقب الإنذار والوعيد للمكذبين، بالبشارة والوعد للمؤمنين المصدقين على **عادة القرآن** في تعقيب أحد الغرضين بالآخر.

وعطف على: ﴿الذين كذبوا بآياتنا﴾ [الأعراف: ٤٠] أي: وإن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إلخ، لأن بين مضمون الجملتين مناسبة متوسطة بين كمال." (١)

"صفات الكمال، ومن ذلك أن له الخلق والأمر.

وإتباع اسم الجلالة بالوصف وهو ﴿رب العالمين﴾ في معنى البيان لاستحقاقه البركة والمجد، لأنه مفيض خيرات الإيجاد والإمداد، ومدبر أحوال الموجودات، بوصف كونه رب أنواع المخلوقات، ومضى الكلام على ﴿العالمين﴾ في سورة الفاتحة[٢].

[٥٥] ﴿ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين﴾.

استئناف جاء معترضا بين ذكر دلائل وحدانية الله تعالى بذكر عظيم قدرته على تكوين أشياء لا يشاركه غيره في تكوينها، فالجملة معترضة بين جملة ﴿يغشي الليل النهار﴾ [الأعراف: ٥٤] وجملة ﴿وهو الذي يرسل الرياح﴾ [الأعراف: ٥٧] جرى هذا الاعتراض على **عادة القرآن** في انتهاز فرص تهنؤ القلوب للذكرى.

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٩٩/٨

والخطاب بـ ﴿ادعوا﴾ خاص بالمسلمين لأنه تعليم لأدب دعاء الله تعالى وعبادته، وليس المشركون بمتهيئين لمثل هذا الخطاب، وهو تقريب للمؤمنين وإدناء لهم وتنبيه على رضى الله عنهم ومحبته، وشاهده قوله بعده: ﴿إن رحمت الله قريب من المحسنين﴾ [لأعراف: ٥٦]. والخطاب موجه إلى المسلمين بقرينة السياق.

و"الدعاء" حقيقته النداء، ويطلق أيضا على النداء لطلب مهم، واستعمل مجازا في العبادة لاشتمالها على الدعاء والطلب بالقول أو بلسان الحال، كما في الركوع والسجود، مع مقارنتهما للأقوال وهو إطلال كثير في القرآن.

والظاهر أن المراد منه هنا الطلب والتوجه، لأن المسلمين قد عبدوا الله وأفردوه بالعبادة، وإنما المهم إشعارهم بالقرب من رحمة ربهم وإدناء مقامهم منها.

وجيء لتعريف الرب بطريق الإضافة دون ضمير الغائب، مع وجود معاد قريب في قوله ﴿تبارك الله﴾ [الأعراف: ٥٤] ودون ضمير المتكلم، لأن في لفظ الرب إشعارا بتقريب المؤمنين بصلة المربوبية، وليتوسل بإضافة الرب إلى ضمير المخاطبين إلى تشريف المؤمنين وعناية الرب بهم كقوله ﴿بل الله مولاكم﴾ [آل عمران: ١٥٠].

والتضرع: إظهار التذلل بهيئة خاصة، ويطلق التضرع على الجهر بالدعاء لأن الجهر من هيئة التضرع، لأنه تذلل جهري، وقد فسر في هذه الآية وفي قوله في سورة الأنعام ﴿تدعونه تضرعا وخفية﴾ بالجهر بالدعاء، وهو الذي نختاره لأنه أنسب بمقابلته بالخفية." (١)

"إليه ووقع في التوراة أن الألواح تكسرت حين ألقاها، وليس في القرآن ما يدل على ذلك سوى أن التعبير بالإلقاء الذي هو الرمي، وما روى من أن الألواح كانت من حجر، يقتضي أنها اعتراها انكسار، ولكن ذلك الانكسار لا يذهب ما احتوت عليه من الكتابة.وأما ما روي أنها لما تكسرت ذهب ستة اسباعها، أو ذهب تفصيلها وبقيت موعظتها، فهو من وضع القصاصين والله تعالى يقول ﴿ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون﴾ [الأعراف:١٥٤].

وأما أخذه برأس أخيه هارون يجره إليه، أي إمساكه بشعر رأسه، وذلك يولمه، فذلك تأنيب لهارون على عدم أخذه بالشدة على عبدة العجل واقتصاره على تغيير ذلك عليهم بالقول، وذلك دليل على أنه غير معذور في اجتهاده الذي أفصح عنه بقوله ﴿إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي﴾

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ١٣١/٨

[طه: ٩٤] لأن ضعف مستنده جعله بحيث يستحق التأديب، ولم يكن له عذرا، وكان موسى هو الرسول لبني إسرائيل، وما هارون إلا من جملة قومه بهذا الاعتبار، وإنما كان هارون رسولا مع موسى لفرعون خاصة، ولذلك لم يسع هارون إلا الاعتذار والاستصفاح منه.

وفي هذا دليل على أن الخطأ في الاجتهاد مع وضوح الأدلة غير معذور فيه صاحبه في إجراء الأحكام عليه، وهو ما يسميه الفقهاء بالتأويل البعيد ولا يظن بأن موسى عاقب هارون قبل تحقق التقصير.

وفصلت جملة ﴿قال ابن أم﴾ لوقوعها جوابا لحوار مقدر دل عليه قوله ﴿وأخذ برأس أخيه يجره إليه﴾ لأن الشأن ان ذلك لا يقع إلا مع كلام توبيخ، وهو ما حكي في سورة طه بقوله ﴿قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن أفعصيت أمري﴾ [طه:٩٢، ٩٣] على عادة القرآن في توزيع القصة، واقتصارا على موقع العبرة ليخالف أسلوب قصصه الذي قصد منه الموعظة أساليب القصاصين الذين يقصدون الخبر بكل ما حدث.

و ﴿ابن أم﴾ منادى بحذف حرف النداء، والنداء بهذا الوصف للترقيق والاستشفاع، وحذف حرف النداء لإظهار ما صاحب هارون من الرعب والاضطراب، أو لأن كلامه هذا وقع بعد كلام سبقه فيه حرف النداء وهو المحكي في سورة طه [٩٤] ﴿قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي﴾ ثم قال، بعد ذلك ﴿ابن أم إن القوم استضعفوني﴾ فهما كلامان متعاقبان.

ويظهر أن المحكي هنا هو القول الثاني وان ما في سورة طه هو الذي ابتدأ به هارون، لأنه كان جوابا عن قول موسى ﴿ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن﴾ [طه:٩٢، ٩٣].." (١)

"والافتراء الكذب الذي لا شبهة لكاذبه في اختلاقه، وقد مضى في قوله تعالى: ﴿ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون﴾ في سورة المائدة [١٠٣].

والمراد بالافتراء الاختلاق في أصول الدين بوضع عقائد لا تستند إلى دليل صحيح من دلالة العقل أو من دلالة الوحي، فإن موسى عليه السلام كان حذرهم من عبادة الأصنام كما حكاه الله فيما مضى في قوله تعالى: ﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم......﴾ [الأعراف: ١٣٨، ١٤٠] الآيات الثلاث المتقدمة آنفا، فجعل الله جزاءهم على الافتراء الغضب والذلة، وذلك إذا فعلوا مثله بعد أن جاءتهم الموعظة من الله، ولذلك لم يكن مشركو العرب أذلاء، فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم وهداهم فاستمروا على الافتراء عاقبهم الله بالذلة، فأزال مهابتهم من قلوب العرب، واستأصلهم قتلا

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٢٩٨/٨

وأسرا، وسلب ديارهم، فلما أسلم منهم من أسلموا صاروا أعزة بالإسلام.

ويؤخذ من هذه الآية ان الكذاب يرمى بالمذلة.

وقوله: ﴿والذين عملوا السيئات ثم تابوا﴾ [لأعراف: ١٥٣] الآية اعتراض بأنهم إن تابوا وآمنوا يغفر الله لهم على عادة القرآن من تعقيب التهديد بالترغيب، والمغفرة ترجع إلى عدم مؤاخذتهم بذنوبهم في عقاب الآخرة، وإلى ارتفاع غضب الله عنهم في المستقبل، والمراد بالسيئات ما يشمل الكفر وهو أعظم السيئات.والتوبة منه هي الإيمان.

وفي قوله: ﴿من بعدها﴾ في الموضعين حذف مضاف قبل ما أضيفت إليه "بعد" وقد شاع حذفه دل عليه ﴿عملوا﴾ أي من بعد عملها، وقد تقدم الكلام على حذف المضاف مع "بعد" و"قبل" المضافين إلى مضاف للمضاف إليه عند قوله تعالى: ﴿ثم اتخذتم العجل من بعده﴾ في سورة البقرة [٥١].

وحرف "ثم" هنا مفيد للتراخي، وذلك إلجاء إلى قبول التوبة، ولو بعد زمان طويل مملوء بفعل السيئات.

وقوله: ﴿من بعدها﴾ تأكيد لمفاد المهلة التي أفاده حرف "ثم" وهذا تعريض للمشركين بأنهم إن آمنوا يغفر لهم ولو طال أمد الشرك عليهم.

وعطف الإيمان على التوبة، مع أن التوبة تشمله من حيث إن الأيمان توبة من الكفر، إما للاهتمام به لأنه أصل الاعتداد بالأعمال الصالحة عند الله تعالى كقوله:." (١)

"هذه الآية أيضا نظير ما في سورة البقرة إلا أنه عبر في هذه الآية بقوله: ﴿اسكنوا﴾ وفي سورة البقرة [٥٨] بقوله: ﴿ادخلوا﴾ لأن القولين قيلا لهم، أي قيل لهم: ادخلوا واسكنوها، ففرق ذلك على القصتين على عادة القرآن في تغيير أسلوب القصص استجدادا لنشاط السامع.

وكذلك اختلاف التعبير في قوله هنا: ﴿وكلوا﴾ وقوله في سورة البقرة [٥٨] ﴿فكلوا﴾ فانه قد قيل لهم بما يرادف فاء التعقيب، كما جاء في سورة البقرة، لأن التعقيب معنى زائد على مطلق الجمع الذي تفيده واو العطف، واقتصر هنا على حكاية انه قيل لهم، وكانت آية البقرة أولى بحكاية ما دلت عليه فاء التعقيب، لأن آية البقرة سيقت مساق التوبيخ فناسبها ما هو أدل على المنة، وهو تعجيل الانتفاع بخيرات القرية.وآيات الأعراف سيقت لمجرد العبرة بقصة بني إسرائيل.

ولأجل هذا الاختلاف ميزت آية البقرة بإعادة الموصول وصلته في قوله: ﴿فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا﴾ [البقرة: ٥٩] وعوض عنه هنا بضمير الذين ظلموا لان القصد في آية البقرة بيان سبب إنزال العذاب عليهم

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٣٠٢/٨

مرتين أشير إلى أولاهما بما يومئ إليه الموصول من علة الحكم، والى الثانية بحرف السببية، واقتصر هنا على الثاني.
وقد وقع في سورة البقرة [٥٩] لفظ ﴿فأنزلنا﴾ ووقع هنا لفظ ﴿فأرسلنا﴾ ولما قيد كلاهما بقوله: ﴿من السماء﴾ كان مفادهما واحدا، فالاختلاف لمجرد التفنن بين القصتين.
وعبر هنا ﴿بما كانوا يظلمون﴾ وفي البقرة [٥٩] ﴿بما كانوا يفسقون﴾ لأنه لما اقتضى الحال في القصتين تأكيد وصفهم بالظلم وأدي ذلك في البقرة بقوله: ﴿فأنزلنا على الذين ظلموا﴾ ، استثقلت إعادة لفظ الظلم هنالك ثالثة، فعدل عنه إلى ما يفيد مفاده، وهو الفسق، وهو أيضا أعم، فهو انسب بتذييل التوبيخ، وجيء هنا بلفظ ﴿يظلمون﴾ لئلا يفوت تسجيل الظلم عليهم مرة ثالثة، فكان تذييل آية البقرة أنسب بالتغليط في ذمهم لان مقام التوبيخ يقتضيه.
ووقع في هذه الآية ﴿فبدل الذين ظلموا منهم﴾ ولم يقع لفظ ﴿منهم﴾ في سورة البقرة، ووجه زيادتها هنا التصريح بأن تبديل القول لم يصدر من جميعهم، وأجمل ذلك في سورة البقرة لان آية البقرة لما سيقت مساق التوبيخ ناسب إرهابهم بما يوهم أن الذين فعلوا ذلك هم جميع القوم لان تبعات بعض القبيلة تحمل على جماعتها.." (١)

"القول وهو عذاب القتل المهين بأيدي المسلمين يوم بدر، قال تعالى: ﴿يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم﴾ وكان العذاب قد تأخر عنهم زمنا اقتضته حكمة الله، بين الله لرسوله في هذه الآية سبب تأخر العذاب عنهم حين قالوا ما قالوا، وأيقظ النفوس إلى حلوله بهم وهم لا يشعرون.
فقوله: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ كناية عن استحقاقهم، وإعلام بكرامة رسوله صلى الله عليه وسلم عنده، لأنه جعل وجوده بين ظهراني المشركين مع استحقاقهم العقاب سببا في تأخير العذاب عنهم، وهذه مكرمة أكرم الله بها نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم فجعل وجوده في مكان مانعا من نزول العذاب على أهله، فهذه الآية إخبار عما قدره الله فيما مضى.
وقال ابن عطية قالت فرقه نزلت هذه الآية كلها بمكة، وقال ابن أبزى نزل قوله: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ بمكة إثر قولهم: ﴿أو ائتنا بعذاب أليم﴾ ونزل قوله: ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ عند خروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وقد بقي بمكة مؤمنون يستغفرون، ونزل قوله: ﴿وما لهم ألا يعذبهم الله﴾ [الأنفال: ٣٤] بعد بدر.

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٣٢٥/٨

وفي توجيه الخطاب بهذا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، واجتلاب ضمير خطابه بقوله: ﴿وأنت فيهم﴾ لطيفة من التكرمة إذ لم يقل وما كان الله ليعذبهم وفيهم رسوله كما قال: ﴿وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله﴾ [آل عمران: ١٠١].

وأما قوله: ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ فقد أشكل على المفسرين نظمها، وحمل ذلك بعضهم على تفكيك الضمائر فجعل ضمائر الغيبة من ﴿يعذبهم﴾ و ﴿فيهم﴾ و ﴿معذبهم﴾ للمشركين، وجعل ضمير وهم يستغفرون للمسلمين، فيكون عائدا إلى مفهوم من الكلام يدل عليه ﴿يستغفرون﴾ فانه لا يستغفر الله إلا المسلمون وعلى تأويل الإسناد فانه إسناد الاستغفار لمن حل بينهم من المسلمين، بناء على أن المشركين لا يستغفرون الله من الشرك.

فالذي يظهر أنها جملة معترضة انتهزت بها فرصة التهديد بتعقيبه بترغيب على عادة القرآن في تعقيب الوعيد بالوعد، فبعد أن هدد المشركين بالعذاب ذكرهم بالتوبة من الشرك بطلب المغفرة من ربهم بان يؤمنوا بأنه واحد، ويصدقوا رسوله، فهو وعد بأن التوبة من الشرك تدفع عنهم العذاب وتكون لهم أمنا وذلك هو المراد بالاستغفار، إذ من البين أن ليس المراد ب ﴿يستغفرون﴾ أنهم يقولون: غفرانك اللهم ونحوه، إذ لا عبرة بالاستغفار بالقول والعمل يخالفه فيكون قوله: ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ تحريضا وذلك." (١)

"الطيب، ولتشهير من كانوا يسرون الكفر ويظهرون الإيمان. وفي جمعه بهذه الكيفية تذليل لهم وإيلام، اذ يجعل بعضهم على بعض حتى يصيروا ركاما.

والركم: ضم شيء أعلى إلى أسفل منه، وقد وصف السحاب بقوله: ﴿ثم يجعله ركاما﴾ [النور: ٤٣].

واسم الإشارة ب ﴿أولئك هم الخاسرون﴾ للتنبيه على أن استحقاقهم الخبر الواقع عن اسم الإشارة كان بسبب الصفات التي ذكرت قبل اسم الإشارة، فان من كانت تلك حالة كان حقيقا بأنه قد خسر اعظم الخسران لأنه خسر منافع الدنيا ومنافع الآخرة.

فصيغة القصر في قوله: ﴿هم الخاسرون﴾ هي للقصر الادعائي، للمبالغة في اتصافهم بالخسران، حتى يعد خسران غيرهم كلا خسران وكأنهم انفردوا بالخسران من بين الناس.

[٣٨] ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنت الأولين﴾.

جرى هذا الكلام على عادة القرآن في تعقيب الترهيب بالترغيب، والوعيد بالوعد، والعكس، فأنذرهم بما

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٩/٨٧

أنذر، وتوعدهم بما توعد ثم ذكرهم بأنهم متمكنون من التدارك وإصلاح ما أفسدوا، فأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم ما يفتح لهم باب الإنابة.

والجملة استئناف يصح جعله بيانيا لأن ما تقدم بين يديه من الوعيد وقلة الاكتراث بشأنهم، وذكر خيبة مساعيهم، مما يثير في أنفس بعضهم والسامعين أن يتساءلوا عما إذا بقي لهم مخلص ينجيهم من ورطتهم التي ارتبقوا فيها، فأمر الرسول بان يقول لهم هذا المقال ليريهم أن باب التوبة مفتوح، والإقلاع في مكنتهم.

وأسند الفعل في الجملة المحكية بالقول إلى ضمير الغائبين لأنه حكاية بالمعنى روعي فيها جانب المخاطب بالأمر تنبيها على أنه ليس حظه مجرد تبليغ مقالة، فجعل حظه حظ لمخبر بالقضية الذي يراد تقررها لديه قبل تبليغها، وهو إذا بلغ إليهم يبلغ إليهم ما أعلم به وبلغ اليه، فيكون مخبرا بخبر وليس مجرد حامل لرسالة.

والمراد بالانتهاء: الانتهاء عن شيء معلوم دل عليه وصف الكفر هنا وما تقدمه من أمثاله وآثاره من الإنفاق للصد عن سبيل الله، أي إن ينتهوا عن ذلك، وإنما يكون الانتهاء." (١)

"ومعاملاته، فأما إذا كان صاحبه لا يقبل إلا الخير، ويرفض ما هو شر من القول، فقد صار الوصف نافعا، لأن صاحبه التزم أن لا يقبل إلا الخير، وأن يحمل الناس عليه. هذا تحقيق معنى المقابلة، وتصحيح إضافة هذا الوصف إلى الخير، فأما حمله على غير هذا المعنى فيصيره إلى أنه من طريقة القول بالموجب على وجه التنازل وإرخاء العنان، أي هو أذن كما قلتم وقد انتفعتم بوصفه ذلك إذ قبل منكم معاذيركم وتبرؤكم مما يبلغه عنكم، وهذا ليس بالرشيق لأن ما كان خيرا لهم قد يكون شرا لغيرهم.

وقرأ نافع وحده ﴿أذن﴾ – بسكون الذال فيهما – وقرأ الباقون – بضم الذال فيهما–.

وجملة ﴿يؤمن بالله﴾ تمهيد لقوله بعده ﴿ويؤمن للمؤمنين﴾ إذ هو المقصود من الجواب لتمحضه للخير وبعده عن الشر بأنه يؤمن بالله فهو يعامل الناس بما أمر الله به من المعاملة بالعفو، والصفح، والأمر بالمعروف، والإعراض عن الجاهلين، وبأن لا يؤاخذ أحد إلا ببينة، فالناس في أمن من جانبه فيما يبلغ إليه لأنه لا يعامل إلا بالوجه المعروف فكونه يؤمن بالله وازع له عن المؤاخذة بالظنة والتهمة.

والإيمان للمؤمنين تصديقهم في ما يخبرونه، يقال: آمن لفلان بمعنى صدقه، ولذلك عدي باللام دون الباء كما في قوله تعالى: ﴿وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين﴾ [يوسف:١٧] فتصديقه إياهم لأنهم صادقون لا يكذبون، لأن الإيمان وازع لهم عن أن يخبروه الكذب، فكما أن الرسول لا يؤاخذ أحدا بخبر الكاذب فهو يعامل الناس بشهادة المؤمنين، فقوله: ﴿ويؤمن للمؤمنين﴾ ثناء عليه بذلك يتضمن الأمر به، فهو ضد

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٩٦/٩

قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا﴾ [الحجرات:٦].

وعطف جملة ﴿ورحمة﴾ على جملتي ﴿يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين﴾ لأن كونه رحمة للذين يؤمنون بعد علمه بنفاقهم أثر لإغضائه عن إجرامهم ولإمهالهم حتى يتمكن من الإيمان من وفقه الله للإيمان منهم، ولو آخذهم بحالهم دون مهل لكان من سبق السيف العذل، فالمراد من الإيمان في قوله: ﴿آمنوا﴾ الإيمان بالفعل، لا التظاهر بالإيمان، كما فسر به المفسرون، يعنون بالمؤمنين المتظاهرين بالإيمان المبطنين للكفر، وهم المنافقون.

وقرأ حمزة – بجر- ﴿ورحمة﴾ عطفا على خير، أي أذن رحمة، والمآل واحد.

وقد جاء ذكر هذه الخصلة مع الخصلتين الأخريين على عادة القرآن في انتهاز فرصة الإرشاد إلى الخير، بالترغيب والترهيب، فرغبهم في الإيمان ليكفروا عن سيئاتهم الفارطة." (١)

"الآتي ﴿وكفروا بعد إسلامهم﴾ [التوبة:٧٤] وهذا من لطائف القرآن.

﴿لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين﴾ .

جاءت هذه الجملة على عادة القرآن في تعقيب النذارة بالتبشير للراغب في التوبة تذكيرا له بإمكان تدارك حاله.

ولما كان حال المنافقين عجيبا كانت البشارة لهم مخلوطة ببقية النذارة، فأنبأهم أن طائفة منهم قد يعفى عنها إذا طلبت سبب العفو: بإخلاص الإيمان، وإن طائفة تبقى في حالة العذاب، والمقام دال على أن ذلك لا يكون عبثا ولا ترجيحا بدون مرجح، فما هو إلا أن طائفة مرجوة الإيمان، فيغفر عما قدمته من النفاق، وأخرى تصر على النفاق حتى الموت، فتصير إلى العذاب. والآيات الواردة بعد هذه تزيد ما دل عليه المقام وضوحا من قوله: ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ – إلى قوله – ﴿عذاب مقيم﴾ [التوبة:٦٧، ٦٨]. وقوله بعد ذلك: ﴿فإن يتوبوا يكن خيرا لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما في الدنيا والآخرة﴾ [التوبة:٧٤]. وقد آمن بعض المنافقين بعد نزول هذه الآية، وذكر المفسرون من هذه الطائفة مخشيا(١) بن حمير الأشجعي لما سمع هذه الآية تاب من النفاق، وحسن إسلامه، فعد من الصحابة، وقد جاهد يوم اليمامة واستشهد فيه، وقد قيل: إنه المقصود "بالطائفة" دون غيره فيكون من باب إطلاق لفظ الجماعة على الواحد في مقام الإخفاء والتعمية كقوله صلى الله عليه وسلم "ما بال أقوام يشترطون شروطا ليست في كتاب الله" . وقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي المدينة بقية من المنافقين وكان عمر بن الخطاب في

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ١٠/١٣٥

خلافته يتوسمهم.

والباء في ﴿بأنهم كانوا مجرمين﴾ للسببية، والمجرم الكافر.

وقرأ الجمهور ﴿يعف و تعذب﴾ ببناء الفعلين إلى النائب، وقرأه عاصم بالبناء للفاعل وبنون العظمة في الفعلين ونصب ﴿طائفة﴾ الثاني.

[٦٧] ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن

_

(١) بميم مفتوحة وخاء معجمة ساكنة وياء مشددة، وحمير بحاء مهملة مضمومة وميم مفتوحة وتحتية مشددة. وفي "سيرة ابن إسحاق" ومخشن بنون من آخره وبفتح الشين وقد ذكر اسمه آنفا عند تفسير قوله تعالى: ﴿ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب﴾ [التوبة: ٦٥].." (١)

"والفضل: الزيادة في البذل والسخاء. و ﴿من﴾ ابتدائية. وفي جعل الإغناء من الفضل كناية عن وفرة الشيء المغني به لأن ذا الفضل يعطي الجزل.

وعطف الرسول على اسم الجلالة في فعل الإغناء لأنه السبب الظاهر المباشر.

[٧٤] ﴿فإن يتوبوا يكن خيرا لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما في الدنيا والآخرة وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير﴾ .

التفريع على قوله: ﴿جاهد الكفار والمنافقين﴾ [التوبة:٧٣] على **عادة القرآن** في تعقيب الوعيد بالوعد والعكس فلما أمر بجهادهم والغلظة عليهم وتوعدهم بالمصير إلى النار، فرع على ذلك الإخبار بأن التوبة مفتوحة لهم وأن تدارك أمرهم في مكنتهم، لأن المقصود من الأمر بجهادهم قطع شافة مضرتهم أو أن يصلح حالهم.

والتوبة هي إخلاصهم الأيمان. والضمير يعود إلى الكفار والمنافقين، والضمير في ﴿يك﴾ عائد إلى مصدر ﴿يتوبوا﴾ وهو التوب.

والتولي: الإعراض والمراد به الإعراض عن التوبة. والعذاب في الدنيا عذاب الجهاد والأسر، وفي الآخرة عذاب النار.

وجيء بفعل ﴿يك﴾ في جواب الشرط دون أن يقال فإن يتوبوا فهو خير لهم لتأكيد وقوع الخير عند التوبة، والإيماء إلى أنه لا يحصل الخير إلا عند التوبة لأن فعل التكوين مؤذن بذلك.

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ١٤٣/١٠

وحذف نون "يكن" للتخفيف لأنها لسكونها تهيأت للحذف وحسنه وقوع حركة بعدها والحركة ثقيلة فلذلك شاع حذف هذه النون في كلامهم كقوله: ﴿وإن تكن حسنة يضاعفها﴾ في سورة النساء [٤٠].

وجملة ﴿وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير﴾ عطف على جملة ﴿يعذبهم الله﴾ الخ فتكون جوابا ثانيا للشرط، ولا يريبك أنها جملة اسمية لا تصلح لمباشرة أداة الشرط بدون فاء رابطة. لأنه يغتفر في التوابع ما لا يغتفر في المتبوعات فإن حرف العطف كاف في ربط الجملة تبعا للجملة المعطوف عليها.

والمعنى أنهم إن تولوا لم يجدوا من ينصرهم من القبائل إذ لم يبق من العرب من لم يدخل في الإسلام إلا من لا يعبأ بهم عددا وعددا. والمراد نفي الولي النافع كما هو." (١)

"أهل المدينة ومن الأعراب، وأمرا للمؤمنين بالجهاد، وإنحاء على المقصرين في شأنه. وتخلل ذلك تنويه بالمتصفين بضد ذلك من المؤمنين الذين هاجروا والذين نصروا واتبعوا الرسول في ساعة العسرة.

فجاءت خاتمة هذه السورة آيتين بتذكيرهم بالمنة ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم والتنويه بصفاته الجامعة للكمال. ومن أخصها حرصه على هداهم، ورغبته في إيمانهم ودخولهم في جامعة الإسلام ليكون رؤوفا رحيما بهم ليعلموا أن ما لقيه المعرضون عن الإسلام من الإغلاظ عليهم بالقول والفعل ما هو إلا استصلاح لحالهم. وهذا من مظاهر الرحمة التي جعلها الله تعالى مقارنة لبعثة رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، بحيث جاء في هاتين الآيتين بما شأنه أن يزيل الحرج من قلوب الفرق التي نزلت فيهم آيات الشدة وعوملوا بالغلظة تعقيبا للشدة بالرفق وللغلظة بالرحمة، وكذلك **عادة ا لقرآن**. فقد انفتح بهاتين الآيتين باب حظيرة الإيمان والتوبة ليدخلها من وفقه الله إليها.

فالجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا. وفي وقوعها آخر السورة ما يكسبها معنى التذييل والخلاصة.

فالخطاب بقوله: ﴿جاءكم﴾ وما تبعه من الخطاب موجه إلى جميع الأمة المدعوة للإسلام.

والمقصود بالخطاب بادئ ذي بدءهم المعرضون من المشركين والمنافقين من العرب بقرينة قوله عقب الخطاب ﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ وسيجيء أن المقصود العرب.

وافتتاحها بحرفي التأكيد وهما اللام و(قد) مع كون مضمونها مما لا يتطرق إليه الإنكار لقصد الاهتمام بهذه الجملة لأهمية الغرض الذي سيقت لأجله وهو الذي سنذكره، ولأن فيما تضمنته ما ينكره المنافقون وهو كونه رسولا من الله، ولأن في هذا التأكيد ما يجعل المخاطبين به منزلين منزلة المنكرين لمجيئه من حيث إنهم لم ينفعوا أنفسهم بهذا المجيء، ولأن في هذا التأكيد تسجيلا عليهم مرادا به الإيماء إلى اقتراب

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ١٥٩/١٠

الرحيل، لأنه لما أعيد الإخبار بمجيئه وهو حاصل منذ أعوام طويلة كان ذلك كناية عن اقتراب انتهائه، وهو تسجيل منه على المؤمنين، وإيداع للمنافقين ومن بقي من المشركين. على أن آيات أخرى خوطب بها أهل الكتاب ونحوهم فأكدت بأقل من هذا التأكيد كقوله تعالى: ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾ [المائدة: ١٥]وكقوله تعالى: ﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا﴾ [النساء: ١٧٤] فما زيدت الجملة في هذه السورة مؤكدة إلا." (١)

"وإنما لم يدبروا شيئا في إعدام أخي يوسف – عليه السلام – شفقة عليه لصغره.

وإقحام لفظ ﴿قوما﴾ بين كان وخبرها للإشارة إلى أن صلاح الحال صفة متمكنة فيهم كأنه من مقومات قوميتهم. وقد تقدم ذلك عند قوله تعالى: ﴿لآيات لقوم يعقلون﴾ في سورة البقرة [١٦٤]، وعند قوله تعالى: ﴿وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾ في سورة يونس [١٠١].

وهذا الأمر صدر من قائله وسامعيه منهم قبل اتصافهم بالنبوة أو بالولاية لأن فيه ارتكاب كبيرة القتل أو التعذيب والاعتداء، وكبيرة العقوق.

[١٠] ﴿قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابت الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين﴾.

فصل جملة ﴿قال قائل﴾ جار على طريقة المقاولات والمحاورات، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها﴾ في سورة البقرة [٣٠].

وهذا القائل أحد الإخوة ولذلك وصف بأنه منهم.

والعدول عن اسمه العلم إلى التنكير والوصفية لعدم الجدوى في معرفة شخصه وإنما المهم أنه من جماعتهم، وتجنبا لما في اسمه العلم من الثقل اللفظي الذي لا داعي إلى ارتكابه. قيل: إنه "يهوذا" وقيل: "شمعون" وقيل: "روبين"، والذي في سفر التكوين من التوراة أنه "راوبين" صدهم عن قتله وأن يهوذا دل عليه السيارة كما في الإصحاح ٣٧. **وعادة القرآن** أن لا يذكر إلا اسم المقصود من القصة دون أسماء الذين شملتهم، مثل قوله: ﴿وقال رجل مؤمن من آل فرعون﴾ [سورة غافر: ٢٨].

والإلقاء: الرمي.

والغيابات: جمع غيابة، وهي ما غاب عن البصر من شيء. فيقال: غيابة الجب وغيابة القبر والمراد قعر الجب.

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٣٣٧/١٠

والجب: البئر التي تحفر ولا تطوى.

وقرأ نافع، وأبو جعفر "غيابات"ط بالجمع. ومعناه جهات تلك الغيابة، أو يجعل الجمع للمبالغة في ماهية الاسم، كقوله تعالى: ﴿أو كظلمات في بحر لجي﴾ [سورة النور:٤٠] وقرأ الباقون ﴿في غيابت الجب﴾ بالإفراد.." (١)

"الحجر:٤٠]، فكلما حدث في جبلته فصل من تلك الماهية صدر منه قول يدل عليه؛ فهو شبيه بنطق الجوارح بالشهادة على أهل الضلالة يوم الحساب.

وأما الأقوال الإلهية التي أجيبت بها أقوال الشيطان فمظهر للأوامر التكوينية التي قدرها الله تعالى في علمه لتطور أطوار إبليس المقومة لماهية الشيطنة، وللألطاف التي قدرها الله لمن يعتصم بها من عباده لمقاومة سلطان الشيطان. وليست تلك الأقوال كلها بمناظرة بين الله وأحد مخلوقاته ولا بغلبة من الشيطان لخالقه، فإن ضعفه تجاه عزة خالقه لا يبلغ به إلى ذلك.

[٤٥-٤٨] ﴿إن المتقين في جنات وعيون ادخلوها بسلام آمنين ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين﴾

استئناف ابتدائي، انتقال من وعيد المجرمين إلى بشارة المتقين على **عادة القرآن** في التفنن.

والمتقون: الموصوفون بالتقوى. وتقدمت عند صدر سورة البقرة.

و الجن ا ت: جمع جنة. وقد تقدمت عند قوله تعالى: ﴿أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ في أول سورة البقرة [٢٥].

و العيون: جمع عين اسم لثقب أرضي يخرج منه الماء من الأرض. فقد يكون انفجارها بدون عمل الإنسان. وأسبابه كثيرة تقدمت عند قوله تعالى: ﴿وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار﴾ في سورة البقرة [٧٤]. وقد يكون بفعل فاعل وهو التفجير.

وجملة ﴿ادخلوها﴾ معمولة لقول محذوف يقدر حالا من ﴿المتقين﴾ والقرينة ظاهرة. والتقدير: يقال لهم ادخلوها. والقائل هو الملائكة عند إدخال المتقين الجنة.

والباء من ﴿بسلام﴾ للمصاحبة.

والسلام: التحية. وتقدم في قوله: ﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم﴾ في سورة الأنعام

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٢٦/١٢

.[٥٤]

والأمن النجاة من الخوف.." (١)

"والأرض بالحق﴾ [سورة النحل:٣] وثبتت المنة وحق الشكر، فرع على ذلك هاتان الجملتان لتكونا كالنتيجتين للأدلة السابقة إنكارا على المشركين فالاستفهام عن المساواة إنكاري، أي لا يستوي من يخلق بمن لا يخلق. فالكاف للماثلة، وهي مورد الإنكار حيث جعلوا الأصنام آلهة شريكة لله تعالى. ومن مضمون الصلتين يعرف أي الموصولين أولى بالإلهية فيظهر مورد الإنكار.

وحين كان المراد بمن لا يخلق الأصنام كان إطلاق "من" الغالبة في العاقل مشاكلة لقوله: ﴿أفمن يخلق﴾.

وفرع على إنكار التسوية استفهام عن عدم التذكر في انتفائها. فالاستفهام في قوله: ﴿فلا تذكرون﴾ مستعمل في الإنكار على انتفاء التذكر، وذلك يختلف باختلاف المخاطبين. فهو إنكار على إعراض المشركين عن التذكر في ذلك.

وجملة ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ عطف على جملة ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون﴾. وهي كالتكملة لها لأنها نتيجة لما تضمنته تلك الأدلة من الامتنان كما تقدم. وهي بمنزلة التذييل للامتنان لأن فيها عموما يشمل النعم المذكورة وغيرها.

وهذا كلام جامع للتنبيه على وفرة نعم الله تعالى على الناس بحيث لا يستطيع عدها العادون، وإذا كانت كذلك فقد حصل التنبيه إلى كثرتها بمعرفة أصولها وما يحويها من العوالم.

وفي هذا إيماء إلى الاستكثار من الشكر على مجمل النعم، وتعريض بفظاعة كفر من كفروا بهذا المنعم، وتغليظ التهديد لهم. وتقدم نظيرها في سورة إبراهيم.

وجملة ﴿إن الله لغفور رحيم﴾ استئناف عقب به تغليظ الكفر والتهديد عليه تنبيها على تمكنهم من تدارك أمرهم بأن يقلعوا عن الشرك، ويتأهبوا للشكر بما يطيقون، على **عادة القرآن** من تعقيب الزواجر بالرغائب كيلا يقنط المسرفون.

وقد خولف بين ختام هذه الآية وختام آية سورة إبراهيم، إذ وقع هنالك ﴿وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها إن الأنسان لظلوم كفار﴾ [سورة ابراهيم:٣٤] لأن تلك جاءت في سياق وعيد وتهديد عقب قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفرا﴾ [سورة ابراهيم:٢٨] فكان المناسب لها تسجيل ظلمهم وكفرهم

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ١٣/٤٤

بنعمة الله.

وأما هذه الآية فقد جاءت خطابا للفريقين كما كانت النعم المعدودة عليهم منتفعا بها." [1]

"وذكر أنه معجز.

ورد مطاعن المشركين فيه وفيمن جاء به، وأنهم لم يفقهوه فلذلك أعرضوا عنه .

وإبطال إحالتهم أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم أسري به إلى المسجد الأقصى. فافتتحت بمعجزة الإسراء توطئة للتنظير بين شريعة الإسلام وشريعة موسى عليه السلام على **عادة القرآن** في ذكر المثل والنظائر الدينية، ورمزا إلهيا إلى أن الله أعطى محمدا صلى الله عليه وسلم من الفضائل أفضل مما أعطى من قبله.

وأنه أكمل له الفضائل فلم يفته منها فائت. فمن أجل ذلك أحله بالمكان المقدس الذي تداولته الرسل من قبل، فلم يستأثرهم بالحلول بذلك المكان هو مهبط الشريعة الموسوية، ورمز أطوار تاريخ بني إسرائيل وأسلافهم، والذي هو نظير المسجد الحرام في أن أصل تأسيسه في عهد إبراهيم كما سننبه عليه عند تفسير قوله تعالى :﴿ إلى المسجد الأقصى﴾ [الإسراء:١]، فأحل الله به محمدا عليه الصلاة والسلام بعد أن هجر وخرب إيماء إلى أن أمته تجدد مجده.

وأن الله مكنه من حرمي النبوة والشريعة، فالمسجد الأقصى لم يكن معمورا حين نزول هذه السورة وإنما عمرت كنائس حوله، وأن بني إسرائيل لم يحفظوا حرمة المسجد الأقصى، فكان إفسادهم سببا في تسلط أعدائهم عليهم وخراب المسجد الأقصى. وفي ذلك رمز إلى أن إعادة المسجد الأقصى ستكون على يد أمة هذا الرسول الذي أنكروا رسالته.

ثم إثبات دلائل تفرد الله بالإلهية، والاستدلال بآية الليل والنهار وما فيهما من المنن على إثبات الوحدانية.

والتذكير بالنعم التي سخرها الله للناس، وما فيها من الدلائل على تفرده بتدبير الخلق، وما تقتضيه من شكر المنعم وترك شكر غيره، وتنزيهه عن اتخاذ بنات له.

وإظهار فضائل من شريعة الإسلام وحكمته، وما علمه الله المسلمين من آداب المعاملة نحو ربهم سبحانه، ومعاملة بعضهم مع بعض، والحكمة في سيرتهم وأقوالهم، ومراقبة الله في ظاهرهم وباطنهم.

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٩٩/١٣

وعن ابن عباس أنه قال:"التوراة كلها في خمس عشرة آية من سورة بني إسرائيل". وفي رواية عنه:"ثمان عشرة آية منها كانت في ألواح موسى" أي من قوله تعالى: ﴿لا." (١)

"النبي صلى الله عليه وسلم بالآيات والمعجزات، وإيتاؤه الآيات التي أعظمها آية القرآن كما قدمناه عند قوله تعالى: ﴿وآتينا موسى الكتاب﴾ [الإسراء:٢]. وأعقب ذلك بذكر ما أنزل على بني إسرائيل من الكتب للهدى والتحذير، وما نالهم من جزاء مخالفتهم ما أمرهم الله به، ومن عدولهم عن سنن أسلافهم من عهد نوح. وفي ذلك فائدة التحذير من وقوع المسلمين فيما وقع فيه بنو إسرائيل، وهي الفائدة العظمى من ذكر قصص القرآن، وهي فائدة التاريخ.

وتأكيد الجملة مراعى فيه حال بعض المخاطبين وهم الذين لم يذعنوا إليه، وحال المؤمنين من الاهتمام بهذا الخبر، فالتوكيد مستعمل في معنييه دفع الإنكار والاهتمام، ولا تعارض بين الاعتبارين.

وقوله: ﴿هذا القرآن﴾ إشارة إلى الحاضر في أذهان الناس من المقدار المنزل من القرآن قبل هذه الآية.

وبينت الإشارة بالاسم الواقع بعدها تنويها بشأن القرآن.

وقد جاءت هذه الآية تنفيسا على المؤمنين من أثر القصص المهولة التي قصت عن بني إسرائيل وما حل بهم من البلاء مما يثير في نفوس المسلمين الخشية من أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك، فأخبروا بأن في القرآن ما يعصمهم عن الوقوع فيما وقع فيه بنو إسرائيل إذ هو يهدي للطريق التي هي أقوم مما سلكه بنو إسرائيل إذ هو يهدي للطريق التي هي أقوم مما سلكه بنو إسرائيل، ولذلك ذكر مع الهداية بشارة المؤمنين الذين يعملون الصالحات، ونذارة الذين لا يؤمنون بالآخرة. وفي التعبير بـ ﴿التي هي أقوم﴾ نكتة لطيفة ستأتي. وتلك **عادة القرآن** في تعقيب الرهبة بالرغبة وعكسه.

و ﴿التي هي أقوم﴾ صفة لمحذوف دل عليه ﴿يهدي﴾ ، أي للطريق التي هي أقوم، لأن الهداية من ملازمات السير والطريق، أو للملة الأقوم، وفي حذف الموصوف من الإيجاز من جهة ومن التفخيم من جهة أخرى ما رجح الحذف على الذكر.

والأقوم: تفصيل القويم. والمعنى: أنه يهدي للتي هي أقوم من هدى كتاب بني إسرائيل الذي في قوله: ﴿وجعلناه هدى لبني إسرائيل﴾ [الإسراء:٢].ففيه إيماء إلى ضمان سلامة أمة القرآن من الحيدة عن الطريق الأقوم، لأن القرآن جاء بأسلوب من الإرشاد قويم ذي أفنان لا يحول دونه ودون الولوج إلى العقول حائل،

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ١٤/٧

ولا يغادر مسلكا إلى ناحية من نواحي الأخلاق والطبائع إلا سلكه إليها تحريضا أو تحذيرا، بحيث لا يعدم." (١)

"وضمائر الخطاب على هذا خطاب للكفار القائلين ﴿من يعيدنا﴾ والقائلين ﴿متى هو﴾ .

والباء في ﴿بحمده﴾ للملابسة، فهي في معنى الحال، أي حامدين فهم إذا بعثوا خلق فيهم إدراك الحقائق فعلموا أن الحق لله.

ويجوز أن يكون ﴿بحمده﴾ متعلقا بمحذوف على أنه من كلام النبي صلى الله عليه وسلم. والتقدير: انطق بحمده، كما يقال: باسم الله، أي ابتدئ، وكما يقال للمعرس: باليمن والبركة، أي احمد الله على ظهور صدق ما أنبأتكم به، ويكون اعتراضا بين المتعاطفات.

وقيل: إن قوله: ﴿يوم يدعوكم﴾ استئناف كلام خطاب للمؤمنين فيكون ﴿يوم يدعوكم﴾ متعلقا بفعل محذوف، أي اذكروا يوم يدعوكم. والحمد على هذا الوجه محمول على حقيقته، أي تستجيبون حامدين الله على ما منحكم من الإيمان وعلى ما أعد لكم مما تشاهدون حين انبعاثكم من دلائل الكرامة والإقبال. وأما جملة ﴿وتظنون إن لبثتم إلا قليلا﴾ فهي عطف على ﴿تستجيبون﴾ ، أي وتحسبون أنكم ما لبثتم في الأرض إلا قليلا. والمراد: التعجيب من هذه الحالة، ولذلك جاء في بعض آيات أخرى سؤال المولى حين يبعثون عن مدة لبثهم تعجيبا من حالهم، قال تعالى: ﴿قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون﴾ [المؤمنون:١١٢.١١٤]، وقال: ﴿فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام﴾ [البقرة:٢٥٩].وهذا التعجيب تنديم للمشركين وتأييد للمؤمنين. والمراد هنا: أنهم ظنوا ظنا خاطئا، وهو محل التعجيب. وأما قوله في الآية الأخرى: ﴿قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون﴾ فمعناه: أنه وإن طال فهو قليل بالنسبة لأيام الله.

﴿وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا﴾

لما أعقب ما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتبليغه إلى المشركين من أقوال تعظهم وتنهنههم من قوله تعالى: ﴿قل لو كان معه آلهة كما تقولون﴾ [الإسراء:٤٢]وقوله: ﴿قل كونوا حجارة﴾ [الإسراء: ٥٠]وقوله:

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٣٣/١٤

﴿قل عسى أن يكون قريبا﴾ [الإسراء:٥١]ثني العنان إلى بإبلاغ المؤمنين تأديبا ينفعهم في هذا المقام على **عادة القرآن** في." (١)

"قال تعالى: ﴿يوم تكون السماء كالمهل﴾ [المعارج: ٨]

والتشبيه في سواد اللون وشدة الحرارة فلا يزيدهم إلا حرارة، ولذلك عقب بقوله: ﴿يشوي الوجوه﴾ وهو استئناف ابتدائي.

والوجه أشد الأعضاء تألما من حر النار قال تعالى: ﴿تلفح وجوههم النار﴾ [المؤمنون: ١٠٤]

وجملة ﴿بئس الشراب﴾ مستأنفة ابتدائية أيضا لتشنيع ذلك الماء مشروبا كما شنع مغتسلا. وفي عكسه الماء الممدوح في قوله تعالى ﴿هذا مغتسل بارد وشراب﴾ [ص: ٤٢]

والمخصوص بذم ﴿بئس﴾ محذوف دل عليه ما قبله. والتقدير: بئس الشراب ذلك الماء.

وجملة ﴿وساءت مرتفقا﴾ معطوفة على جملة ﴿يشوي الوجوه﴾ ، فهي مستأنفة أيضا لإنشاء ذم تلك النار بما فيها.

والمرتفق: محل الاتفاق، وهو اسم مكان مشتق من اسم جامد إذ اشتق من المرفق وهو مجمع العضد والذراع. سمي مرفقا لأن الإنسان يحصل به الرفق إذا أصابه إعياء فيتكئ عليه. فلما سمي به العضو تنوسي اشتقاقه وصار كالجامد، ثم اشتق منه المرتفق. فالمرتفق هو المتكأ، وتقدم في سورة يوسف.

وشأن المرتفق أن يكون مكان استراحة، فإطلاق ذلك على النار تهكم، كما أطلق على ما يزاد به عذابهم لفظ الإغاثة، وكما أطلق على مكانهم السرادق.

وفعل ﴿ساء﴾ يستعمل ﴿بئس﴾ فيعمل عمل ﴿بئس﴾، فقوله: ﴿مرتفقا﴾ تمييز. والمخصوص بالذم محذوف كما تقدم في قوله: ﴿بئس الشراب﴾ .

[٣٠] ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا﴾

جملة مستأنفة استئنافا بيانيا مراعي فيه حال السامعين من المؤمنين، فإنهم حين يسمعون ما أعد للمشركين تتشوف نفوسهم إلى معرفة ما أعد للذين آمنوا ونبذوا الشرك فأعلموا أن عملهم مرعي عند ربهم. وجريا على **عادة القرآن** في تعقيب الوعيد بالوعد." (٢)

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ١٠٤/١٤

(٢) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٥٨/١٥

"والهزو بضمتين مصدر بمعنى المفعول. وهو أشد مبالغة من الوصف باسم المفعول، أي كانوا كثيري الهزو بهم.

[١٠٧-١٠٨] ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا خالدين فيها لا يبغون عنها حولا﴾

هذا مقابل قوله: ﴿إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا﴾ على **عادة القرآن** في ذكر البشارة بعد الإنذار.

وتأكيد الجملة للاهتمام بها لأنها جاءت في مقابلة جملة ﴿إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا﴾ ، وهي مؤكدة كي لا يظن ظان أن جزاء المؤمنين غير مهتم بتأكيده مع ما في التأكيدين من تقوية الإنذار وتقوية البشارة.

وجعل المسند إليه الموصول بصلة الإيمان وعمل الصالحات للاهتمام بشأن أعمالهم، فلذلك خولف نظم الجملة التي تقابلها فلم يقل: جزاؤهم الجنة. وقد تقدم نظير هذا الأسلوب في المخالف بين وصف الجزاءين عند قوله تعالى في هذه السورة: ﴿إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها﴾ [الكهف: ٢٩] ثم قوله: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا﴾ [الكهف:٣٠]

وفي الإتيان بـ ﴿فكانت﴾ دلالة على أن استحقاقهم الجنات أمر مستقر من قبل مهيأ لهم.

وجيء بلام الاستحقاق تكريما لهم بأنهم نالوا الجنة باستحقاق إيمانهم وعملهم، كما قال تعالى: ﴿وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ [الزخرف:٧٢]

وجمع الجنات إيماء إلى سعة نعيمهم، وأنها جنات كثيرة كما جاء في الحديث: "إنها جنان كثيرة" .

والفردوس: البستان الجامع لكل ما يكون في البساتين. وعن مجاهد هو معرب عن الرومية. وقيل عن السريانية. وقال الفراء: هو عربي، أي ليس معربا. ولم يرد ذكره في كلام العرب قبل القرآن.

وأهل الشام يقولون للبساتين والكروم: الفراديس. وفي مدينة حلب باب يسمى باب الفراديس.

وإضافة الجنات إلى الفردوس بيانية، أي جنات هي من صنف الفردوس. وورد في." (١)

"ومعنى ﴿وهم لا يؤمنون﴾ استمرار عدم إيمانهم إلى حلول قضاء الأمر يوم الحسرة. فاختيار صيغة المضارع فيه دون صيغة اسم الفاعل لما يدل عليه المضارع من استمرار الفعل وقتا فوقتا استحضارا لذلك الاستمرار العجيب في طوله وتمكنه.

[٤٠] ﴿إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون﴾

تذييل لختم القصة على **عادة القرآن** في تذييل الأغراض عند الانتقال منها إلى غيرها. والكلام موجه إلى

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ١٥/١٤٤

المشركين لإبلاغه إليهم.

وضمير ﴿يرجعون﴾ عائد إلى ﴿من عليها﴾ وإلى ما عاد إليه ضمير الغيبة في ﴿وأنذرهم﴾

وحقيقة الإرث: مصير مال الميت إلى من يبقى بعده. وهو هنا مجاز في تمحض التصرف في الشيء دون مشارك، فإن الأرض كانت في تصرف سكانها من الإنسان والحيوان كل بما يناسبه. فإذا هلك الناس والحيوان فقد صاروا في باطن الأرض وصارت الأرض في غير تصرفهم فلم يبق تصرف فيها إلا لخالقها، وهو تصرف كان في ظاهر الأمر مشتركا بمقدار ما خولهم الله التصرف فيها إلى أجل معلوم، فصار الجميع في محض تصرف الله، ومن جملة ذلك تصرفه بالجزاء.

وتأكيد جملة ﴿إنا نحن نرث الأرض﴾ بحرف التوكيد لدفع الشك لأن المشركين ينكرون الجزاء، فهم ينكرون أن الله يرث الأرض ومن عليها بهذا المعنى.

وأما ضمير الفصل في قوله: ﴿نحن نرث الأرض﴾ فهو لمجرد التأكيد ولا يفيد تخصيصا، إذ لا يفيد رد اعتقاد مخالف لذلك.

وظهر لي: أن مجيء ضمير الفصل لمجرد التأكيد كثير إذا وقع ضمير الفصل بعد ضمير آخر نحو قوله ﴿إنني أنا الله﴾ طه: من الآية١٤] في سورة طه. وقوله: ﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾ في سورة يوسف [٣٧].

وأفاد هذا التذييل التعريف بتهديد المشركين بأنهم لا مفر لهم من الكون في قبضة الرب الواحد الذي أشركوا بعبادته بعض ما على الأرض، وأن آلهتهم ليست بمرجوة لنفعهم إذ ما هي إلا مما يرثه الله.." (١)

"والحاصل أن موسى تجنب التصدي للمجادلة والمناقضة في غير ما جاء لأجله لأنه لم يبعث بذلك. وفي هذا الإعراض فوائد كثيرة وهو عالم بمجمل أحوال القرون الأولى وغير عالم بتفاصيل أحوالهم وأحوال أشخاصهم.

وإضافة ﴿علمها﴾ من إضافة المصدر إلى مفعوله. وضمير ﴿علمها﴾ عائد إلى ﴿القرون الأولى﴾ لأن لفظ الجمع يجوز أن يؤنث ضميره.

وقوله ﴿في كتاب﴾ يحتمل أن يكون الكتاب مجازا في تفصيل العلم تشبيها له بالأمور المكتوبة، وأن يكون كناية عن تحقيق العلم لأن الأشياء المكتوبة تكون محققة كقول الحارث بن حلزة:

وهل ينقض ما في المهارق الأهواء

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٤٢/١٦

ويؤكد هذا المعنى قوله ﴿لا يضل ربي ولا ينسى﴾ .

والضلال: الخطأ في العلم، شبه بخطأ الطريق. والنسيان: عدم تذكر الأمر المعلوم في ذهن العالم.

[٥٣-٥٤] ﴿الذي جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى *كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى﴾

هذه جمل ثلاث معترضة في أثناء قصة موسى.

فالجملة الأولى منها مستأنفة ابتدائية على عادة القرآن من تفنن لأغراض لتجديد نشاط الأذهان. ولا يحتمل أن تكون من كلام موسى إذ لا يناسب ذلك تفريع قوله: ﴿فأخرجنا به أزواجا﴾ فقوله: ﴿الذي جعل لكم الأرض مهدا﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي هو الذي جعل لكم الأرض مهادا، والضمير عائد إلى الرب المفهوم من ﴿ربي﴾ [طه: ٢٥]، أي هو رب موسى.

وتعريف جزأي الجملة يفيد الحصر، أي الجاعل الأرض مهادا فكيف تعبدون غيره. وهذا قصر حقيقي غير مقصود به الرد على المشركين ولكنه تذكير بالنعمة وتعريض بأن غيره ليس حقيقا بالإلهية.." (١)

"مضاف، أي يخافون أهواله.

وتقلب القلوب والأبصار: اضطرابها عن مواضعها من الخوف والوجل كما يتقلب المرء في مكانه. وقد تقدم في قوله تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم﴾ في سورة الأنعام. والمقصود من خوفه: العمل لما فيه الفلاح يومئذ كما يدل عليه قوله: ﴿ليجزيهم الله أحسن ما عملوا﴾ .

ويتعلق قوله: ﴿ليجزيهم الله أحسن ما عملوا﴾ ب ﴿يخافون﴾ ، أي كان خوفهم سببا للجزاء على أعمالهم الناشئة عن ذلك الخوف.

والزيادة: من فضله هي زيادة أجر الرهبان إن آمنوا بمحمد على الله عليه وسلم حينما تبلغهم دعوته لما في الحديث الصحيح: أن لهم أجرين، أو هي زيادة فضل الصلاة في المساجد إن كان المراد بالبيوت مساجد الإسلام.

وجملة ﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ تذييل لجملة ﴿ليجزيهم الله﴾ . وقد حصل التذييل لما في قوله: ﴿من يشاء﴾ من العموم، أي وهم ممن يشاء الله لهم الزيادة.

والحساب هنا بمعنى التحديد كما في قوله: ﴿إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ في سورة آل عمران. وأما قوله: ﴿جزاء من ربك عطاء حسابا﴾ فهو بمعنى التعيين والإعداد للاهتمام بهم.

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ١٣١/١٦

[٣٩] ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب﴾

لما جرى ذكر أعمال المتقين من المؤمنين وجزائهم عليها بقوله تعالى: ﴿يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال﴾ إلى قوله: ﴿ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ أعقب ذلك بضده من حال أعمال الكافرين التي يحسبونها قربات عند الله تعالى وما هي بمغنية عنهم شيئا على **عادة القرآن** في إرداف البشارة بالنذارة، وعكس ذلك كقوله: ﴿ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات﴾ الخ فعطف حال أعمال الكافرين عطف القصة على القصة. ولعل المشركين كانوا إذا سمعوا ما وعد الله به المؤمنين من الجزاء على الأعمال الصالحة يقولون: ونحن نعمر المسجد الحرام ونطوف ونطعم المسكين." (١)

"[٥١] ﴿إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون﴾

استئناف بياني لأن الإخبار عن الذين يعرضون عندما يدعون إلى الحكومة بأنهم ليسوا بالمؤمنين في حين أنهم يظهرون الإيمان يثير سؤال سائل عن الفاصل الذي يميز بين المؤمن الحق وبين الذي يرائي بإيمانه في حين يدعى إلى الحكومة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقتضي أن يبين للسائل الفرق بين الحالين لئلا يلتبس عنده الإيمان المزور بالإيمان الصادق، فقد كان المنافقون يموهون بأن إعراض من أعرض منهم عن التحاكم عند رسول الله ليس لتزلزل في إيمانه بصدق الرسول ولكنه إعراض لمراعاة أعراض من العلائق الدنيوية كقول بشر: إن الرسول يبغضني. فبين الله بطلان ذلك بأن المؤمن لا يرتاب في عدل الرسول وعدم مصانعته.

وقد أفاد هذا الاستئناف أيضا الثناء على المؤمنين الأحقاء بضد ما كان ذما للمنافقين. وذلك من مناسبات هذا الاستئناف على **عادة القرآن** في إرداف التوبيخ بالترغيب والوعيد بالوعد والنذارة بالبشارة والذم بالثناء. وجيء بصيغة الحصر بإنما لدفع أن يكون مخالف هذه الحالة في شيء من الإيمان وإن قال بلسانه إنه مؤمن، فهذا القصر إضافي، أي هذا قول المؤمنين الصادقين في إيمانهم لا كقول الذي أعرضوا عن حكم الرسول حين قالوا: ﴿آمنا بالله وبالرسول وأطعنا﴾ فلما دعوا إلى حكم الرسول عصوا أمره فإن إعراضهم نقيض الطاعة، وسيأتي بيانه قريبا. وليس قصرا حقيقيا لأن أقوال المؤمنين حين يدعوا إلى رسول الله صلى

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ١٨/٢٠٠

الله عليه وسلم ليحكم بينهم غير منحصرة في قول ﴿سمعنا وأطعنا﴾ ولا في مرادفه، فلعل منهم من يزيد على ذلك.

وفي الموطإ من حديث زيد بن خالد الجهني: أن رجلين اختصما إلى رسول الله. فقال أحدهما: يا رسول الله اقض بيننا بكتاب الله يعني وهو يريد أن رسول الله يقضي له كما وقع التصريح في رواية الليث بن سعد في البخاري: أن رجلا من الأعراب أتى رسول الله فقال: أنشدك بالله إلا قضيت لي بكتاب الله. وقال الآخر وهو أفقههما: أجل يا رسول الله فاقض بيننا بكتاب الله وأذن لي أن أتكلم يريد لا تقض له علي فأذن لي أن أبين فقال رسول الله: "تكلم.. " إلخ.." (١)

"وجملة ﴿لا يشركون بي شيئا﴾ حال من ضمير الرفع في ﴿يعبدونني﴾ تقييدا للعبادة بهذه الحالة لأن المشركين قد يعبدون الله ولكنهم يشركون معه غيره. وفي هاتين الجملتين ما يؤيد ما قدمناه آنفا من كون الإيمان هو الشريطة في كفالة الله للأمة هذا الوعد.

وجملة ﴿ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾ تحذير بعد البشارة على **عادة القرآن** في تعقيب البشارة بالنذارة والعكس دفعا للاتكال.

والإشارة في قوله: ﴿بعد ذلك﴾ إلى الإيمان المعبر عنه هنا ب ﴿يعبدونني لا يشركون بي شيئا﴾ والمعبر عنه في أول الآيات بقوله: ﴿وعد الله الذين آمنوا﴾ ، أي ومن كفر بعد الإيمان وما حصل له من البشارة عليه فهم الفاسقون عن الحق.

وصيغة الحسر المأخوذة من تعريف المسند بلام الجنس مستعملة مبالغة للدلالة على أنه الفسق الكامل.

ووصف الفاسقين له رشيق الموقع، لأن مادة الفسق تدل على الخروج من المكان من منفذ ضيق.

[٥٦] ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون﴾ .

عطف على جملة ﴿يعبدونني لا يشركون بي شيئا﴾ لما فيها من معنى الأمر بترك الشرك، فكأنه قيل: اعبدوني ولا تشركوا وأقيموا الصلاة، لأن الخبر إذا كان يتضمن معنى الأمر كان في قوة فعل الأمر حتى أنه قد يجزم جوابه كما في قوله تعالى: ﴿تؤمنون بالله ورسوله﴾ إلى قوله: ﴿يغفر لكم من ذنوبكم﴾ بجزم يغفر لأن قوله: ﴿تؤمنون﴾ في قوة أن يقول: آمنوا بالله.

والخطاب موجه للذين آمنوا خاصة بعد أن كان موجها لأمة الدعوة على حد قوله تعالى: ﴿يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك﴾ ، فالطاعة المأمور بها هنا غير الطاعة التي في قوله: ﴿قل أطيعوا الله وأطيعوا

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٢١٩/١٨

الرسول فإن تولوا﴾ الخ لأن تلك دعوة للمعرضين وهذه ازدياد للمؤمنين.

وقد جمعت هذه الآية جميع الأعمال الصالحات فأهمها بالتصريح وسائرها بعموم حذف المتعلق بقوله: ﴿وأطيعوا الرسول﴾، أي في كل ما يأمركم وينهاكم.

ورتب على ذلك رجاء حصول الرحمة لهم، أي في الدنيا بتحقيق الوعد الذي من." (١)

"ومعنى ﴿فله خير منها﴾ أن كل حسنة تحتوي على خير لا محالة يصل إلى نفس المحسن أو إلى غيره فللجائي بالحسنة خير أفضل مما في حسنته من الخير، أو فله من الله إحسان عليها خير من الإحسان الذي في الحسنة قال تعالى في آيات أخرى ﴿فله عشر أمثالها﴾ أي فله من الجزاء حسنات أمثالها وهو تقدير بعلمه الله.

ولما ذكر جزاء الإحسان أعقب بضد ذلك مقابلة فضل الله تعالى على المحسن بعدله مع المسيء على عادة القرآن من قرن الترغيب بالترهيب.

﴿ومن جاء بالسيئة﴾ ما صدقه الذين عملوا السيئات، و ﴿الذين عملوا السيئات﴾ الثاني هو عين ﴿ومن جاء بالسيئة﴾ فكان المقام مقام الإضمار بأن يقال: ومن جاء بالسيئة فلا يجزون الخ؛ ولكنه عدل عن مقتضى الظاهر لأن في التصريح بوصفهم بـ ﴿عملوا السيئات﴾ تكريرا لإسناد عمل السيئات إليهم لقصد تهجين هذا العمل الذميم وتبغيض السيئة إلى قلوب السامعين من المؤمنين.

وفي قوله ﴿إلا ما كانوا يعملون﴾ استثناء مفرغ عن فعل ﴿يجزى﴾ المنفي المفيد بالنفي عموم أنواع الجزاء، والمستثنى تشبيه بليغ، أي جزاء شبيه الذي كانوا يعملونه. والمراد المشابهة والمماثلة في عرف الدين، أي جزاء وفاقا لما كانوا يعملون وجاريا على مقداره لا حيف فيه وذلك موكول إلى العلم الإلهي.

[٨٥] ﴿إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد قل ربي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين﴾

ابتداء كلام للتنويه بشأن محمد صلى الله عليه وسلم وتثبيت فؤاده ووعده بحسن العاقبة في الدنيا والآخرة، وإن إنكار أهل الضلال رسالته لا يضيره لأن الله أعلم بأنه على هدى وأنهم على ضلال بعد أن قدم لذلك من أحوال رسالة موسى عليه السلام ما فيه عبرة بالمقارنة بين حالي الرسولين وما لقياه من المعرضين.

وافتتاح الكلام بحرف التأكيد للاهتمام به. وجيء بالمسند إليه اسم موصول دون اسمه تعالى العلم لما في الصلة من الإيماء إلى وجه بناء الخبر. وأنه خبر الكرامة والتأييد أي أن الذي أعطاك القرآن ما كان إلا

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ١٨/٢٣١

مقدرا نصرك وكرامتك؛ لأن إعطاء القرآن شيء لا نظير له فهو دليل على كمال عناية الله بالمعطى. قال كعب بن زهير:

مهلا هداك الذي أعطاك نافلة الـ ... قرآن فيها مواعيظ وتفصيل." (١)

"و ﴿يصدعون﴾ أصله يتصدعون فقلبت التاء صادا لتقارب مخرجيهما لتأتي التخفيف بالإدغام. والتصدع: مطاوع الصدع، وحقيقة الصدع: الكسر والشق، ومنه تصدع القدح.

والمراد باليوم يوم الحشر. والتصدع: التفرق والتمايز. ويكون ضمير الجمع عائدا إلى جميع الناس، أي يومئذ يفترق المؤمنون من الكافرين على نحو قوله تعالى: ﴿ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون﴾ [الروم: ١٤- ١٦].

[٤٤، ٤٥] ﴿من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون [٤٤] ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله إنه لا يحب الكافرين﴾ [٤٥]﴾.

هذه الجملة تتنزل منزلة البيان لإجمال الجملة التي قبلها وهي ﴿فأقم وجهك للدين القيم﴾ [الروم: ٤٣]، إذ التثبيت على الدين بعد ذكر ما أصاب المشركين من الفساد بسبب شركهم يتضمن تحقير شأنهم عند الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، فبين ذلك بأنهم لا يضرون بكفرهم إلا أنفسهم، والذي يكشف هذا المعنى تقديم المسند في قوله: ﴿فعليه كفره﴾ فإنه يفيد تخصيصه بالمسند إليه، أي فكفره عليه لا عليك ولا على المؤمنين، ولهذا ابتدئ بذكر حال من كفر ثم ذكر بعده ﴿من عمل صالحا﴾ . واقتضى حرف الاستعلاء أن في الكفر تبعة وشدة وضرا على الكافر، لأن "على" تقتضي ذلك في مثل هذا المقام، كما اقتضى اللام في قوله: ﴿فلأنفسهم يمهدون﴾ أن لمجرورها نفعا وغنما، ومنه قوله تعالى: ﴿لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وقال توبة بن الحمير:

وقد زعمت ليلى بأني فاجر ... لنفسي تقاها أو عليها فجورها

وأفرد ضمير ﴿كفره﴾ رعيا للفظ ﴿من﴾ . وهذا التركيب من جوامع الكلم لدلالته على ما لا يحصى من المضار في الكفر على الكافر وأنه لا يضر غيره، مع تمام الإيجاز، وهو وعيد لأنه في معنى: من كفر فجزاؤه عقاب الله، فاكتفي عن التصريح بذلك اكتفاء بدلالة "على" من قوله: ﴿فعليه كفره﴾ وبمقابلة حالهم بحال من عمل صالحا بقوله: ﴿ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله﴾ .

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ١١٩/٢٠

وأما قوله: ﴿ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون﴾ فهو بيان أيضا لما في جملة ﴿فأقم وجهك للدين القيم﴾ [الروم: ٤٣] من الأمر بملازمة التحلي بالإسلام وما في ذلك من الخير العاجل والآجل مع ما تقتضيه عادة القرآن من تعقيب النذارة بالبشارة والترهيب." (١)

"[الأحزاب: ٣٢] يثير في نفوس المسلمات أن يسألن: أهن مأجورات على ما يعملن من الحسنات وأهن مأمورات بمثل ما أمرت به أزواج النبيء صلى الله عليه وسلم أم تلك خصائص لنساء النبيء عليه لصلاة والسلام، فكان في هذه الآية ما هو جواب لهذا السؤال على عادة القرآن إذا ما ذكر مأمورات يعقبها بالتذكير بحال أمثالها أو بحال أضدادها. ويجوز أن تكون استئنافا ابتدائيا ورد بمناسبة ما ذكر من فضائل أزواج النبيء صلى الله عليه وسلم.

وروى ابن جرير والواحدي عن قتادة أن نساء دخلن على أزواج النبيء صلى الله عليه وسلم فقلن: قد ذكركن الله في القرآن ولم يذكرنا بشيء ولو كان فينا خير لذكرنا فأنزل الله هذه الآية.

وروى النسائي وأحمد: أن أم سلمة قالت للنبيء صلى الله عليه وسلم فقالت: ما لنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وروى الترمذي والطبراني: "أن أم عمارة الأنصارية أتت ا لنبيء صلى الله عليه وسلم فقالت: ما أرى النساء يذكرن بشيء" فنزلت هذه الآية.

وقال الواحدي: "قال مقاتل: بلغني أن أسماء بنت عميص لما رجعت من الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب دخلت على نساء النبيء فقالت: هل نزل فينا شيء من القرآن؟ قيل: لا، فأتت النبيء صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله إن النساء لفي خيبة وخسار. قال: ومم ذلك؟ قالت: لأنهن لا يذكرن بالخير كما تذكر الرجال فأنزل الله هذه الآية".

فالمقصود من أصحاب هذه الأوصاف المذكورة النساء، وأما ذكر الرجال فللإشارة إلى أن الصنفين في هذه الشرائع سواء ليعلموا أن الشريعة لا تختص بالرجال لا كما كان معظم شريعة التوراة خاصا بالرجال إلا الأحكام التي لا تتصور في غير النساء، فشريعة الإسلام بعكس ذلك الأصل في شرائعها أن تعم الرجال والنساء إلا ما نص على تخصيصه بأحد الصنفين، ولعل بهذه الآية وأمثالها تقرر أصل التسوية فأغنى عن ا لتنبيه عليه في معظم أقوال القرآن والسنة، ولعل هذا هو وجه تعدد الصفات المذكورة لئلا يتوهم التسوية في خصوص صفة واحدة.

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٦٩/٢١

وسلك مسلك الإطناب في تعداد الأوصاف لأن المقام لزيادة البيان لاختلاف أفهام الناس في ذلك، على أن في هذا التعداد إيماء إلى أصول التشريع كما سنبينه في آخر تفسير هذه الآية.

وبهذه الآثار يظهر اتصال هذه الآيات بالتي قبلها. وبه يظهر وجه تأكيد هذا الخبر." (١)

"وقرأ الجمهور: ﴿في الغرفات﴾ بصيغة الجمع، وقرأ حمزة: ﴿في الغرفة﴾ بالإفراد.

[٣٨] ﴿والذين يسعون في آياتنا معاجزين أولئك في العذاب محضرون [٣٨]﴾.

جرى الكلام عل **عادة القرآن** في تعقيب الترغيب بالترهيب وعكسه، فكان هذا بمنزلة الاعتراض بين الثناء على المؤمنين الصالحين وبين إرشادهم إلى الانتفاع بأموالهم للقرب عند الله بجملة: ﴿وما أنفقتم من شيء﴾ [سبأ: ٣٩] الخ. والذين يسعون في الآيات هم المشركون بصدهم عن سماع القرآن وبالطعن فيه بالباطل واللغو عند سماعه.

والسعي مستعار للاجتهاد في العمل في قوله تعالى: ﴿ثم أدبر يسعى﴾ [النازعات: ٢٢] وإذا عدشي ب ﴿في﴾ كان في الغالب مرادا منه الاجتهاد في المضرة فمعنى: ﴿يسعون في آياتنا﴾ يجتهدون في إبطالها، و ﴿معاجزين﴾ مغالبين مطالبين العجز. وقد تقدم نظيره في قوله تعالى: ﴿والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم﴾ في سورة الحج [٥١].

واسم ا لإشارة للتنبيه على إنهم استحقوا الجحيم لأجل ما ذكر قبل اسم الإشارة مثل: ﴿أولئك على هدى من ربهم﴾ [البقرة: ٥] و ﴿في العذاب﴾ خبر عن اسم الإشارة. و ﴿محضرون﴾ هنا كناية عن الملازمة فهو ارتقاء في المعنى الذي دلت عليه أداة الظرفية من إحاطة العذاب بهم وهو خبر ثان عن اسم الإشارة ومتعلقه محذوف دل عليه الظرف وقد تقدم نظيره في قوله تعالى: ﴿فأولئك في العذاب محضرون﴾ في سورة الروم [٦].

[٣٩] ﴿قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين [٣٩]﴾.

أتبع إبطال أن تكون الأموال والأولاد بذاتهما وسيلة قرب لدى الله تعالى ردا على مزاعم المشركين بما يشبه معنى الاستدراك على ذلك الإبطال من إثبات فالانتفاع بالمال للتقرب إلى رضى الله إن استعمل في طلب مرضاة الله تفضيلا لما أشير إليه إجمالا من أن ذلك قد يكون فيه قربى إلى الله بقوله: ﴿إلا من آمن وعمل صالحا﴾ [سبأ: ٣٧] كما تقدم.

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٢٥١/٢١

وقوله: ﴿قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له﴾ تقدم نظيره قريبا تأكيدا لذلك وليبنى عليه قوله: ﴿وما أنفقتم من شيء﴾ الآية. فالذي تقدم رد على المشركين والمذكور هنا ترغيب للمؤمنين والعبارات واحدة والمقاصد مختلفة. وهذا من." (١)

"استئناف ابتدائي يفيد مفاد الفذلكة والاستنتاج مما تقدم. وهذا الاستئناف يومي إلى أن الذين كفروا هم حزب الشيطان لأن لما ذكر أن حزبه من أصحاب السعير وحكم هنا بأن الذين كفروا لهم عذاب شديد علم أن الذين كفروا من أصحاب السعير إذ هو العذاب الشديد فعلم أنهم حزب الشيطان بطريقة قياس مطوي،فالذين كفروا هم حزب الشيطان لعكوفهم على متابعته وإن لم يعلنوا ذلك لاقتناعه منهم بملازمة ما يمليه عليهم.

وأما المؤمنون العصاة فليسوا من حزبه لأنهم يعلمون كيده ولكنهم يتبعون بعض وسوسته بدافع الشهوات وهم مع ذلك يلعنونه ويتبرأون منه. وقد قال النبيء صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع "إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه ولكنه قد رضي منكم بما دون ذلك مما تحقرون من أعمالكم".

وذكر ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ تتميم بأن الذين لم يكونوا من حزبه قد فازوا بالخيرات.

وقد أشارت الآية إلى طرفين في الضلال والاهتداء وطويت ما بين ذينك من المراتب ليعلم أن ما بين ذلك ينالهم نصيبهم من أشبه أحوالهم بأحوال أحد الفريقين على **عادة القرآن** في وضع المسلم بين الخوف والرجاء. والأمل والرهبة.

[٨] ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون [٨]﴾.

لما جرى تحذير الناس من غرور الشيطان وإيقاظهم إلى عداوته للنوع الإنساني، وتقسيم الناس إلى فريقين: فريق انطلت عليه مكائد الشيطان واغتروا بغروره ولم يناصبوه العداء، وفريق أخذوا حذرهم منه واحترسوا من كيده وتجنبوا السير في مسالكه، ثم تقسيمهم إلى كافر معذب ومؤمن صالح منعم عليه، أعقب ذلك بالإيماء إلى استحقاق حزب الشيطان عذاب السعير، وبتسلية النبيء صلى الله عليه وسلم على من لم يخلصوا من حبائل الشيطان من أمة دعته بأسلوب الملاطفة في التسلية ففرع على جميع ما تقدم قوله: ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا﴾ إلى قوله: ﴿بما يصنعون﴾ فابتداؤه بفاء التفريع ربط له بما تقدم ليعود الذهن إلى ما حكي من أحوالهم، فالتفريع على قوله: ﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٨١/٢٢

[فاطر: ٦]، ثم بإبراز الكلام المفرع في صورة الاستفهام الإنكاري، واجتلاب الموصل الذي تومئ صلته إلى علة الخبر المقصود، فأشير إلى أن وقوعه في." (١)

"وعبر عن الرسول بالنذير لأن مجادلة أهل الكتاب إياهم كانت مشتملة على تخويف وإنذار، ولذلك لم يقتصر على وصف النذير في قوله تعالى: ﴿أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير﴾ [المائدة: ١٩]. وهذا يرجح أن تكون المجادلة جرت بينهم وبين بعض النصارى لأن الإنجيل معظمه نذارة.

و ﴿إحدى الأمم﴾ أمة من الأمم ذات الدين، فإن عنوا بها أمة معروفة: إما الأمة النصرانية، وإما الأمة اليهودية، أو الصابئة كان التعبير عنها بـ ﴿إحدى الأمم﴾ إبهاما لها يحتمل أن يكون إبهاما من كلام المقسمين تجنبا لمجابهة تلك الأمة بصريح التفضيل عليها، ويحتمل أن يكون إبهاما من كلام القرآن على عادة القرآن في الترفع عما لا فائدة في تعيينه إذ المقصود أنهم أشهدوا الله على أنهم إن جاءهم رسول يكونوا أسبق من غيرهم اهتداء فإذا هم لم يشمموا رائحة الاهتداء. ويحتمل أن يكون فريق من المشركين نظروا في قسمهم بهدي اليهود، وفريق نظروا بهدي النصارى، وفريق بهدي الصائبة، فجمعت عبارة القرآن ذلك بقوله: ﴿من إحدى الأمم﴾ ليأتي على مقالة كل فريق مع الإيجاز.

وذكر في "الكشاف" وجها آخر أن يكون ﴿إحدى الأمم﴾ بمعنى أفضل الأمم، فيكون من تعبير المقسمين، أي أهدى من أفضل الأمم، ولكنه بناه على التنظير بما ليس له نظير، وهو قولهم "إحدى الإحد" بكسر الهمزة وفتح الحاء في الإحد ولا يتم التنظير لأن قولهم: "إحدى الإحد"، جرى مجرى المثل في استعظام الأمر في الشر أو الخير. وقرينة إرادة الاستعظام إضافة ﴿إحدى﴾ إلى اسم من لفظها فلا يقتضي أنه معنى يراد في حالة تجرد "إحدى" عن الإضافة.

وبين: ﴿أهدى﴾ و ﴿إحدى﴾ الجناس المحرف.

وهذه الآية وغيرها وما يؤثر من تنصر بعض العرب ومن اتساع بعضهم في التحنف يدل على أنهم كانوا يعلمون رسالة الرسل، وأما ما حكي عنهم في قوله تعالى: ﴿وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء﴾ [الأنعام: ٩١] ، فذلك صدر منهم في الملاجة والمحاجة لما لزمتهم الحجة بأن الرسل من قبل محمد صلى الله عليه وسلم كانوا من البشر وكانت أحوالهم أحوال البشر مثل قوله تعالى: ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق﴾ [الفرقان: ٢٠] فلجأوا إلى

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ١٢١/٢٢

إنكار أن يوحي الله إلى بشر شيئا.

وأما ما حكي عنهم هنا فهو شأنهم قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم.." (١)

"حيث الحكمة العظيمة في الإلهام وتسخير البحر لها وإيجاد في وقت الحاجة لحفظ النوع، فلذلك لم يؤت في جانبها بفعل الخلق المختص بالإيجاد دون صنع الناس. وحكيت آية اتخاذ الرواحل بفعل ﴿خلقنا﴾ ، ونظير هذه المقارنة قوله: ﴿وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون﴾ [الزخرف: ١٢]، فما صدق ﴿ما يركبون﴾ هنا هو الرواحل خاصة لأنها التي تشبه الفلك في جعلها قادرة على قطع الرمال كما جعل الفلك صالحا لمخر البحار، وقد سمت العرب الرواحل سفائن البر و ﴿من﴾ التي في قوله: ﴿من مثله﴾ بيانية بتقديم البيان على المبين وهو جائز على الأصح، أو مؤكدة ومجرورها أصله حال من ﴿ما﴾ الموصولة في قوله: ﴿ما يركبون﴾ . والمراد المماثلة في العظمة وقوة الحمل ومداومة السير وفي الشكل.

وجملة ﴿وإن نشأ نغرقهم﴾ عطف على جملة ﴿أنا حملنا ذريتهم﴾ باعتبار دلالتها الكنائية على استمرار هذه الآية وهذه المنة تذكيرا بأن الله تعالى الذي امتن عليهم إذا شاء جعل فيما هو نعمة على الناس نقمة لهم لحكمة يعلمها. وهذا جرى على عادة القرآن في تعقيب الترغيب بالترهيب وعكسه لئلا يبطر الناس بالنعمة ولا ييأسوا من الرحمة. وقرينة ذلك أنه جيء في هذه الجملة بالمضارع المتمحض في سياق الشرط لكونه مستقبلا، وهذا كقوله تعالى: ﴿أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا﴾ [الإسراء: ٦٨- ٦٩]

والصريخ: الصارخ وهو المستغيث المستنجد تقول العرب: جاءهم الصريخ، أي المنكوب المستنجد لينقذوه، وهو فعيل بمعنى فاعل. ويطلق الصريخ على المغيث فعيل بمعنى مفعول، وذلك أن المنجد إذا صرخ به المستنجد صرخ هو مجيبا بما يطمئن له من النصر. وقد جمع المعنيين قول سلامة بن جندل أنشده المبرد في "الكامل":

إنا إذا أتانا صارخ فزع ... كان الصراخ له قرع الظنابيب

والظنابيب: جمع ظنبوب وهو مسمار يكون في جبة السنان. وقرع الظنابيب تفقد الأسنة استعدادا للخروج. والمعنى: لا يجدون من يستصرخون به وهم في لجج البحر ولا ينقذهم أحد من الغرق.." (٢)

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ١٨٣/٢٢

(٢) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٢٣٨/٢٢

"والكافر جرى على عادة القرآن في تعقيب القصص والأمثال بالتنبيه إلى مغازيها ومواعظها.

فالمقصود بالخبر هو قوله: ﴿إنا جعلناها﴾ أي شجرة الزقوم ﴿ فتنة للظالمين﴾ إلى آخرها.وإنما صيغ الكلام على هذا الأسلوب للتشويق إلى ما يرد فيه.

والاستفهام مكنى به عن التنبيه على فضل حال المؤمن وفوزه وخسار الكافر.وهو خطاب لكل سامع.

والاشارة بـ ﴿أذلك﴾ إلى ما تقدم من حال المؤمنين في النعيم والخلود،وجيء باسم الإشارة مفردا بتأويل المذكور،بعلامة بعد الشار إليه لتعظيمه بالبعد،أي بعد المرتبة وسموها لأن الشيء النفيس الشريف يتخيل عاليا والعالي يلازمه البعد عن المكان المعتاد وهو السفل،وأين الثريا من الثرى.

والنزل:"بضمتين،ويقال:نزل بضم وسكون هو في أصل اللغة:المكان الذي ينزل فيه النازل"،قاله الزجاج.وجرى عليه صاحب اللسان وصاحب القاموس،وأطلق إطلاقا شائعا كثيرا على الطعام المهيأ للضيف لأنه أعد له لنزوله تسمية باسم مكانه نظير ما أطلقوا اسم السكن بسكون الكاف على الطعام المعد للساكن الدار إذ المسكن يقال فيه:سكن أيضا.واقتصر عليه أكثر المفسرين ولم يذكر الراغب غيره.ويجوز أن يكون المراد من النزل هنا طعام الضيافة في الجنة.ويجوز أن يراد به مكان النزول على تقدير مضاف في قوله: ﴿أم شجرة الزقوم﴾ بتقدير:أم مكان شجرة الزقوم.

وعلى الوجهين فانتصاب ﴿نزلا﴾ على الحال من اسم الإشارة ومتوجه الإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى ما يناسب الوجهين مما تقدم من قوله: ﴿رزق معلوم فواكه وهم مكرمون في جنات النعيم﴾ [الصافات:٤١-٤٣].

ويجري على الوجهين معنى معادل الاستفهام فيكون إما أن تقدر:أم منزل شجرة الزقوم على حد قوله تعالى: ﴿أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا﴾ [مريم:٧٣]فقد ذكر مكانين،وإما أن نقدر:أم نزل شجرة الزقوم،وعلى هذا الوجه الثاني تكون المعادلة مشاكلة نهكما لأن طعام شجرة الزقوم لا يحق له أن يسمى نزلا.

وشجرة الزقوم ذكرت هنا ذكر ما هو معهود من قبل لورودها معرفة بالإضافة لوقوعها في مقام التفاوت بين حالي خير وشر فيناسب أن تكون الحوالة على مثلين معروفين،فأما أن يكون اسما جعله القرآن لشجرة في جهنم ويكون سبق ذكرها في ﴿ثم." (١)

"[٣٠] ﴿ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب﴾

جعل التخلص إلى مناقب سليمان عليه السلام من جهة أنه من منن الله على داود عليه السلام، فكانت

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٣٩/٢٣

قصة سليمان كالتكملة لقصة داود.ولم يكن لحال سليمان عليه السلام شبه بحال محمد صلى الله عليه وسلم،فلذلك جزمنا بأن لم يكن ذكر قصته هنا مثالا لحال محمد صلى الله عليه وسلم وبأنها إتمام لما أنعم الله به على داود إذ أعطاه سليمان ابنا بهجة له في حياته وورث ملكه بعد مماته،كما أنبأ عنه قوله تعالى: ﴿ووهبنا لداود سليمان﴾ الآية.

ولهذه النكتة لم تفتتح قصة سليمان بعبارة:واذكر،كما افتتحت قصة داود ثم قصة أيوب،والقصص بعدها مفصلها ومجملها غير أنها لم تخل من مواضع أسوة وعبرة وتحذير على **عادة القرآن** من افتراض الإرشاد.

ومن حسن المناسبة لذكر موهبة سليمان أنه ولد لداود من المرأة التي عوتب داود لأجل استنزال زوجها أوريا عنها كما تقدم،فكانت موهبة سليمان لداود منها مكرمة عظيمة هي أثر مغفرة الله لداود تلك المخالفة التي يقتضي قدره تجنبها وإن كانت مباحة وتحققه لتعقيب الأخبار عن المغفرة له بقوله: ﴿وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾ [ص:٤٠]فقد رضي الله عنه فوهب له من تلك الزوجة نبيا وملكا عظيما.

فجملة ﴿ووهبنا لداود سليمان﴾ عطف على جملة ﴿إنا سخرنا الجبال معه﴾ [ص:١٨]وما بعدها من الجمل.وجملة ﴿نعم العبد﴾ في موضع الحال من ﴿سليمان﴾ وهي ثناء عليه ومدح له من جملة استحقوا عنوان العبد لله،وهو العنوان المقصود منه التقريب بالقرينة كما تقدم في قوله تعالى: ﴿إلا عباد الله المخلصين أولئك لهم رزق معلوم﴾ في سورة الصافات[٤٠,٤١].

والمخصوص بالمدح محذوف لدلالة ما تقدم عليه وهو قوله: ﴿سليمان﴾ والتقدير:نعم العبد سليمان.

وجملة ﴿إنه أواب﴾ تعليل للثناء عليه بـ ﴿نعم العبد﴾ والأواب:مبالغة في الآيب أي كثير الأوب،أي الرجوع إلى الله بقرينه أنه مادحه.والمراد من الأوب إلى الله:الأوب إلى أمره ونهيه،أي إذا حصل له ما يبعده عن ذلك تذكر فآب،أي فتاب،وتقدم ذلك آنفا في ذكر داود.." (١)

"وعلى هذين التأويلين يكون قوله: ﴿فطفق﴾ تعقيبا على ﴿ردوها علي﴾ وعلى محذوف بعده. والتقدير: فردوها عليه فطفق، كقوله: ﴿أن اضرب بعصاك البحر فانفلق﴾ [الشعراء:٦٣].ويكون قوله: ﴿ردوها علي﴾ من مقول ﴿فقال إني أحببت حب الخير﴾ .

[٣٤.٣٥] ﴿ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب﴾

قد قلت آنفا عند قوله تعالى: ﴿ووهبنا لداود سليمان﴾ [ص:٣٠]إن ما ذكر من مناقب سليمان لم يخل

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ١٥٠/٢٣

من مقاصد ائتساء وعبرة وتحذير على عادة القرآن في ابتدار وسائل الإرشاد بالترغيب والترهيب، فكذلك كانت الآيات المتعلقة بندمه على الاشتغال بالخيل عن ذكر الله موقع إسوة به في مبادرة التوبة وتحذير من الوقوع في مثل غفلته،وكذلك جاءت هذه الآيات مشيرة إلى فتنة عرضت لسليمان أعقبتها إنابة ثم أعقبتها إفاضة نعم عظيمة فذكرت عقب ذكر قصة ما ناله من السهو عن عبادته وهو دون الفتنة.والفتن والفتون والفتنة:اضطراب الحال الشديد الذي يظهر به مقدار صبر وثبات من يحل به،وتقدم ذلك عند قوله تعالى: ﴿إنما نحن فتنة﴾ في سورة البقرة[١٠٢].

وقد أشارت الآية إلى حدث عظيم حل بسليمان،واختلفت أقوال المفسرين في تعيين هذه الفتنة فذكروا قصصا هي بالخرافات أشبه،ومقام سليمان عن أمثالها أنزه.

ومن أغربها قولهم:إنه ولد له ابن فخاف عليه الناس أن يقتلوه فاستودعه الريح لتحضنه وترضعه در ماء المزن فلم يلبث أن أصابه الموت وألقته الريح على كرسي سليمان ليعلم أنه لا مرد لمحتوم الموت. وهذا ما نظمه المعري تبعا لأوهام الناس فقال حكاية عن سليمان:

خاف غدر الأنام فاستودع الريح ... سليلا تغذوه در العهاد

وتوخى النجاة وقد أيقن ... أن الحمام بالمرصاد

فرمته به على جانب الكرسي ... أم اللهيم أخت الناد١

والذي يظهر من السياق أن قوله تعالى: ﴿وألقينا على كرسيه جسدا﴾ إشارة إلى شيء من هذه الفتنة ليرتبط قوله: ﴿ثم أناب﴾ بذلك.

ويحتمل أنه قصة أخرى غير قصة فتنته.وأظهر أقوالهم أن تكون الآية إشارة إلى ما

_

١ اللهيم كزبير: الداهية: والناد كسحاب: الداهية أيضا.." (١)

"وإتباع ذلك بصفة ﴿رب السماوات والأرض وما بينهما﴾ تصريح بعموم ربوبيته وأنه لا شريك له في شيء منها.ووصف ﴿العزيز﴾ تمهيد للوصف بـ ﴿الغفار﴾ ،أي الغفار عن عزة ومقدرة لا عن عجز وملق أو مراعاة جانب مساو.والمقصود من وصف ﴿الغفار﴾ هنا استدعاء المشركين إلى التوحيد بعد تهديدهم بمفاد وصف ﴿القهار﴾ لكي لا ييأسوا من قبول التوبة بسبب كثرة ما سيق إليهم من الوعيد جريا على عادة القرآن في تعقيب الترهيب بالترغيب والعكس.

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ١٥٥/٢٣

[٦٩.٦٧] ﴿قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون إن يوحى إلي إلا أنما أنا نذير مبين﴾

إعادة الأمر بالقول هنا مستأنفا.والعدول عن الإتيان بحرف يعطف المقول أعني ﴿هو نبأ عظيم﴾ على المقول السابق أعني ﴿أنا منذر﴾ [ص:٦٥]،عدول يشعر بالاهتمام بمقول هنا كي لا يؤتي به تابعا لمقول آخر فيضعف تصعدي السامعين لوعيه.

وجملة ﴿قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون﴾ يجوز أن تكون في موقع الاستئناف الابتدائي انتقالا من غرض وصف أحوال أهل المحشر إلى غرض قصة خلق آدم وشقاء الشيطان،فيكون ضمير ﴿هو﴾ ضمير شأن يفسره ما بعده وما يبين به ما بعده من قوله: ﴿إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين﴾ [ص:٧١]جعل هذا كالمقدمة للقصة تشويقا لتلقيها فيكون المراد بالنبأ نبأ خلق آدم وما جرى بعده، ويكون ضمير ﴿يختصمون﴾ عائدا إلى الملأ الأعلى لأن الملأ جماعة.ويراد بالاختصام الاختلاف الذي جرى بين الشيطان وبين من بلغ إليه من الملائكة أمر الله بالسجود لآدم،فالملائكة هم الملأ الأعلى وكان الشيطان بينهم فعد منهم قبل أن يطرد من السماء.

ويجوز أن تكون جملة ﴿قل هو نبأ عظيم﴾ الخ تذييلا للذي سبق من قوله: ﴿وإن للمتقين لحسن مآب﴾ [ص:٤٩]إلى هنا،تذييلا يشعر بالتنويه به وبطلب الإقبال على التدبر فيه والاعتبار به.وعليه يكون ضمير ﴿هو﴾ ضميرا عائدا إلى الكلام السابق على تأويله بالمذكور فلذلك أتي لتعريفه بضمير المفرد.

والمراد بالنبأ:خبر الحشر وما أعد فيه للمتقين من حسن مآب،وللطاغين من شر مئاب،ومن سوء صحبة بعضهم لبعض،وتراشقهم بالتأنيب والخصام بينهم وهم في العذاب،وترددهم في سبب أن لم يجدوا معهم المؤمنين الذين كانوا يعدونهم من." (١)

"الاكتراث بفعل المخاطب،أي أن ذلك لا يضرني كقوله في سورة الكهف[٢٩] ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ ،أي اعبدوا أي شيء شئتم عبادته من دون الله.وجعلت الصلة هنا فعل المشيئة إيماء إلى أن رائدهم في تعيين معبوداتهم هو مجرد المشيئة والهوى بلا دليل.

﴿قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين﴾

أعقب أمر التسوية في شأنهم بشيء من الموعظة حرصا على إصلاحهم على **عادة القرآن**،ولوحظ في إبلاغهم هذه الموعظة مقام ما سبق من التخلية بينهم وبين شأنهم جمعا بين الإرشاد وبين التوبيخ، فجيء

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٢٣/١٨٥

بالموعظة على طريق التعريض والحديث عن الغائب والمراد المخاطبون.
وافتتح المقول بحرف التوكيد تنبيها على أنه واقع وتعريف ﴿الخاسرين﴾ تعريف الجنس،أي أن الجنس الذين عرفوا بالخسران هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم.
وتعريف المسند والمسند إليه من طريق القصر،فيفيد هذا التركيب قصر جنس الخاسرين على الذين خسروا أنفسهم وأهليهم،وهو قصر مبالغة لكمال جنس الخسران في الذين خسروا أنفسهم وأهليهم فخسرا غيرهم كلا خسران،ولهذا يقال في لام التعريف في مثل هذا التركيب إنها دالة على معنى الكمال فليسوا يريدون أن معنى الكمال من معاني لام التعريف.
ولما كان الكلام مسوقا بطريق التعريض بالذين دار الجدال معهم من قوله: ﴿إن تكفروا فإن الله غني عنكم﴾ إلى قوله: ﴿فاعبدوا ما شئتم من دونه﴾ [الزمر: ١٥.٧]،علم أن المراد بالذين خسروا أنفسهم وأهليهم هم الذين جرى الجدال معهم،فأفاد معنى:أن الخاسرين أنتم،إلا أن وجه العدول عن الضمير إلى الموصولية في قوله: ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ لإدماج وعيدهم بأنهم يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة.
ومعنى خسرانهم أنفسهم:أنهم تسببوا لأنفسهم في العذاب في حين حسبوا أنهم سعوا لها في النعيم والنجاح،وهو تمثيل لحالهم في إيقاع أنفسهم في العذاب وهم يحسبون أنهم يلقونها في النعيم،بحال التاجر الذي عرض ماله للنماء والربح فأصيب بالتلف،فأطلق على هذه الهيئة تركيب ﴿خسروا أنفسهم﴾ ،وقد تقدم في قوله تعالى: ﴿ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون﴾ في أول سورة الأعراف[٩].." (١)

"[٤٩] ﴿فإذا مس الأنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾
الفاء لتفريع هذا الكلام على قوله: ﴿وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ [الزمر:٤٥]الآية وما بينهما اعتراض مسلسل بعضه مع بعض للمناسبات.
وتفريع ما بعد الفاء على ما ذكرناه تفريع وصف بعض من غرائب أحوالهم على بعض،وهل أغرب من فزعهم إلى الله وحده بالدعاء إذا مسهم الضر وقد كانوا يشمئزون من ذكر اسمه وحده فهذا تناقض من أفعالهم وتعكيس، فإنه تسبب حديث على حديث وليس تسببا على الوجود.وهذه النكتة هي الفارقة بين العطف بالفاء هنا وعطف نظيرها بالواو في قوله أول السورة ﴿وإذا مس الأنسان ضر دعا ربه منيبا إليه﴾

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٤٦/٢٤

[الزمر:٨].والمقصود بالتفريع هو قوله: ﴿فإذا مس الأنسان ضر دعانا﴾ ،وأما ما بعده فتتميم واستطراد.
وقد تقدم القول في نظير صدر هذه الآية في قوله: ﴿وإذا مس الأنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي﴾ [الزمر:٨]الآية.وأن المراد بالإنسان كل مشرك فالتعريف تعريف الجنس، والمراد جماعة من الناس وهم أهل الشرك فهو للاستغراق العرفي.والمخالفة بين الآيتين تفنن ولئلا تخلو إعادة الآية من فائدة زائدة كما هو عادة القرآن في القصص المكررة.
وقوله: ﴿إنما أوتيته على علم﴾ ﴿إنما﴾ فيه هي الكلمة المركبة من "إن" الكافة التي تصير كلمة تدل على الحصر بمنزلة "ما" النافية التي بعدها "إلا" الاستثنائية.والمعنى:ما أوتيت الذي أوتيته من نعمة إلا لعلم مني بطرق اكتسابه.وتركيز ضمير الغائب في قوله: ﴿أوتيته﴾ عائد إلى ﴿نعمة﴾ على تأويل حكاية مقالتهم بأنها صادرة منهم في حال حضور ما بين أيديهم من أنواع النعم فهو من عود الضمير إلى ذات مشاهدة،فالضمير بمنزلة اسم الإشارة كقوله تعالى: ﴿بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم﴾ [الاحقاف:٢٤].
ومعنى ﴿قال إنما أوتيته على علم﴾ اعتقد ذلك فجرى في أقواله إذ القول على وفق الاعتقاد.و ﴿على﴾ للتعليل،أي لأجل علم،أي بسبب علم.وخولف بين هذه الآية وبين آية سورة القصص[٧٨]في قوله: ﴿على علم عندي﴾ فلم يذكر هنا ﴿عندي﴾ لأن المراد بالعلم هنا مجرد الفطنة والتدبير،وأريد هنالك علم صوغ الذهب والفضة والكيمياء." (١)

"التلاحم على انتصار إحدى الطائفتين،فكان في إنارة السبيل لها ما يسهل خطو الحائرين في ظلمات الشك،ويرتفق بها ويواسيها بعد أن أثخنتها جروح التوبيخ والزجر والوعيد،ويضمد تلك الجراحة،والحليم يزجر ويلين،وتثير في نفس النبي صلى الله عليه وسلم خشية أن يحيط غضب الله بالذين دعاهم إليه فأعرضوا،أو حببهم في الحق فأبغضوا،فلعله لا يفتح لهم باب التوبة،ولا تقبل منهم بعد إعراضهم أوبة،ولا سيما بعد أن أمره بتفويض الأمر إلى حكمه،المشتم منه ترقب قطع الجدال وفصمه،فكان أمره لرسوله صلى الله عليه وسلم بأن يناديهم بهذه الدعوة تنفيسا عليه،وتفتيحا لباب الأوبة إليه،فهذا كلام ينحل إلى استئنافين فجملة ﴿قل﴾ استئناف لبيان ما ترقبه أفضل النبيين صلى الله عليه وسلم،أي بلغ عني هذا القول.
وجملة ﴿يا عبادي﴾ استئناف ابتدائي من خطاب الله لهم.وابتداء الخطاب بالنداء وعنوان العباد مؤذن بأن ما بعده إعداد للقبول وإطماع في النجاة.
والخطاب بعنوان ﴿يا عبادي﴾ مراد به المشركون ابتداء بدليل قوله: ﴿وأسلموا له من قبل أن يأتيكم

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ١٠٨/٢٤

العذاب﴾ [الزمر:٥٤]وقوله: ﴿وإن كنت لمن الساخرين﴾ [الزمر:٥٦]وقوله: ﴿بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين﴾ [الزمر:٥٩].فهذا الخطاب جرى على غير الغالب في مثله في عادة القرآن عند ذكر ﴿عبادي﴾ بالإضافة إلى ضمير المتكلم تعالى.

وفي "صحيح البخاري" عن ابن عباس:"أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا،وزنوا وأكثروا،فأتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فقالوا:"إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة يعني وقد سمعوا آيات الوعيد لمن يعمل تلك الأعمال وإلا فمن أين علموا أن تلك الأعمال جرائم وهم في جاهلية . فنزل ﴿والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون﴾ [الفرقان:٦٨]يعني إلى قوله: ﴿إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا﴾ [الفرقان:٧٠]ونزل ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾ .

وقد رويت أحاديث عدة في سبب نزول هذه الآية غير حديث البخاري وهي بين ضعيف ومجهول ويستخلص من مجموعها أنها جزيئات لعموم الآية وأن الآية عامة لخطاب جميع المشركين وقد أشرنا إليها في ديباجة تفسير السورة.ومن أجمل الأخبار المروية فيها ما رواه ابن إسحاق عن نافع عن ابن عمر عن عمر قال:"لما اجتمعنا على الهجرة اتعدت أنا وهشام بن العاص السهمي،وعياش بن أبي ربيعة بن عتبة.فقلنا:." (١)

"وأرادوا بـ ﴿العاملين﴾ أنفسهم،أي عاملي الخير،وهذا من التصريح بالحقائق فليس فيه عيب تزكية النفس،لأن ذلك العالم عالم الحقائق الكاملة المجردة عن شوب النقائض.

واعلم أن الآيات وصفت مصير أهل الكفر ومصير المتقن يوم الحشر وسكتت عن مصير أهل المعاصي الذين لم يلتحقوا بالمتقين بالتوبة من الكبائر وغفران الصغائر باجتناب الكبائر،وهذه عادة القرآن في الإعراض عن وصف رجال من الأمة الإسلامية بمعصية ربهم إلا عند الاقتضاء لبيان الأحكام،فإن الكبائر من أمر الجاهلية فما كان لأهل الإسلام أن يقعوا فيها فإذا وقعوا فيها فعليهم بالتوبة فإذا ماتوا غير تائبين فإن الله تعالى يحصي لهم حسنات أعمالهم وطيبات نواياهم فيقاصهم بها إن شاء،ثم هم فيما دون ذلك يقتربون من العقاب بمقدار اقترابهم من حال أهل الكفر في وفرة المعاصي فيؤمر بهم إلى النار،أو إلى الجنة،ومنهم أهل لأعراف.وقد تقدمت نبذة من هذا الش أن في سورة الأعراف.

[٧٥] ﴿وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ١١٢/٢٤

رب العالمين﴾

﴿وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم﴾

عطف على ما قبله من ذكر أحوال يوم القيامة التي عطف بعضها على بعض ابتداء من قوله تعالى: ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض﴾ [الزمر:٦٨]إن من جملة تلك الأحوال حف الملائكة حول العرش.

والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم فيكون إيذانا بأنها رؤية دنو من العرش وملائكته وذلك تكريم له بأن يكون قد حواه موكب الملائكة الذين حول العرش.

والحف:الإحداق بالشيء والكون بجوانبه.

وجملة ﴿يسبحون بحمد ربهم﴾ حال،أي يقولون أقوالا تدل على تنزيه الله تعالى وتعظيمه ملابسة لحمدهم إياه.فالباء في ﴿بحمد ربهم﴾ للملابسة تتعلق ب ﴿يسبحون﴾ .وفي استحضار الله تعالى بوصف ربهم إيماء إلى أن قربهم من العرش ترفيع في مقام العبودية الملازمة للخلائق.

﴿وقضي بينهم بالحق﴾." (١)

"والبشير: اسم للمبشر وهو المخبر بخبر يسر المخبر. والنذير: المخبر بأمر مخوف، شبه القرآن بالبشير فيما اشتمل عليه من الآيات المبشرة للمؤمنين الصالحين، وبالنذير فيما فيه من الوعيد للكافرين وأهل المعاصي، فالكلام تشبيه بليغ. وليس ﴿بشيرا﴾ أو ﴿نذيرا﴾ اسمي فاعل لأنه لو أريد ذلك لقيل: مبشرا ومنذرا. والجمع بين ﴿بشيرا﴾ على أنه حال ثانية من ﴿كتاب﴾ أو صفة ل ﴿قرآنا﴾ ، وصفة الحال في معنى الحال، فالأولى كونه حالا ثانية.

وجيء بقوله ﴿نذيرا﴾ معطوفا بالواو للتنبيه على اختلاف موقع كل من الحالين فهو بشير لقوم وهم الذين اتبعوه ونذير لآخرين، وهم المعرضون عنه، وليس هو جامعا بين البشارة والنذارة لطائفة واحدة فالواو هنا كالواو في قوله ﴿ثيبات وأبكارا﴾ [التحريم: من الآية٥] بعد قوله ﴿مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات﴾ [التحريم:٥].

وتفريغ ﴿فأعرض أكثرهم﴾ على ما ذكر من صفات القرآن. وضمير ﴿أكثرهم﴾ عائد إلى معلوم من المقام وهم المشركون كما هي عادة القرآن في غير موضع. والمعنى: فأعرض أكثر هؤلاء عما في القرآن من الهدى فلم يهتدوا، ومن البشارة فلم يعنوا بها، ومن النذارة فلم يحذروها، فكانوا في أشد الحماقة، إذ لم

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ١٣٩/٢٤

يعنوا بخير، ولا حذروا الشر، فلم يأخذوا بالحيطة لأنفسهم وليس عائدا ﴿لقوم يعلمون﴾ لأن الذين يعلمون لا يعرض أحد منهم.

والفاء في قوله ﴿فهم لا يسمعون﴾ للتفريغ على الإعراض، أي فهم لا يلقون أسماعهم للقرآن فضلا عن تدبره، وهذا إجمال لإعراضهم.

وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي في ﴿فهم لا يسمعون﴾ دون أن يقول: فلا يسمعون لإفادة تقوي الحم وتأكيده.

[٥] ﴿وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون﴾ عطف ﴿وقالوا﴾ على ﴿فأعرض﴾ [فصلت:٤] أو حال من ﴿أكثرهم﴾ [فصلت:٤]، أو عطف على ﴿لا يسمعون﴾ [فصلت: ٤] أو حال مِن ضميره، والمعنى: أنهم أعرضوا مصرحين بقلة الاكتراث وبالانتصاب للجفاء والعداء. وهذا تفصيل للأعراض عما." (١)

"والخطاب في قوله ﴿أنك﴾ لغير معين ليصلح لكل سامع.

والخشوع: التذلل، وهو مستعار لحال الأرض إذا كانت مقحطة لا نبات عليها لأن حالها في تلك الخصاصة كحال المتذلل، وهذا من تشبيه المحسوس بالمعقول باعتبار ما يتخيله الناس من مشابهة اختلاف حالي القحولة والخصب بحالي التذلل والازدهاء.

والاهتزاز حقيقته: مطاوعة هزه، إذا حركه بعد سكونه فتحرك. وهو هنا مستعار لربو وجه الأرض بالنبات، شبه حال إنباتها وارتفاعها بالماء والنبات بعد أن كانت منخفضة خامدة بالاهتزاز.

ويؤخذ من مجموع ذلك أن هذا التركيب تمثيل، شبه حال قحولة الأرض ثم إنزال الماء عليها وانقلابها من الجدوبة إلى الخصب والإنبات البهيج بحال شخص كان كاسف البال رث اللباس فأصابه شيء من الغنى فلبس الزينة واختال في مشيته زهوا، ولذا يقال: هز عطفيه، إذا اختال في مشيته.

وفي قوله ﴿خاشعة﴾ و ﴿اهتزت﴾ مكنية بأن شبهت بشخص كان ذليلا ثم صار مهتزا لعطفيه ورمز إلى المشبه بهما بذكر رديفيهما. فهذا من أحسن التمثيل وهو الذي يقبل تفريق أجزائه في أجزاء التشبيه.

وعطف ﴿وربت﴾ على ﴿اهتزت﴾ لأن المقصود من الاهتزاز هو ظهور النبات عليها وتحركه. والمقصود بالربو: انتفاخها بالماء واعتلاؤها.

وقرأ أبو جعفر ﴿ وربأت﴾ بهمزة بعد الموحدة من "ربأ" بالهمز، إذا ارتفع.

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٩/٢٥

وقرأ أبو جعفر "وربأت" بهمزة بعد الموحدة من "ربأ" بالهمز، إذا ارتفع.

﴿إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير﴾

إدماج لإثبات البعث في أثناء الاستدلال على تفرده تعالى بالخلق والتدبير، ووقوعه على عادة القرآن في التفنن وانتهاز فرص الهدى إلى الحق.

والجملة استئناف ابتدائي والمناسبة مشابهة الإحياءين، وحرف التوكيد لمراعاة إنكار المخاطبين إحياء الموتى.

وتعريف المسند إليه بالموصولية لما في الموصول من تعليل الخبر، وشبه إمداد الأرض بماء المطر الذي هو سبب انبثاق البزور التي في باطنها التي تصير نباتا بإحياء الميت، فأطلق على ذلك ﴿أحياها﴾ على طريق الاستعارة التبعية، ثم ارتقي من ذلك إلى جعل ذلك الذي سمي إحياء لأنه شبيه الإحياء دليلا على إمكان إحياء الموتى بطريقة قياس." (١)

"﴿قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به﴾ [يونس: ١٦] لأن ذلك لم يكن مسوقا لإبطال كلام صدر منهم.

وجملة ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ تعليل لمجموع جملتي ﴿فإن يشإ الله﴾ إلى قوله ﴿بكلماته﴾ ، أي لأنه لا يخفى عليه افتراء مفتر ولا صدق محق. و"ذات الصدور": النوايا والمقاصد التي يضمرها الناس في عقولهم. والصدور: العقول، أطلق عليها الصدور على الاستعمال العربي، وقد تقدم عند قوله تعالى ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ في سورة الأنفال [٤٣]

[٢٦,٢٥] ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد﴾

لما جرى وعيد الذين يحاجون في الله لتأييد باطلهم من قوله تعالى ﴿والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد﴾ [الشورى:١٦]

ثم اتبع بوصف سوء حالهم يوم الجزاء بقوله ﴿ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا﴾ وقوبل بوصف نعيم الذين آمنوا بقوله ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات﴾ [الشورى: ٢٢] وكان ذلك مظنة أن يكسر نفوس أهل العناد والضلالة، أعقب بإعلامهم أن الله من شأنه قبول توبة من يتوب من عباده، وعفوه بذلك عما سلف من سيئاتهم.

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٦٦/٢٥

وهذا الإخبار تعريض بالتحريض على مبادرة التوبة ولذلك جيء فيه بالفعل المضارع الصالح للاستقبال. وهو أيضا بشارة للمؤمنين بأنه قبل توبتهم مما كانوا فيه من الشرك والجاهلية فإن الذي من شأنه أن يقبل التوبة في المستقبل يكون قد قبل توبة التائبين من قبل، بدلالة لحن الخطاب أو فحواه، وأن من شأنه الاستجابة للذين أمنوا وعملوا الصالحات من عباده. وكل ذلك جري على **عادة القرآن** في تعقيب الترهيب بالترغيب وعكسه. وهذا كله يتضمن وعدا للمؤمنين بقبول إيمانهم وللعصاة بقبول توبتهم.

فجملة: ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده﴾ معطوفة على جملة ﴿وإن الظالمين لهم عذاب أليم﴾ [الشورى: ٢١] وما اتصل بها مما تقدم ذكره وخاصة جملة:﴿ ويمح الله الباطل﴾ [الشورى:٢٤]." (١)

"يكون جرى في أثناء المجادلة في شأن عيسى، ويحتمل أن يكون مجرد حكاية شبهة أخرى من شبه عقائدهم، ففي هذه الآية إجمال يبينه ما بعرفه النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون من جدل جرى مع المشركين، ويزيده بيانا قوله ﴿إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني إسرائيل﴾ [الزخرف:٥٩] وهذه الآية من أخفى آي القرآن معنى مرادا.

وقد اختلف أهل التفسير في سبب نزول هذه الآية وما يبين إجمالها على ثلاثة أقوال ذكرها في الكشاف وزاد من عنده احتمالا رابعا. وأظهر الأقوال ما ذكره ابن عطية عن ابن عباس وما ذكره في الكشاف وجها ثانيا ووجها ثالثا أن المشركين لما سمعوا من النبي صلى الله عليه وسلم بيان إن مثل عيسى عند الله كمثل أدم وليس خلقه من دون أب بأعجب من خلق آدم من دون أب ولا أم أو ذلك قبل أن تنزل سورة آل عمران لأن تلك السورة مدنية وسورة الزخرف مكية قالوا: نحن أهدى من النصارى لأنهم عبدوا آدميا ونحن عبدنا الملائكة أي يدفعون ما سفههم به النبي صلى الله عليه وسلم بأن حقه أن يسفه النصارى فنزل قوله تعالى ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلا﴾ الآية ولعلهم قالوا ذلك عن تجاهل بما جاء في القرآن من رد على النصارى.

والذي جرى عليه أكثر المفسرين أن سبب نزولها الإشارة إلى ما تقدم في سورة الأنبياء عند قوله تعالى ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ إذ قال عبد الله بن الزبعرى قبل إسلامه للنبي صلى الله عليه وسلم أخاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم فقال النبي صلى الله عليه وسلم هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم ، قال: خصمتك ورب الكعبة ألست تزعم أن عيسى بن مريم نبي وقد عبدته النصارى فإن كان عيسى في النار فقد رضينا أن نكون نحن وألهتنا معه ففرح بكلامه من حضر من المشركين وضج أهل مكة بذلك

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ١٥١/٢٥

فأنزل الله تعالى ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون﴾ في سورة الأنبياء ونزلت هذه الآية تشير إلى لجاجهم.

وبعض المفسرين يزيد في رواية كلام ابن الزبعرى وقد عبدت بنو مليح الملائكة فإن كان عيسى والملائكة في النار فقد رضينا. وهذا يتلاءم مع بناء فعل ﴿ضرب﴾ للمجهول لأن الذي جعل عيسى مثلا لمجادلته هو عبد الله بن الزبعرى، وليس من عادة القرآن تسمية أمثاله، ولو كان المثل مضروبا في القرآن لقال: ولما ضربنا ابن مريم مثلا، كما قال بعده ﴿وجعلناه مثلا لبني إسرائيل﴾ [الزخرف: ٥٩]. ويتلاءم مع تعدية فعل ﴿يصدون﴾ بحرف "من" الابتدائية دون حرف "عن" ومع قوله ﴿ما ضربوه لك إلا جدلا." (١)

"أحدهما: أن يكون عطفا على ﴿الساعة﴾ في قوله ﴿وعنده علم الساعة﴾ أي وعلم قيل الرسول: يا رب، وهو على هذا وعد للرسول بالنصر وتهديد لهم بالانتقام.

وثانيهما: أن تكون الواو للقسم ويكون جواب القسم جملة ﴿إن هؤلاء قوم لا يؤمنون﴾ على أن الله أقسم بقول الرسول: يا رب، تعظيما للرسول ولقيله الذي هو تفويض للرب وثقة به.

ومقول ﴿قيله﴾ هو ﴿يا رب﴾ فقط، أي أقسم بنداء الرسول ربه نداء مضطر.

وذكر ابن هشام في شرح الكعبية عن أبي حاتم السجستاني: أن من جر فقوله بظن وتخليط، وأنكره عليه ابن هشام لإمكان تخريج الجر على وجه صحيح.

وقد حذف بعد النداء ما نودي لأجله مما دل عليه مقام من أعيته الحيلة فيهم ففوض أمره إلى ربه فأقسم الله بتلك الكلمة على أنهم لا يؤمنون ولكن الله سينتقم منهم فلذلك قال ﴿فسوف يعلمون﴾ [الزخرف:٨٩] والإشارة ب ﴿هؤلاء﴾ إلى المشركين من أهل مكة كما هي عادة القرآن غالبا ووصفهم بأنهم قوم لا يؤمنون، أدل على تمكن عدم الإيمان منهم من أن يقول: هؤلاء لا يؤمنون.

[٨٩] ﴿فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون﴾

الفاء فصيحة لأنها أفصحت عن مقدر، أي إذ قلت ذلك القيل وفوضت الأمر إلينا فسأتولى الانتصاف منهم فاصفح عنهم، أي أعرض عنهم ولا تحزن لهم وقل لهم إن جادلوك: ﴿سلام﴾ ، أي سلمنا في المجادلة وتركناها.

وأصل ﴿سلام﴾ مصدر جاء بدلا من فعله. فأصله النصب، وعدل إلى رفعه لقصد الدلالة على الثبات كما تقدم في قوله ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ [الفاتحة:٢].

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٢٥/٢٧٤

يقال: صفح يصفح من باب منع بمعنى: أعرض وترك، وتقدم في أول السورة ﴿أفنضرب عنكم الذكر صفحا﴾ [الزخرف: ٥] ولكن الصفح المأمور به هنا غير الصفح المنكر وقوعه في قوله ﴿أفنضرب عنكم الذكر صفحا﴾

وفرع عليه ﴿فسوف تعلمون﴾ تهديدا لهم ووعيدا. وحذف مفعول ﴿تعلمون﴾ للتهويل لتذهب نفوسهم كل مذهب ممكن.

وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر وروح عن يعقوب ﴿تعلمون﴾ بالمثناة الفوقية على أن ﴿فسوف." (١)

"الإشارة مشار به إلى الحالة الحاضرة لديهم، أي هذا العذاب والجزاء هو ما كنتم تكذبون به في الدنيا.

والامتراء: الشك، وأطلق الامتراء على جزمهم بنفي يقينهم بانتفاء البعث لأن يقينهم لما كان خليا عن دلائل العلم كان بمنزلة الشك، أي أن البعث هو بحيث لا ينبغي أن يوقن بنفيه على نحو ما قرر في قوله تعالى ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾ [البقرة: ٢].

[٥١-٥٣] ﴿إن المتقين في مقام أمين في جنات وعيون يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين﴾

استئناف ابتدائي انتقل به الكلام من وصف عذاب الأثيم إلى وصف نعيم المتقين لمناسبة التضاد على عادة القرآن في تعقيب الوعيد بالوعد والعكس.

والمقام بضم الميم: مكان الإقامة. والمقام بفتح الميم: مكان القيام ويتناول المسكن وما يتبعه.

وقرأه نافع وابن عامر وأبو جعفر بضم الميم. وقرأه الباقون بفتح الميم.

والمراد بالمقام المكان فهو مجاز بعلاقة الخصوص والعموم.

والأمين بمعنى الآمن والمراد: الآمن ساكنه، فوصفه ب ﴿أمين﴾ مجاز عقلي كما قال تعالى ﴿وهذا البلد الأمين﴾ [التين:٣]. والأمن أكبر شروط حسن المكان لأن الساكن أول ما يتطلب الأمن وهو السلامة من المكاره والمخاوف فإذا كان آمنا في منزلة كان مطمئن البال شاعرا بالنعيم الذي يناله. وأبدل منه بأنهم ﴿في جنات وعيون﴾ وذلك من وسائل النزهة والطيب. وأعيد حرف ﴿في﴾ مع البدل للتأكيد.

والجنات: جمع جنة، وتقدم في أول البقرة. والعيون: جمع عين، وتقدم في قوله ﴿فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا﴾ في سورة البقرة [٦٠]، فهذا نعيم مكانهم. ووصف نعيم أجسادهم بذكر لباسهم وهو لباس الترف والنعيم وفيه كناية عن توفر أسباب نعيم الأجساد لأنه لا يلبس هذا اللباس إلا من استكمل ما قبله من

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٣٠٤/٢٥

ملائمات الجسد باطنه وظاهره.

والسندس: الديباج الرقيق النفيس، والأكثر على أنه معرب من الفارسية وقيل عربي. أصله: سندي، منسوب إلى السند على غير قياس. والسندس يلبس مما يلي الجسد.

والإستبرق الديباج القوي يلبس فوق الثياب وهو معرب استبره فارسية، وهو الغليظ." (١)

"وهي من مقول القول.

[١٥-١٩] ﴿إن المتقين في جنات وعيون﴾ [٥] أخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين [١٦] كانوا قليلا من الليل ما يهجعون [١٧] وبالأسحار هم يستغفرون [١٨]وفي أموالهم حق للسائل والمحروم﴾ [١٩].

اعتراض قابل به حال المؤمنين في يوم الدين جرى على عادة القرآن في اتباع النذارة بالبشارة، والترهيب بالترغيب.

وقوله: ﴿إن المتقين في جنات وعيون﴾ نظير قوله في سورة الدخان[٥١، ٥٢]﴿إن المتقين في مقام أمين في جنات وعيون﴾ .

وجمع ﴿جنات﴾ : باعتبار جمع المتقين وهي جنات كثيرة مختلفة وفي الحديث إنها لجنان كثيرة، وإنه لفي الفردوس، وتنكير ﴿جنات﴾ [البقرة: من الآية٢٥] للتعظيم.

ومعنى ﴿آخذين ما آتاهم ربهم﴾ أنهم قابلون ما أعطاهم، أي راضون به فالأخذ مستعمل في صريحه وكنايته كناية رمزية عن كون ما يؤتونه أكمل في جنسه لأن مدارك الجماعات تختلف في الاستجادة حتى تبلغ نهاية الجودة فيستوي الناس في استجادته، وهي كناية تلويحية.وأيضا فالأخذ مستعمل في حقيقته ومجازه لأن ما يؤتيهم الله بعضهم مما يتناول باليد كالفواكه والشراب والرياحين، وبعضه لا يتناول باليد كالمناظر الجميلة والأصوات الرقيقة والكرامة والرضوان وذلك أكثر من الأول.

فإطلاق الأخذ على ذلك استعارة بتشبيه المعقول بالمحسوس كقوله تعالى ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ في سورة البقرة،[٦٣] وقوله ﴿وأمر قومك يأخذوا بأحسنها﴾ في سورة الأعراف[١٤٥].

فاجتمع في لفظ ﴿آخذين﴾ كنايتان ومجاز. روى أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى يقول: "يا أهل الجنة. فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك فيقولون:

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٢٥/٣٤٠

وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا" .

وفي إيثار التعبير عن الجلالة بوصف "رب" مضاف إلى ضمير المتقين معنى من." (١)

"وقوله ﴿فما استطاعوا من قيام﴾ تفريع على ﴿وهم ينظرون﴾ أي فما استطاعوا أن يدفعوا ذلك حين رؤيتهم بوادره. فالقيام مجاز للدفاع كما يقال: هذا أمر لا يقوم له أحد، أي لا يدفعه أحد. وفي الحديث "غضب غضبا لا يقوم له أحد" ، أي فما استطاعوا أي دفاع لذلك.

وقوله ﴿وما كانوا منتصرين﴾ أي لم ينصرهم حتى يكونوا منتصرين لأن انتصر مطاوع نصر، أي ما نصرهم أحد فانتصروا.

[٤٦] ﴿وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين﴾ .

قرأ الجمهور ﴿قوم﴾ بالنصب بتقدير "اذكر"، أو بفعل محذوف يدل عليه ما ذكر من القصص قبله، تقديره: وأهلكنا قوم نوح، وهذا من عطف الجمل وليس من عطف المفردات.

وقرأ أبو عمروا وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بالجر عطفا على ﴿ثمود﴾ [الذريات٤٣ :].

على تقدير:وفي قوم نوح.

ومعنى ﴿من قبل﴾ أنهم أهلكوا قبل أولئك فهم أول الأمم المكذبين رسولهم أهلكو.

وجملة ﴿إنهم كانوا قوما فاسقين﴾ تعليل لما تضمنه قوله :﴿وقوم نوح من قبل﴾ وتقدير كونهم آيه للذين يخافون العذاب: من كونهم عوقبوا وأن عقابهم لأنهم كانوا قوما فاسقين.

وأخر الكلام على قوم نوح لما عرض من تجاذب المناسبات فيما أورد من آيات العذاب للأمم المذكورة آنفا بما علمته سابقا. ولذلك كان قوله: ﴿من قبل﴾ تنبيها على وجه مخالفة عادة القرآن في ترتيب حكاية أحوال الأمم على حسب ترتيبهم في الوجود.وقد أومأ قوله: ﴿قبل﴾ إلى هذا ومثله قوله تعالى ﴿وأنه أهلك عادا الأولى وثمود فما أبقى وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى﴾ [النجم:٥٠-٥٢]

[٤٧] ﴿والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون﴾ .

لما كانت شبهة نفاة البعث قائمة على توهم استحالة إعادة الأجسام بعد فنائها أعقبت تهديدهم بما يقوض توهمهم فوجه إليه الخطاب يذكرهم بأن الله خلق أعظم المخلوقات." (٢)

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ١٥/٢٧

(٢) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٣٥/٢٧

"يتساءل عن حال أضدادهم وهم الفريق الذين صدقوا الرسول صلى الله عليه وسلم فما جاء به القرآن وخاصة إذ كانوا السامعون المؤمنين **وعادة القرآن** تعقيب الإنذار بالتبشير وعكسه، والجملة معترضة بين ما قبلها وجملة ﴿أم يقولون شاعر﴾ [الطور:٣٠].

وتأكيد الخبر ب "إن" للاهتمام به. وتنكير ﴿إن المتقين في جنات﴾ لتعظيم، أي في أية جنات وأي نعيم.

وجمع ﴿جنات﴾ تقدم في سورة الذاريات.

والفاكه: وصف من فكه كفرح، إذا طابت نفسه وسر.

وقرأ الجمهور ﴿فاكهين﴾ بصيغة اسم الفاعل، وقرأه أبو جعفر ﴿فكهين﴾ بدون ألف.

والباء في ﴿بما آتاهم ربهم﴾ للسببية والمعنى:أن ربهم أرضاهم بما يحبون.

واستحضار الجلالة بوصف ﴿ربهم﴾ للإشارة إلى عظيم ما آتاهم إذ العطاء يناسب حال المعطي، وفي إضافة ﴿رب﴾ إلى ضميرهم تقريب لهم وتعظيم وجملة ﴿ووقاهم ربهم عذاب الجحيم﴾ [الطور:١٨] في موضع الحال، والواو حالية، أو عاطفة على ﴿فاكهين﴾ الذي هو حال، والتقدير: وقد وقاهم ربهم عذاب الجحيم، وهو حال من المتقين. والمقصود من ذكر هذه الحالة: إ ظهار التباين بين حال المتقين وحال المكذبين زيادة في الامتنان فإن النعمة تزداد حسن وقع في النفس عند ملاحظة ضدها.

وفيه أيضا أن وقايتهم عذاب الجحيم عدل، لأنهم لم يقترفوا ما يوجب العقاب. وأما ما أعطوه من النعيم فذلك فضل من الله وإكرام منه لهم.

وفي قوله ﴿ربهم﴾ ما تقدم قبيله.

وجملة ﴿كلوا واشربوا﴾ إلى آخرها مقول قول محذوف في موضع الحال أيضا،تقديره: يقال: لهم، أو مقولا لهم. وهذا القول مقابل ما يقال للمكذبين ﴿اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾ [الطور١٦:].

وحذف مفعول ﴿كلوا واشربوا﴾ لإفادة النعيم، أي كلوا ما يؤكل واشربوا كل ما يشرب، وهو عموم عرفي، أي مما تشتهون.

و ﴿هنيئا﴾ اسم على وزن فعيل بمعنى مفعول وقع وصفا لمصدرين لفعلي ﴿كلوا." (١)

"أنزل على محمد بمكة وإني لجارية ألعب ﴿بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر﴾ [القمر:٤٦]. وكانت عقد عليها في شوال قبل الهجرة بثلاث سنين، أي في أواخر سنة أربع قبل الهجرة بمكة، وعائشة

---

(١) التحرير و التنوير، المؤلف غير معروف ٦٠/٢٧

يومئذ بنت ست سنين، وذكر بعض المفسرين أن انشقاق القمر كان سنة خمس قبل الهجرة وعن ابن عباس كان بين نزول آية ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾ [القمر:٤٥] وبين بدر سبع سنين.

أغراض هذه السورة

تسجيل مكابرة المشركين في الآيات المبينة، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالإعراض عن مكابرتهم.

وإنذارهم باقتراب القيامة وبما يلقونه حين البعث من الشدائد.

وتذكيرهم بما لقيته الأمم أمثالهم من عذاب الدنيا لتكذيبهم رسل الله وأنهم سيلقون مثل ما لقي أولئك إذ ليسوا خيرا من كفار الأمم الماضية.

وإنذارهم بقتال يهزمون به، ثم لهم عذاب الآخرة وهو أشد.

وإعلامهم بإحاطة الله علما بأفعالهم وأنه مجازيهم شر الجزاء ومجاز المتقين خير الجزاء. وإثبات البعث، ووصف بعض أحواله.

وفي خلال ذلك تكرير التنويه بهدي القرآن وحكمته.

[١] ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾ .

من **عادة القرآن** أن ينتهز الفرصة لإعادة الموعظة والتفكير حين يتضاءل تعلق النفوس بالدنيا، وتفكر فيما بعد الموت وتعير آذانها لداعي الهدى. فتتهيأ لقبول الحق في رمضان ذلك على تفاوت في استعدادها وكم كان مثل هذا الانتهاز سببا في إيمان قلوب قاسي، فإذا أظهر الله الآيات على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم لتأييد صدقه شفع ذلك بإعادة التذكير كما قال تعالى ﴿وما نرسل بالآيات إلا تخويفا﴾ [الإسراء: ٥٩].

وجمهور المفسرين على أن هذه الآية نزلت شاهدة على المشركين بظهور آية كبرى ومعجزة من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم وهي معجزة انشقاق القمر. ففي صحيح البخاري و." (١)

"إهلاكهم، فالأجدر تحذير الحاضرين من سوء أعمالهم.

و ﴿الزبر﴾ : جمع زبور وهو الكتاب مشتق من الزبر، وهو الكتابة، وجمعت الزبر لأن لكل واحد كتاب أعماله، قال تعالى ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا اقرأ كتابك﴾ [الإسراء: ١٣،١٤] الآية.

وعموم ﴿وكل شيء فعلوه﴾ مراد به خصوص ما كان من الأفعال عليه مؤاخذة في الآخرة.

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ١٦٢/٢٧

[٥٣] ﴿وكل صغير وكبير مستطر﴾ .
هذا كالتذييل لقوله: ﴿وكل شيء فعلوه في الزبر﴾ [القمر:٥٢] فكل صغير وكبير أعم من كل شيء فعلوه، والمعنى: كل شيء حقير أو عظيم مستطر، أي مكتوب مسطور، أي في علم الله تعالى، أي كل ذلك يعلمه الله ويحاسب عليه، فمستطر: اسم مفعول من سطر إذا كتب سطورا قال تعالى ﴿وكتاب مسطور﴾ [الطور:٢].
وهذا كقوله تعالى ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ الأنعام: ٥٩] وقوله: ﴿لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾ [سبأ:٣].
فالصغير: مستعار للشيء الذي لا شأن له ولا يهتم به الناس ولا يؤاخذ عليه فاعله، أو لا يؤاخذ عليه مؤاخذة عظيمة. والكبير: مستعار لضده ويدخل في ذلك ما له شأن من الصلاح وما له شأن من الفساد وما هو دون ذلك، وذلك أفضل الأعمال الصالحة وما دونه من الأعمال الصالحة، وكذلك كبائر الإثم والفواحش وما دونها من اللمم والصغائر.
والمستطر: كناية عن علم الله به وذلك كناية عن الجزاء عليه مكان ذلك جامعا للتبشير والإنذار.
[٥٤،٥٥] ﴿إن المتقين في جنات ونهر [٥٤] في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾ .
استئناف بياني لأنه لما ذكر أن كل صغير وكبير مستطر على إرادة أنه معلوم ومجازا عليه وقد علم جزاء المجرمين من قوله: ﴿إن المجرمين في ضلال وسعر﴾ [القمر:٤٧] كانت نفس السامع بحيث تتشوف إلى مقابل ذلك من جزاء المتقين وجريا على عادة القرآن من." (١)
"وقوله: ﴿فبئس المصير﴾ تفريع على الوعيد بشأن ذم جهنم.
[٩]﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالأثم والعدوان ومعصيت الرسول وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذي إليه تحشرون﴾.
خطاب للمنافقين الذين يظهرون الإيمان فعاملهم الله بما أظهروه وناداهم بوصف الذين آمنوا كما قال: ﴿من الذين قالوا آمنا بأفواههم لم تؤمن قلوبهم﴾ [المائدة: ٤١] ومنه ما حكاه الله عن المشركين ﴿وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾ [الحجر:٦] أي يا أيها الذي نزل عليه الذكر بزعمه، ونبههم إلى تدارك حالهم بالإقلاع عن آثار النفاق على عادة القرآن من تعقيب التخويف بالترغيب. فالجملة

---
(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٢١١/٢٧

استئناف ابتدائي.

ذلك أن المنافقين كانوا يعملون بعمل أهل الإيمان إذا لقوا الذين آمنوا فإذا رجعوا إلى قومهم غلب عليهم الكفر فكانوا في بعض أحوالهم مقاربين الإيمان بسبب مخالطتهم للمؤمنين. ولذلك ضرب الله لهم مثلا بالنور في قوله تعالى: ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم﴾ [البقرة: ١٧] ثم قوله: ﴿كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا﴾ [البقرة: ٢٠]. وهذا هو المناسب لقوله تعالى: ﴿فلا تتناجوا بالأثم والعدوان ومعصيت الرسول﴾ ، ويكون قوله: ﴿وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا﴾ تنبيها على ما يجب عليهم إن كانوا متناجين لا محالة.

ويجوز أن تكون خطابا للمؤمنين الخلص بأن وجه الله الخطاب إليهم تعليما لهم بما يحسن من التناجي وما يقبح منه بمناسبة ذم تناجي المنافقين فلذلك ابتدئ بالنهي عن مثل تناجي المنافقين وإن كان لا يصدر مثله من المؤمنين تعريضا بالمنافقين، مثل قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم﴾ [آل عمران: ١٥٦] ويكون المقصود من الكلام هو قوله: ﴿تناجوا بالبر والتقوى﴾ تعليما للمؤمنين. والتقييد بـ ﴿إذا تناجيتم﴾ يشير إلى أنه لا ينبغي التناجي مطلقا ولكنهم لما اعتادوا التناجي حذروا من غوائله، وإلا فإن التقييد مستغنى عنه بقوله: لا تتناجوا بالإثم والعدوان وهذا مثل ما وقع حديث النهي عن الجلوس في الطرقات من قوله صلى الله عليه سلم: "فإن كنتم فاعلين لا محالة فاحفظوا حق الطرقات" وقرأ الجمهور ﴿فلا تتناجوا﴾ بصيغة التفاعل. وقرأه رويس عن يعقوب وحده ﴿فلا." (١)

"أخرج الترمذي عن ابن عباس أن رجلا سأله عن هذه الآية فقال: هؤلاء رجال من أهل مكة أسلموا وأرادوا أن يأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم، فلما أتوا النبي صلى الله عليه وسلم أي بعد مدة وجاء معهم أزواجهم وأولادهم ورأوا الناس قد فقهوا في الدين أي سبقوهم بالفقه في الدين لتأخر هؤلاء عن الهجرة فهموا أن يعاقبوهم على ما تسببوا لهم حتى سبقهم الناس إلى الفقه في الدين فأنزل الله هذه الآية أي حتى قوله: ﴿وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم﴾ . وهو الذي اقتصر عليه الواحدي في أسباب النزول ومقتضاه أن الآية مدنية.

وعن عطاء بن يسار وابن عباس أيضا أن هذه الآية نزلت بالمدينة في شأن عوف بن مالك الأشجعي كان ذا أهل وولد فكان إذا أراد الغزو بكوا إليه ورققوه وقالوا: إلى من تدعنا، فيرق لهم فيقعد عن الغزو. وشكا

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٣٠/٢٨

ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية في شأنهم. فهذه الآية مستأنفة استئنافا ابتدائيا ويكون موقعها هذا سبب نزولها صادف أن كان عقب ما نزل قبلها من هذه السورة.

والمناسبة بينها وبين الآية التي قبلها لأن كلتيهما تسلية على ما أصاب المؤمنين من غم من معاملة أعدائهم إياهم ومن انحراف بعض أزواجهم وأولادهم عليهم.

وإذا كانت السورة كلها مكية كما هو قول الضحاك كانت الآية ابتداء إقبال على تخصيص المؤمنين بالخطاب بعد قضاء حق الغرض الذي ابتدئت به السورة على **عادة القرآن** في تعقيب الأغراض بأضدادها من ترغيب أو ترهيب، وثناء أو ملام، أو نحو ذلك ليوفى الطرفان حقيهما، وكانت تنبيها للمسلمين لأحوال في عائلاتهم قد تخفى عليهم ليأخذوا حذرهم، وهذا هو المناسب لما قبل الهجرة كان المسلمون بمكة ممتزجين مع المشركين بوشائج النسب والصهر والولاء فلما ناصبهم المشركون العداء لمفارقتهم دينهم وأضمروا لهم الحقد وأصبحوا فريقين كان كل فريق غير خال من أفراد متفاوتين في المضادة تبعا للتفاوت في صلابة الدين، وفي أواصر القرابة والصهر، وقد بلغ العداء إلى نهاية طرفه فتندحض أمامه جميع الأواصر فيصبح الأشد قربا أشد مضرة على قريبه من مضرة البعيد.

فأيقظت هذه الآية المؤمنين لئلا يغرهم أهل قرابتهم فيما توهم من جانب غرورهم فيكون ضرهم أشد عليهم وفي هذا الإيقاظ مصلحة للدين وللمسلمين ولذلك قال تعالى: ﴿فاحذروهم﴾ ولم يأمر بأن يضروهم، وأعقبه بقوله: ﴿وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن." (١)

"ومعنى إقامة الشهادة: إيقاعها مستقيمة لا عوج فيها فالإقامة مستعارة لإيقاع الشهادة على مستوفيها ما يجب فيها شرعا مما دلت عليه أدلة الشريعة وهذه استعارة شائعة وتقدم عند قوله تعالى: ﴿وأقوم للشهادة﴾ في سورة البقرة[٢٨٢].

وقوله: ﴿لله﴾ ، أي لأجل الله وامتثال أمره لا لأجل المشهود له ولا لأجل المشهود عليه ولا لأجل منفعة الشاهد والإبقاء على راحته. وتقدم بعض هذا عند قوله تعالى: ﴿ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا﴾ في سورة البقرة[٢٨٢].

﴿ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ .

الإشارة إلى جميع ما تقدم من الأحكام التي فيها موعظة للمسلمين من قوله: ﴿وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم﴾ [الطلاق:١]، إلى قوله: ﴿وأقيموا الشهادة لله﴾ .

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٢٥٤/٢٨

والوعظ: التحذير مما يضر والتذكير الملين للقلوب وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله﴾في سورة البقرة:[٢٣٢] وعند قوله تعالى: : ﴿يعظكم الله أن تعودوا لمثله﴾ في سورة النور[١٧].

﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ .

اعتراض بين جملة ﴿وأقيموا الشهادة لله﴾ وجملة ﴿واللائي يئسن من المحيض﴾ [الطلاق:٤] الآية، فأن تلك الأحكام لما اعتبرت موعظة بقوله: ﴿ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ أعقب ذلك بقضية عامة، وهي أن تلك من تقوى الله تعالى وبما لتقوى الله من خير في الدنيا والآخرة على **عادة القرآن** من تعقيب الموعظة والترهيب بالبشارة والترغيب.

ولما كان أمر الطلاق غير حال من حرج وغم يعرض للزوجين وأمر المراجعة لا يخلو في بعض أحواله من تحمل أحدهما لبعض الكره من الأحوال التي سببت الطلاق، أعلمهما الله بأنه وعد المتقين الواقفين عند حدوده أن يجعل لهم مخرجا من الضائقات شبه ما هم فيه من الحرج بالمكان المغلق على الحال فيه وشبه ما يمنحهم الله به من اللطف وإجراء الأمور على ما يلائم أحوالهم بجعل منفذ في المكان المغلق بتخلص منه المتضائق فيه.

ففي الكلام استعارة أن إحداهما ضمنية مطوية والأخرى صريحة وشمل المخرج ما يحف من اللطف بالمتقين في الآخرة أيضا بتخليصهم من أهوال الحساب والانتظار." (١)

"والخيانة والخون ضد الأمانة وضد الوفاء، وذلك تفريط المرء ما أوتمن عليه وما عهد به إليه. وقد جمعها قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون﴾ [لأنفال:٢٧].

وانتصب ﴿شيئا﴾ على المفعولية المطلقة ﴿يغنيا﴾ لأن المعنى شيئا من الغنى، وتنكير ﴿شيئا﴾ للتحقير، أي عنى وأجحفه بله الغنى المهم، وتقدم في قوله تعالى: ﴿إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا﴾ في سورة الجاثية [١٩].

وزيادة ﴿مع الداخلين﴾ لإفادة مساواتها في العذاب لغيرهما من الكفرة الخونة. وذلك تأييس من أن ينتفعا من حظوة زوجهما كقوله تعالى: ﴿ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون﴾ [الأنعام:٢٢].

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٢٨/٢٧٩

[١١] ﴿وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأت فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين﴾ .

لما ضرب المثل ﴿للذين كفروا﴾ [الممتحنة: ١٠] أعقب بضرب مثل للذين آمنوا لتحصل المقابلة فيتضح مقصود المثلين معا، وجريا على **عادة القرآن** في إتباع الترهيب بالترغيب.

وجعل المثل للذين آمنوا بحال امرأتين لتحصل المقابلة للمثلين السابقين، فهذا مراعاة النظير في المثلين.

وجاء أحد المثلين للذين آمنوا لإخلاص الإيمان. والمثل الثاني لشدة التقوى.

فكانت امرأة فرعون مثلا لمتانة المؤمنين ومريم مثلا للقانتين لأن المؤمنين تبرأوا من ذوي قرابتهم الذي بقوا على الكفر بمكة.

وامرأة فرعون هذه هي امرأة فرعون الذي أرسل إليه موسى وهو منفطح الثالث وليست امرأة فرعون التي تبنت موسى حين التقطته من اليم، لأن ذلك وقع في زمن فرعون رعمسيس الثاني وكان بين الزمنين ثمانون سنة. ولم يكن عندهم علم بدين قبي أي يرسل إليهم موسى.

ولعل امرأة فرعون هذه كانت من بنات إسرائيل تزوجها فرعون فكانت مؤمنة برسالة موسى عليه السلام. وقد حكى بعض المفسرين أنها عمة موسى أو تكون هداها الله إلى الإيمان كما هدى الرجل المؤمن من آل فرعون الذي تقدم ذكره في سورة غافر.." (١)

"فلما جاءوا جنتهم وجدوها مسودة قد أصابها ما يشبه الاحتراق فلما رأوها بتلك الحالة علموا أن ذلك أصابهم دون غيرهم لعزمهم على قطع ما كان ينتفع به الضعفاء من قومهم وأنابوا إلى الله رجاء أن يعطيهم خيرا منها.

قيل: كانت هذه الجنة من أعناب.

والصرم: قطع الثمرة وجذاذها.

ومعنى ﴿مصبحين﴾ داخلين في الصباح أي في أوائل الفجر.

ومعنى ﴿لا يستثنون﴾ : أنهم لا يستثنون من الثمرة شيئا للمساكين، أي أقسموا ليصرمن جميع الثمر ولا يتركون منه شيئا. وهذا التعميم مستفاد مما في الصرم من معنى الخزن والانتفاع بالثمرة وإلا فإن الصرم لا ينافي إعطاء شيء من المجذوذ لمن يريدون. وأجمل ذلك اعتمادا على ما هو معلوم للسامعين من تفصيل هذه القصة على **عادة القرآن** في إيجاز حكاية القصص بالاقتصار على موضع العبرة منها.

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٣٣٧/٢٨

وقيل معناه: ﴿لا يستثنون﴾ لإيمانهم بأن يقولوا إن شاء الله كما قال تعالى: ﴿ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا، إلا أن يشاء الله﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤]. ووجه تسميته استثناء أن أصل صيغته فيها حرف الاستثناء وهو "إلا"، فإذا اقتصر أحد على "إن شاء الله" دون حرف الاستثناء أطلق على قوله ذلك استثناء لأنه على تقدير: إلا أن يشاء الله. على أنه لما كان الشرط يؤول إلى معنى الاستثناء أطلق عليه استثناء نظرا إلى المعنى وإلى مادة اشتقاق الاستثناء.

وعلى هذا التفسير يكون قوله: ﴿ولا يستثنون﴾ من قبيل الإدماج، أي لمبلغ غرورهم بقوة أنفسهم صاروا إذا زعموا على فعل شيء لا يتوقعون له عائقا. والجملة في موضع الحال، والتعبير بالفعل المضارع لاستحضار حالتهم العجيبة من بخلهم على الفقراء والأيتام.

وعلى الروايات كلها يعلم أن أهل هذه الجنة لم يكونوا كفارا، فوجه الشبه بينهم وبين المشركين المضروب لهم هذا المثل هو بطر النعمة والاغترار بالقوة.

وقوله: ﴿فطاف عليها طائف من ربك﴾ ، الطواف: المشي حول شيء من كل جوانبه يقال: طاف بالكعبة، وأريد هنا تمثيل حالة الإصابة لشيء كله بحال من يطوف بمكان، قال تعالى: ﴿إذا مسهم طائف من الشيطان﴾ الآية [لأعراف: ٢٠١].." (١)

"و ﴿الشر﴾ : الأذى مثل المرض والفقر.

و ﴿الخير﴾ : ما ينفع الإنسان ويلائم رغباته مثل الصحة والغنى.

و ﴿الجزوع﴾ : الشديد الجزع، والجزع: ضد الصبر.

و ﴿المنوع﴾ : الكثير المنع، أي شديد المنع لبذل شيء مما عنده من الخير.

و ﴿إذا﴾ في الموضعين ظرفان يتعلقان كل واحد بما اتصل به من وصفي ﴿جزوعا﴾ و ﴿منوعا﴾ .

[٢٢-٣٥] ﴿إلا المصلين، الذين هم على صلاتهم دائمون، والذين في أموالهم حق معلوم، للسائل والمحروم، والذين يصدقون بيوم الدين، والذين هم من عذاب ربهم مشفقون، إن عذاب ربهم غير مأمون، والذين هم لفروجهم حافظون، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون، والذين هم بشهاداتهم قائمون، والذين هم على صلاتهم يحافظون، أولئك في جنات مكرمون﴾ .

استثناء منقطع ناشئ عن الوعيد المبتدأ، من قوله: ﴿يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ﴾ [المعارج:١١]

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٧٦/٢٩

الآية.

فالمعنى على الاستدراك، والتقدير: لكن المصلين الموصوفين بكيت وكيت أولئك في جنات مكرمون.

فجملة ﴿أولئك في جنات مكرمون﴾ حيث وقعت بعد ﴿إلا﴾ المنقطعة وهي بمعنى "لكن" فلها حكم الجملة المخبر بها عن اسم "لكن" المشددة أو عن المبتدأ الواقع بعد "لكن" المخففة وهو ما حققه الدماميني، وإن كان ابن هشام رأى عد الجملة بعد الاستثناء المنقطع في عداد الجمل التي لا محل لها من الإعراب.

والكلام استئناف بياني لمقابلة أحوال المؤمنين بأحوال الكافرين، ووعدهم بوعيدهم على **عادة القرآن** في أمثال هذه المقابلة.

وهذه صفات ثمان هي من أشعار المسلمين، فعدل عن إحضارهم بوصف المسلمين إلى تعداد خصال من خصالهم إطنابا في الثناء عليهم لأن مقام الثناء مقام إطناب، وتنبيها." (١)

"الأمر بالصدقة والإكثار منها بطريق الكناية فكأنه قال: وتصدق وأكثر من الصدقة ولا تمنن، أي لا تعد ما عطيته كثيرا فتمسك عن الازدياد فيه، أو تتطرق إليك ندامة على ما أعطيت.

والسين والتاء في قوله: ﴿تستكثر﴾ للعد، أي بعد ما أعطيته كثيرا.

وهذا من بديع التأكيد لحصول المأمور به جعلت الصدقة كالحاصلة، أي لأنها من خلقه صلى الله عليه وسلم إذ كان أجود الناس وقد عرف بذلك من قبل رسالته لأن الله هيأه لمكارم الأخلاق فقد قالت له خديجة في حديث بدء الوحي "إنك تحمل الكل وتكسب المعدوم". ففي هذه الآية إيماء إلى التصديق، كما كان فيها إيماء إلى الصلاة، ومن **عادة القرآن** الجمع بين الصلاة والزكاة.

والمن: تذكير المنعم المنعم عليه بإنعامه.

والاستكثار: عد الشيء كثيرا، أي لا تستعظم ما تعطيه.

وهذا النهي يفيد تعميم كل استكثار كيفما كان ما يعطيه من الكثرة. وللأسبقين من المفسرين تفسيرات لمعناه ﴿ولا تمنن تستكثر﴾ ليس شيء منها بمناسب، وقد أنهاها القرطبي إلى حد عشر.

و ﴿تستكثر﴾ جملة في وضع في موضع الحال من ضمير ﴿تمنن﴾ وهي حال مقدورة.

[٧] ﴿ولربك فاصبر﴾ .

تثبيت للنبي صلى الله عليه وسلم على ما تحمل ما يلقاه من أذى المشركين وعلى مشاق الدعوة.

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٢٩/١٥٨

والصبر: ثبات النفس وتحملها المشاق والآلام ونحوها.
ومصدر الصبر وما يشتق منه يتضمن معنى التحمل للشيء الشاق.
ويعدى فعل الصبر إلى اسم الذي يتحمله الصابر بحرف "على"، يقال: صبر على الأذى. ويتضمن معنى الخضوع للشيء الشاق فيعدي إلى اسم ما يتحمله الصابر باللام. ومناسبة المقام ترجح إحدى التعديتين، فلا يقال: اصبر على الله، ويقال: اصبر على حكم الله، أو لحكم الله. فيجوز أن تكون اللام في قوله: ﴿لربك﴾ لتعدية فعل الصبر على تقدير مضاف. أي اصبر لأمره وتكاليف وحيه كما قال ﴿واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا﴾ في." (١)

"عذاب يكون حاصلا لهم كما في قوله تعالى: ﴿زدناهم عذابا فوق العذاب﴾ [النحل:٨٨].
ويجوز أن تكون زيادة من نوع ما هم فيه من العذاب بتكريره في المستقبل.
والمعنى: فسنزيدكم عذابا زيادة مستمرة في أزمنة المستقبل، فصيغ التعبير عن هذا المعنى بهذا التركيب الدقيق، إذ أبتدئ بنفي الزيادة بحرف تأبيد النفي وأردف الاستثناء المقتضي ثبوت نقيض حكم المستثنى منه للمستثنى فصارت دلالة الاستثناء على معنى: سنزيدكم عذابا مؤبدا. وهذا من تأكيد الشيء بما يشبه ضده وهو أسلوب طريف من التأكيد إذ ليس فيه إعادة لفظ فإن زيادة العذاب تأكيد للعذاب الحاصل.
ولما كان المقصود الوعيد بزيادة العذاب في المستقبل جيء في أسلوب نفيه بحرف نفي المستقبل، وهو"لن" المفيد تأكيد النسبة المنفية وهي ما دل عليه مجموع النفي والاستثناء، فإن قيد تأبيد نفي الزيادة الذي يفيده حرف "لن" في جانب المستثنى منه يسري إلى إثبات زيادة العذاب في جانب المستثنى، فيكون معنى جملة الاستثناء: سنزيدكم عذابا أبدا، وهو معنى الخلود في العذاب. وفي هذا الأسلوب ابتداء مطمع بانتهاء مؤيس وذلك أشد حزنا وغما بما يوهمهم أن ما ألقوا فيه هو منتهى التعذيب حتى إذا ولج ذلك أسماعهم فحزنوا له أتبع بأنهم ينتظرهم عذاب آخر أشد، فكان ذلك حزنا فوق حزن، فهذا منوال هذا النظم وهو مؤذن بشدة الغضب.
وعن عبد الله بن عمرو بن العاص وأبي برزة الأسلمي وأبي هريرة: أن هذه الآية أشد ما نزل في أهل النار، وقد أسند هذا إلى النبي صلى الله عليه وسلم من حديث عن أبي برزة الأسلمي. سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن أشد آية في كتاب الله على أهل النار؟ فقال: "قول الله تعالى ﴿فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا﴾ " . وفي سنده جسر بن فرقد وهو ضعيف جدا.

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٢٩/٢٧٨

وفي ابن عطية: أن أبا هريرة رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يذكر أبن عطية سنده، وتعدد طرقه يكسبه قوة.

[٣١-٣٦] ﴿إن للمتقين مفازا، حدائق وأعنابا، وكواعب أترابا، وكأسا دهاقا، لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا، جزاء من ربك عطاء حسابا﴾ .

جرى هذا الانتقال على عادة القرآن في تعقيب الإنذار للمنذرين بتبشير من هم أهل للتبشير.." (١)

"وقال ﴿ما أغنى عني ماليه﴾ [الحاقة:٢٨]. وقد استعمل هنا في معنى الإشغال والإشغال أعم.

فاستعمل الإغناء الذي هو نفع في معنى الإشغال الأعم على وجه المجاز المرسل أو الاستعارة إيماء إلى أن المؤمنين يشغلهم عن قرابتهم المشركين فرط النعيم ورفع الدرجات كما دل عليه قوله عقبه ﴿وجوه يومئذ مسفرة﴾ إلى آخر السورة.

وجملة ﴿وجوه يومئذ مسفرة﴾ جواب "إذا" أي إذا جاءت الصاخة كان الناس صنفين صنف وجوههم مسفرة وصنف وجوههم مغبرة.

وقدم هنا ذكر وجوه أهل النعيم على وجوه أهل الجحيم خلاف قوله في سورة النازعات [٣٧] ﴿فأما من طغى﴾ ثم قوله: ﴿وأما من خاف مقام ربه﴾ [النازعات:٤٠] إلى آخره لأن هذه السورة أقيمت على عماد التنويه بشأن رجل من أفاضل المؤمنين والتحقير لشأن عظيم من صناديد المشركين فكان حظ الفريقين مقصودا مسوقا إليه الكلام وكان حظ المؤمنين هو الملتفت إليه ابتداء، وذلك في قوله: ﴿وما يدريك لعله يزكى﴾ [عبس:٣] إلى لآخره، ثم قوله: ﴿أما من استغنى فأنت له تصدى﴾ [عبس: ٥-٦].

وأما سورة النازعات فقد بنيت على تهديد المنكرين للبعث ابتداء من قوله: ﴿يوم ترجف الراجفة، تتبعها الرادفة، قلوب يومئذ واجفة﴾ [النازعات:٦-٨] فكان السياق للتهديد والوعيد وتهويل ما يلقونه يوم الحشر، وأما ذكر حظ المؤمنين يومئذ فقد دعا إلى ذكره الاستطراد على عادة القرآن من تعقيب الترهيب بالترغيب.

وتنكير ﴿وجوه﴾ الأول والثاني للتنويع، وذلك مسوغ وقوعهما مبتدأ.

وإعادة ﴿يومئذ﴾ لتأكيد الربط بين الشرط وجوابه ولطول الفصل بينهما والتقدير: وجوه مسفرة يوم يفر المرء من أخيه إلى آخره.

وقد أغنت إعادة ﴿يومئذ﴾ عن ربط الجواب بالفاء.

والمسفرة ذات الإسفار، والإسفار النور والضياء، يقال: أسفر الصبح، إذا ظهر ضوء الشمس في أفق الفجر،

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٣٨/٣٠

أي وجوه متهللة فرحا وعليها أثر النعيم.

و ﴿ضاحكة﴾ أي كناية عن السرور.

و ﴿مستبشرة﴾ معناه فرحة، والسين والتاء فيه للمبالغة مثل: استجاب، ويقال: بشر،." (١)

"ردع وإبطال لما تضمنه ما يقال لهم ﴿هذا الذي كنتم به تكذبون﴾ [المطففين:١٧] فيجوز أن تكون كلمة ﴿كلا﴾ مما قيل لهم مع جملة ﴿هذا الذي كنتم به تكذبون﴾ ردعا لهم فهي من المحكى بالقول.

ويجوز أن تكون معترضة من كلام الله في القرآن ابطالا لتكذيبهم المذكور.

﴿إن كتاب الأبرار لفي عليين، وما أدراك ما عليون، كتاب مرقوم، يشهده المقربون﴾ .

يظهر أن هذه الآيات المنتهية بقوله: ﴿يشهده المقربون﴾ من الحكاية وليست من الكلام المحكي بقوله: ﴿ثم يقال﴾ الخ، فإن هذه الجملة بحذافرها تشبه جملة ﴿إن كتاب الفجار لفي سجين﴾ [المطففين:٧] الخ أسلوبا ومقابلة. فالوجه أن يكون مضمونها قسيما لمضمون شبيهها فتحصل مقابلة وعيد الفجار بوعد الأبرار ومن عادة القرآن تعقيب الإنذار بالتبشير والعكس لأن الناس راهب وراغب فالتعرض لنعيم الأبرار إدماج اقتضته المناسبة وإن كان المقام من أول السورة مقام إنذار.

ويكون المتكلم بالوعد والوعيد واحدا وجه كلامه للفجار الذين لا يظنون أنهم مبعوثون، وأعقبه بتوجيه بكلام للأبرار الذين هم بضد ذلك، فتكون هذه الآيات معترضة متصلة بحرف الردع على أوضح الوجهين المتقدمين فيه.

ويجوز أن تكون من المحكي بالقول في ﴿ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون﴾ [المطففين:١٧] فتكون محكية بالقول المذكور متصلة بالجملة التي قبلها وبحرف الإبطال على أن يكون القائلون لهم ﴿هذا الذي كنتم به تكذبون﴾ على وجه التوبيخ، أعقبوا توبيخهم بوصف نعيم المؤمنين بالبعث تنديما للذين أنكروه وتحسيرا لهم على ما أفاتوه من الخبر.

والأبرار: جمع بر بفتح الباء، وهو الذي يعمل البر، وتقدم في السورة التي قبل هذه.

والقول في الكتاب ومظروفيته في عليين، كالقول في ﴿إن كتاب الفجار لفي سجين﴾ [المطففين:٧].

وعليون: جمع علي، وعلي على وزن فعيل من العلو، وهو زنة مبالغة في الوصف جاء على صورة جمع المذكر السالم وهو من الأسماء التي ألحقت بجمع المذكر السالم على غير قياس.." (٢)

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ١٢١/٣٠

(٢) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ١٨٠/٣٠

"ويجوز أن يراد بالثاني مضاعفة العذاب لهم كقوله تعالى: ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب﴾ [النحل:٨٨].

ويجوز أن يراد بعذاب الحريق حريق بغير جهنم وهو ما يضرم عليهم من نار تعذيب قبل يوم الحساب كما جاء في الحديث "القبر حفرة من حفر جهنم أو روضة من رياض الجنة" رواه البيهقي في سننه عن ابن عمر.

[١١] ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير﴾ .

يجوز أن يكون استئنافا بيانيا ناشئا عن قوله: ﴿ثم لم يتوبوا﴾ المقتضى أنهم إن تابوا لم يكن لهم عذاب جهنم فيتشوف السامع إلى معرفة حالهم أمقصورة على السلامة من عذاب جهنم أو هي فوق ذلك فأخبر بأن لهم جنات فإن التوبة الإيمان، فلذلك جيء بصلة ﴿آمنوا﴾ دون: تابوا، ليدل على أن الإيمان والعمل الصالح هو التوبة من الشرك الباعث على فتن المؤمنين، وهذا الاستئناف وقع معترضا.

ويجوز أن يكون اعتراضا بين جملة ﴿إن الذين فتنوا المؤمنين﴾ [البروج:١٠] وجملة ﴿إن بطش ربك لشديد﴾ [البروج:١٢] اعتراضا بالبشارة في خلال الإنذار لترغيب المنذرين في الإيمان، ولتثبيت المؤمنين على ما يلاقونه من أذى المشركين على عادة القرآن في إرداف الإرهاب بالترغيب.

والتأكيد ب ﴿إن﴾ للاهتمام بالخبر.

والإشارة في ﴿ذلك﴾ إلى المذكور من اختصاصهم بالجنات والأنهار.

و ﴿الكبير﴾ : مستعار للشديد في بابه، والفوز: مصدر.

[١٢] ﴿إن بطش ربك لشديد﴾ .

جملة ﴿إن بطش ربك لشديد﴾ علة لمضمون قوله: ﴿إن الذين فتنوا المؤمنين﴾ إلى قوله: ﴿ولهم عذاب الحريق ﴾ [البروج:١٠]، أي لأن بطش الله شديد على الذين فتنوا الذين آمنوا به. فموقع ﴿إن﴾ في التعليل يغني عن فاء التسبب.

وبطش اله يشمل تعذيبه إياهم في جهنم ويشمل ما قبله مما يقع في الآخرة وما يقع." (١)

"والوثاق بفتح الواو اسم مصدر أوثق وهو الربط ويجعل للأسير والمقود إلى القتل. فيجعل لأهل النار وثاق يساقون به إلى النار قال تعالى: ﴿إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم﴾ [غافر:٧١-٧٢] الآية.

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٢٢١/٣٠

وانتصاب ﴿وثاقه﴾ كانتصاب ﴿عذابه﴾ على المفعولية المطلقة لمعنى التشبيه.

[٢٧-٣٠] ﴿يا أيتها النفس المطمئنة، ارجعي إلى ربك راضية مرضية، فادخلي في عبادي، وادخلي جنتي﴾ .

لما استوعب ما اقتضاه المقام من الوعيد والتهديد والإنذار ختم الكلام بالبشارة للمؤمنين الذين تذكروا بالقرآن واتبعوا هديه على **عادة القرآن** في تعقيب النذارة بالبشارة والعكس فإن ذلك يزيد رغبة الناس في فعل الخير ورهبتهم من أفعال الشر.

واتصال هذه الآية بالآيات التي قبلها في التلاوة وكتابة المصحف الأصل فيه أن تكون نزلت مع الآيات التي قبلها في نسق واحد. وذلك يقتضي أن هذا الكلام يقال في الآخرة. فيجوز أن يقال يوم الجزاء فهو مقول قول محذوف هو جواب "إذا" ﴿إذا دكت الأرض﴾ [الفجر:٢١] الآية وما بينهما مستطرد واعتراض.

فهذا قول يصدر يوم القيامة من جانب القدس من كلام الله تعالى أو من كلام الملائكة: فإن كان من كلام الله تعالى كان قوله: ﴿إلى ربك﴾ إظهارا في مقام الإضمار بقرينة تفريع ﴿فادخلي في عبادي﴾ عليه. ونكتة هذا الإظهار ما في وصف ﴿رب﴾ من الولاء والاختصاص، وما في إضافته إلى ضمير النفس المخاطبة من التشريف لها.

وإن كان من قول الملائكة فلفظ ﴿ربك﴾ جرى على مقتضى الظاهر، وعطف ﴿فادخلي في عبادي﴾ عطف تلقين بصدر من كلام الله تعالى تحقيقا لقول الملائكة ﴿ارجعي إلى ربك﴾ .

والرجوع: إلى الله مستعار للكون في نعيم الجنة التي هي دار الكرامة عند الله بمنزلة دار المضيف قال تعالى: ﴿في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾ [القمر:٥٥] بحيث شبهت الجنة بمنزل للنفس المخاطبة لأنها استحقته بوعد الله على أعمالها الصالحة فكأنها كانت مغتربة عنه في الدنيا فقيل لها: ارجعي إليه، وهذا الرجوع خاص غير مطلق الحلول في الآخرة.." (١)

"تركوا الهمز في النبي كما تركوه في الدرية والبرية إلا أهل مكة فإنهم يهمزونها ويخالفون العرب في ذلك.

[٧-٨] ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية، جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه﴾ .

﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية، جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٣٠١/٣٠

الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ .

قوبل حال الكفرة من أهل الكتاب وحال المشركين بحال الذين منوا بعد أن أشير إليهم بقوله: ﴿وذلك دين القيمة﴾ [البينة:٥]، استيعابا لأحوال الفرق في الدنيا والآخرة وجريا على **عادة القرآن** في تعقيب نذارة المنذرين ببشارة المطمئنين وما ترتب على ذلك من الثناء عليهم، وقدم الثناء عليهم على بشارتهم على عكس نظم الكلام المتقدم في ضدهم ليكون ذكر وعدهم كالشكر لهم على إيمانهم و أعمالهم فإن الله شكور.

والجملة استئناف بياني ناشئ عن تكرر ذكر الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فإن ذلك يثير في نفوس الذين آمنوا من أهل الكتاب والمشركين تساؤلا عن حالهم لعل تأخر إيمانهم إلى ما بعد نزول الآيات في التنديد عليهم يجعلهم في انحطاط درجة، فجاءت هذه الآية مبينة أن من آمن منهم هو معدود في خير البريئة.

والقول في اسم الإشارة ، وضمير الفصل والقصر وهمزة البريئة كالقول في نظيره المتقدم.

واسم الإشارة والجملة المخبر بها عنه جميعها خبر عن اسم ﴿إن﴾ .

وجملة ﴿جزاؤهم عند ربهم جنات عدن﴾ إلى آخرها مبينة لجملة ﴿أولئك هم خير البرية﴾ .

و ﴿عند ربهم﴾ ظرف وقع اعتراضا بين ﴿جزاؤهم﴾ ، وبين ﴿جنات عدن﴾ للتنويه بعظم الجزاء بأنه مدخر لهم عند ربهم تكرمة لهم لما في ﴿عند﴾ من الإيماء إلى الحظوة والعناية، وما في لفظ ربهم من الإيماء إلى إجزال الجزاء بما يناسب عظم المضاف إليه ﴿عند﴾ ، وما يناسب شأن من يرب أن يبلغ بمربوبه عظيم الإحسان.." (١)

" صفحة رقم ٨٢

المقصود مما قبله على **عادة القرآن** في الترقي من العالي إلى الأعلى فساق سبحانه ابتداء الخلق الذي هو من أعظم الأدلة على وحدانيته مساق الإنعام على عباده بما فيه من منافعهم ليكون داعيا إلى توحيده من وجهين : كونه دالا على عظمة مؤثرة وكمال قدرته ، وكونه إحسانا إلى عباده ولطفا بهم ، وقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها فقال : (هو (، قال الحرالي : وهي كلمة مدلولها العلي غيب الإلهية القائم بكل شيء الذي لا يظهر لشيء ، فذاته أبدا غيب ، وظاهره الأسماء المظهرة من علو إحاطة اسم الله إلى تنزل اسم الملك ، فما بينهما من الأسماء المظهرة ، ثم قال : لما انتهى الخطاب بذكر إرجاعهم إلى الله

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٤٢٨/٣٠

وكان هذا خطابا خاصا مع المتمادي على كفره اتبع عند إعراضه وإدباره بهذا الحتم تهديدا رمى به بين أكتافهم وتسبيبا نيط بهم ومد لهم كالمرخى له في السبب الذي يراد أن يجذب به ، إما بأن يتداركه لطف فيرجع عليه طوعا ، أو يراد به قسرا عند انتهاء مدى إدباره ، وانتظم به ختم آية الدعوة بنحو من ابتدائها ، إلا أن هذه على نهاية الاقتطاع بين طرفيها وتلك على أظهر الاتساق ؛ فابعدوا في هذه كل البعد بإسناد الأمر إلى اسم هو الذي هو غيب اسم الله وأسند إليه خلق ما خلق لهم في الأرض الذي هو أظهر شيء للحس - انتهى .

) الذي خلق لكم (دينا ودنيا لطفا بكم) ما في الأرض) أي بعد أن سواهن سبعا ، قال الحرالي : وقوله : (جميعا (إعلان بأن حاجة الإنسان لا تقوم بشيء دون شيء وإنما تقوم بكلية ما في الأرض حتى لو بطل منها شيء تداعى سائرها - انتهى .

والآية دليل على أن الأصل في الأشياء الإباحة ، فلا يمنع شيء إلا بدليل .

ولما كانت السماء أشرف من جهة العلو الذي لا يرام ، والجوهر البالغ في الأحكام ، والزينة البديعة النظام ، المبنية على المصالح الجسام ، وكثرة المنافع والأعلام ، عبر في أمرها بثم فقال : (ثم استوى إلى السماء) أي وشرف على ذلك جهة العلو بنفس الجهة والحسن والطهارة وكثرة المنافع ، ثم علق إرادته ومشيئته بتسويتها من غير أدنى عدول ونظر إلى غيرها ، وفخم أمرها بالإبهام ثم التفسير ، والإفراد الصالح لجهة العلو تنبيها على الشرف ، وللجنس الصالح للكثرة ، ولذلك أعاد الضمير جمعا ، فكان." (١)

" صفحة رقم ٦٧٤

ولما كان في قولهم (ما أنزل الله على بشر من شيء) صريح الكذب وتضمن تكذيبه - وحاشاه (صلى الله عليه وسلم) أما من اليهود فبالفعل ، وأما من قريش فبالرضى ، وكان بعض الكفرة قد ادعى الإيحاء إلى نفسه إرادة للطعن في القرآن ؛ قال تعالى مهولا لأمر الكذب لا سيما عليه لا سيما في أمر الوحي ، عاطفا على مقول طقل من أنزل (مبطلا للتنبؤ بعد تصحيح أمر الرسالة وإثباتها إثباتا لا مرية فيه ، فكانت براهين إثباتها أدلة على إبطال التنبؤ وكذب مدعيه : (ومن أظلم ممن افترى) أي بالفعل كاليهود والرضى كقريش) على الله كذبا) أي أي كذب كان ، فضلا عن إنكار الإنزال على البشر) أو قال أوحي إلي ولم) أي والحال أنه لم) يوح إليه شيء (فهذا تهديد على سبيل الإجمال كعادة القرآن المجيد ، يدخل فيه كل من اتصف بشيء من ذلك كمسيلمة والأسود العنسي وغيرهما ، ثم رأيت في كتاب غاية المقصود في الرد

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، المؤلف غير معروف ٨٢/١

عل النصارى واليهود للسموأل بن يحيى المغربي الذي كان من أجل علمائهم في حدود سنة ستين وخمسمائة ، ثم هداه الله للإسلام ، وكانت له يد طولى في الحساب والهندسة والطب وغير ذلك من العلوم ، فأظهر بعد إسلامه فضائحهم أن الربانيين منهم زعموا أن الله كان يوحي إلى جميعهم في كل يوم مرات ، ثم قال بعد أن قسمهم إلى قرائين وربانيين : إن الربانيين أكثرهم عددا ، وقال : وهم الذين يزعمون أن الله كان يخاطبهم في كل مسالة بالصواب ، قال : وهذه الطائفة أشد اليهود عداوة لغيرهم من الأمم) ومن قال سأنزل) أي بوعد لا خلف فيه) مثل ما أنزل الله (كالنضر بن الحارث ونحوه ولما كان الجواب قطعا في كل منصف : لا أحد أظلم منه ، بل هم أظلم الظالمين ، كان كأنه قيل : فلو رايتهم وقد حاق بهم جزاء هذا الظلم كرد وجوههم مسودة وهم يسحبون في السلاسل على وجوههم ، وجهنم تكاد تتميز عليهم غيظا ، وهم قد هدهم الندم ولحسرة ، وقطع بهم الأسف والحيرة لرأيت أمرا يهول منظره ، فكيف يكون مذاقه ومخبره فعطف عليه ما هو أقرب منه ، فقال كالمفصل لإجمال ذلك التهديد مبرزا بدل ضميرهم الوصف الذي أداهم إلى ذلك : (ولو ترى) أي يكون منك رؤية فيما هو دون ذلك) إذ الظالمون) أي لأجل مطلق الظلم فكيف بما ذكر منه واللام للجنس الداخل فيه هؤلاء دخولا أوليا) في غمرات الموت) أي شدائده التي قد غمرتهم كما يغمر البحر الخضم من يغرق فيه ، فهو يرفعه ويخفضه ويبتلعه ويلفظه ، لا بد له منه) والملائكة) أي الذين طلبوا جهلا منهم إنزال بعضهم على وجه الظهور لهم ، وأخبرناهم أنهم لا ينزلون إلا لفصل الأمور وإنجاز المقدور) باسطوا أيديهم) أي إليهم بالمكروه لنزع أرواحهم وسلها وافية من أشباحهم كما يسل السفود المشعب من الحديد." (١)

" صفحة رقم ٧٠٦

وخضوعا ، فعلى هذا إذا قال الذابح : بسم الله واسم محمد ، وأراد : أذبح باسم الله وأتبرك باسم محمد ، فينبغي أن لا يحرم ، وقول من قال : لا يجوز ذلك ، يمكن أن يحمل على أن اللفظ مكروه ، لأن المكروه يصح نفي الجواز والإباحة المطلقة عنه ، وحكى الرافعي أنه وقعت في هذا منازعة بين أهل قزوين أفضت إلى فتنة في أنه تحل ذبيحته وهل يكفر بذلك قال : والصواب ما بينا ؛ قال الشيخ محيي الدين : ومما يؤيد ما قاله – أي الرافعي – ما ذكره الشيخ إبراهيم المروزي في تعليقه : قال : حكى صاحب التقريب عن الشافعي رحمه الله أن النصراني إذا سمى غير الله كالمسيح لم تحل ذبيحته ، قال صاحب التقريب : معناه أن يذبحها له .

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، المؤلف غير معروف ٦٧٤/٢

فأما إن ذكر المسيح على معنى الصلاة على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فجائز ، قال : وقال الحليمي : تحل مطلقا وإن سمى المسيح – والله أعلم ، ثم قال في المسائل المنثورة : الثالثة : قال ابن كج : من ذبح شاة وقال : أذبح لرضى فلان ، حلت الذبيحة ، لأنه لا ينصرف إليه بخلاف من تقرب بالذبح إلى الصنم ؛ وقال الروياني : إن من ذبح للجن وقصد به التقرب إلى الله تعالى ليصرف شرهم عنه فهو حلال ، وإن قصد الذبح لهم فحرام ؛ ومما يوضح لك سر هذا الانتظام ويزيده حسنا أن هذه الآيات كلها من قوله تعالى

٧٧ ( ) إن الله فالق الحب والنوى ( ) ٧

[الأنعام : ١٠٠] إلى آخر السورة تفصيل لقوله تعالى في أول السورة

٧٧ ( ) قل أغير الله اتخذ وليا فاطر السماوات الأرض ( ) ٧

[الأنعام : ١٤] ، فلما ذكر إبداعه السماوات والأرض بقوله

٧٧ ( ) إن الله فالق الحب والنوى ( ) ٧

[الأنعام : ٩٥] ونحوه ، وأنكر اتخاذ من دونه بقوله

٧٧ ( ) وجعلوا لله شركاء الجن ( ) ٧

[الأنعام : ١٠٠] وما نحا نحوه ، قال

٧٧ ( ) فكلوا ( ) ٧

[الأنعام : ١١٨] إشارة إلى

٧٧ ( ) وهو يطعم ولا يطعم ( ) 7

[الأنعام : ١٤] وقوله

٧٧ ( ) و من كان ميتا فأحييناه ( ) ٧

[الأنعام : ١٢٢] وقوله

٧٧ ( ) فمن يرد الله أن يهديه ( ) ٧

[الأنعام : ١٢٥] ونحوهما إشارة إلى قوله

٧٧ ( ) قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ( ) ٧

[الأنعام : ١٤] ، وقوله

٧٧ ( ) ويوم نحشرهم جميعا ( ) ٧

[الأنعام : ٢٢] ونحوه مشير إلى
٧٧ ( ) إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ( ) ٧
[الأنعام : ١٥] .
ولما انقضى التفصيل عند قوله) فسوف يعلمون (شرع في تفصيلها ثانيا بقوله :
٧٧ ( ) وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ( ) ٧
[الأنعام : ١٣٦] إلى آخرها ، والسر في الإعادة أن الشيء إذا أثبت أو نفي ، وأقيمت الدلائل على إثبات ما ثبت منه ونفي ما نفي ، ثم أعيد ذلك في أسلوب آخر ، كان أثبت في النفس وألصق بالقلب ، لا سيما إن كان في الأسلوب الثاني – كما هي عادة القرآن – زيادة في البيان وتنبيه على ما لم يتقدم أولا ، ولا سيما إن كانت العبارة فائقة والألفاظ عذبة رائقة وأنت خبير بأن هذا كله دأب." (١)
" صفحة رقم ٣٩١
في الإصغاء والميل السمع) به (من الآذان والقلوب ، أو بسببه من إرادة الوقوع على سقطة يجعلونها موضع تكذيبهم واستهزائهم) إذ) أي حين) يستمعون) أي يصغون بجهدهم ، وبين بعدهم المعنوي بقوله تعالى : (إليك وإذ) أي وحين) وهم (دوو) نجوى) أي يتناجون بأن يرفع كل منهم سره على صاحبه بعد إعراضهم عن الاستماعك ثم ذكر ظرف النجوى فقال تعالى : (إذ يقول (مبرزا لضميرهم بالوصف الدال على حملهم على ما تناجوا به ، وهم) الظالمون (ومقولهم : (إن تتبعون) أي أيها التابعون له بغاية جهدكم) إلا رجلا محسورا (مختلط العقل ، فامتطوا في هذا الوصف ذروة الظلم ، وسيأتي في آخر السورة سر استعمال اسم المفعول موضع اسم الفاعل ؛ ثم وصل بذلك الدليل على نسبته سبحانه لهم إلى الجهل الذي كان نتيجة قولهم هذا فقال تعالى : (انظر (ولما كان أمرهم بما يزيد العجب منه وتتوفر الدواعي على السؤال عنه قال تعالى : (كيف ضربوا) أي هؤلاء الضلال) لك الأمثال (التي هي أبعد شيء عن صفتك من قولهم : ساحر وشاعر ومجنون ونحوه) فضلوا (عن الحق في جميع ذلك) فلا) أي فتسبب عن ذلالهم أنهم لا) يستطيعون سبيلا) أي يسلكون فيه ، إلى إصابة المحن في مثل ، أو إحكام الأمر في عمل ، وهذا بعد أن نهاهم الله بقوله تعالى
٧٧ ( ) فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون ( ) ٧
[النحل : ٧٤] فكأن هذا أول دليل على ما وصفناهم به من عدم الفهم والسمع فضلا عن أن يكون لهم

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، المؤلف غير معروف ٢/٦٠٦

إلى مقاومة هذا القرآن – الذي يدعون أنه قول البشر – سبيل أو يغيروا في وجهه بشبهة فضلا عن دليل .
ولما جرت عادة القرآن بإثبات التوحيد والنبوة والمعاد ، وقدم الدلالة على الأولين ، وختم جهلهم في النبوة مع ظهورهان أتبع ذلك أمرا جليا في ضلالهم عن السبيل في أمر المعاد وقرره غاية التقرير ، وحرره أتم تحرير ، فقال تعالى معجبا منهم : (وقالوا) أي المشركون المنكرون للتوحيد والنبوة والبعث مع اعترافهم بأنا ابتدأنا خلقهم ومشاهدتهم في كل وقت أنا نحيي الأرض بعد موتها : (أإذا (استفهاما إنكاريا كأنهم على ثقة من عدم ما ينكرونهن والعامل في) إذا (فعل من لفظ) مبعوثون (لا هو .
فإن ما بعد) إن (لا يعمل فيما قبلها .
فالمهنى : أنبعث إذا) كنا) أي بجملة أجسامنا كونا لازما) عظاما ورفاتا) أي حطاما مكسرا مفتتا وغبارا) إنا لمبعوثون (حال كوننا مخلوقين) خلقا جديدا (فكأنه قيل : فماذا يقال لهم في الجواب ؟ فقيل : (قل (لهم : لا تكونوا رفاتا ، بل) كونوا (ترابا ، بل كونوا أصلب التراب) حجارة) أي هي في غاية اليبس) أو حديدا (زاد على يبس الحجارة شدة اتصال الأجزاء) أو خلقا (غيرهما) مما يكبر) أي يعظم كبيرة) في صدوركم (."[1]

" صفحة رقم ٤٤٤
أو اعتقاده ، وما يتبع ذلك ، وذلك هو القيم ، أي المستقيم في نفسه ، المقيم لغيره .
ولما كان الغالب على الإنسان المخالفة للأوامر ، لما جبل عليه من النقائص ، كان الإنذار فأهم أعاده لذلك ولأن المقام له كما مضى ، ذاكرا فيه بعض المتعلق المحذوف من الآية التي قبلها ، تبكيتا لليهود المضلين لهؤلاء العرب ولمن قال بمقالتهم فقال تعالى : (وينذر (واقتصر هنا على المفعول الأول ليذهب الفكر في الثاني الذي عبر عما يحتمل تقديره به فيما مضى ب (لدنه) – كل مذهب فيكون أهول) الذين قالوا اتخذ الله) أي تكلف ذو العظمة التي لا تضاهي كما يتكلف غيره أن أخذ) ولدا (وهم بعض اليهود والنصارى والعرب ؛ قال الأصبهاني : وعادة القرآن جارية بأنه إذا ذكر قصة كلية عطف عليها بعض جزيئاتها تنبيها على كون ذلك لبعض أعظم جزيئات ذلك الكل ، ولم أجعل الآية من الاحتباك لنقص المعنى ، ثم استأنف معللا في جواب من كأنه قال : ما لهم خصوا به الوعيد الشديد ؟ فقال تعالى : (ما لهم به) أي القول) من علم (أصلا لأنه مما لا يمكن أن يعلق العلم به لأنه لا وجود له ولا يمكن وجوده ، ثم قرر هذا المعنى وأكد بقوله تعالى : (ولا لأبائهم (الذين هم مغتبطون بتقليدهم في الدين حتى في هذا

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، المؤلف غير معروف ٤/٣٩١

الذي لا يتخيله عاقل ، ولو أخطؤوا في تصرف دنيوي لمن يتبعوهم فيه ، تنبيها عل أنه لا يحل لأحد أن يقول على الله تعالى ما لا علم له به ، ولا سيما في أصول الدين ، ثم هول أمر ذلك بقوله تعالى : (كبرت) أي مقالتهم هذه) كلمة) أي ما أكبرها من كلمة وصور فظاعة اجترائهم على النطق بها بقوله تعالى : (تخرج من أفواههم) أي لم يكفهم خطورها في نفوسهم ، وترددها في صدورهم ، حتى تلفظوا بها ، وكان تلفظهم بها على وجه التكرير - بما أشار إليه التعبير بالمضارع ؛ ثم بين ما أفهمه الكلام من أنه كما أنهم لا علم لهم بذلك لا علم لأحد به أصلا ، لأنه لا وجود له فقال تعالى : (إن) أي ما) يقولون إلأا كذبا) أي قولا لا حقيقة له بوجه من الوجوه وقال ابن الزبير في برهانه : من الثابت المشهور أن قريشا بعثوا إلى اليهود بالمدينة يسألونهم في أمر رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فأجابت يهود بسؤاله عن ثلاثة أشياء ، قالوا : فإن أجابهم فهو نبي ، وإن عجز فالرجل متقول فرؤا فيه رأيكم ، وهي الروح ، وفتية ذهبوا في الدهر الأول وهم أهل الكهف ، وعن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، فأنزل الله عليه جواب ما سألوه ، وبعضه في سورة الإسراء

٧٧ ( ) ويسئلونك عن الروح ( ) ٧

[الإسراء : ٨٥] الآية ، واستفتح سبحانه وتعالى سورة الكهف." (١)

" صفحة رقم ٥٤

بالقدرة على البعث من خلق الخق والإنجاء من كل كرب ونحو ذلك ، أشار إليه بقوله : (بل) أي ليسوا بمنكرين لقدرته سبحانه ، بل) هم بلقاء ربهم (المحسن بالإيجاد والإبقاء مسخرا لهم كل ما ينفعهم في الآخرة للحساب أحياء سويين كما كانوا في الدنيا ، والإشارة بهذه الصفة إلى أنه لا يحسن بالمحسن أن ينغص إحسانه بترك القصاص من الظالم الكائن في القيامة) كافرون) أي منكرون للبعث عنادا ، ساترون لما في طباعهم من أدلته ، لما غلب عليهم من الهوى القائد لهم إلى أفعال منعهم من الرجوع عنها الكبر عن قبول الحق والأنفة من الإقرار بما يلزم منه نقص العقل .

السجدة : (١١ - ١٣) قل يتوفاكم ملك. .. . .

) قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ربنآ أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين (( )

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، المؤلف غير معروف ٤٤٤/٤

ولما ذكر استبعادهم ، وأتبعه عنادهم ، وكان إنكارهم إنما هو بسبب اختلاط الأجزاء بالتراب بعد إنقلابها ترابا ، فكان عندهم من المحال تمييزها من بقية التراب .

دل على أن ذلك عليه هين بأن نبهمم على ما هو مقرون به مما هو مثل ذلك بل أدق .

فقال مستأنفا : (قل) أي جوابا لهم عن شبهتهم : (يتوافكم) أي يقبض أوراحكم كاملة من أجسادكم بعد أن كانت مختلطة بجميع أجزاء البلدان ، لا تميز لأحدهما عن الآخر بوجه تعرفونه بنوع حيلة) ملك الموت (ثم أشار إلى أن فعله بقدرته ، وأن ذلك عليه في غاية السهولة ، ببناء الفعل لما لم يسم فاعله فقال : (الذي وكل بكم) أي وكله الخالق لكم بذلك ، وهو عبد من عبيده ، ففعل ما أمر به ، فإذا البدن ملقى لا روح في شيء منه وهو على حاله كاملا لا نقص في شيء منه يدعي الخلل بسببه ، فإذا كان هذا فعل عبد من عبيده صرفه في ذلك فقام به على ما ترونه مع أن ممازجة الروح للبدن أشد من ممازجة تراب البدن لبقية التراب لأنه ربما يستدل بعض الحذاق على بعض ذلك بنوع دليل من شم ونحوه ، فكيف يستبعد شيء من الأشياء على رب العالمين ، ومدير الخلائق أجمعين ؟ فما قان هذا البرهان القطعي الظاهر مع دقته لكل أحد على قدرته التامة على تمييز ترابهم من تراب الأرض ، وتمييز بعض تربهم من بعض ، وتمييز تراب كل جزء من اجزائهم جل أو دق عن بعض .

علم أن التقدير : ثم يعيدكم خلقا جديدا كما كنتم أول مرة ، فحذفه كما هو عادة القرآن في حذف كل ما دل عليه السياق ولم يدع داع إلى ذكره." (١)

" صفحة رقم ٥٨٩

جميع مدة النعمة - بما أفهمه الظرف ، فلم يقيد تلك النعمة بالشكر بعد ما رأى من حلالنا ، قاطعا تلك النعمة خير محض ظاهرا وباطنا فهو يستديمها ، وربما كانت بلاء استدراجا وامتحانا) وناء) أي أبعد إبعادا شديدا بحيث جعل بيننا وبينه حجابا عظيما حال كونه مال) بجانبه) أي بشقه كناية عن تكبره وبأوه وإعجابه بنفسه وزهوة وتصويرا له بمن كلمته فازور عنك والتوى ، وأبعد في ضلاله وغوى .

ولما تقدم حال الإنسان عند مس الشر بغتة ، بين حاله عند مسه وهو يتوقعه ، فقال معبرا في جانب الشر بأداة التحقيق على غير عادة القرآن في الأغلب ، ليدل على أنه لزيادة جهله على الحد يلزم الكبر وإن كان يتوقع الشر ولا يزال حاله حال الآمن إلى أن يخالطه وحينئذ تنحل عراه وتضمحل قوله : (وإذا مسه الشر) أي هذا النوع قليله وكثيره لانتقامنا منه ، فالآية من الاحتابك : ذكر الإنعام أولا دليلا ال ا نتقام ثانيا

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، المؤلف غير معروف ٥٤/٦

وذكر الشر ثانيا دليل الخير أولا ، وسره تعليم الأدب بنسبة الإنعام دون الشر إليه وإن كان الكل منه .
ولما كان تعظيم العرض دالا على عظمة الطول ، قال معبرا بما يدل على الملازمة والدوام : (فذو دعاء) أي في كشفه ، وربما كان نعمة باطنة وهو لا يشعر ولا يدعو إلا عند المس ، وقد كان ينبغي له أن يشرع في الدعاء عند التوقع بل قبله تعرفا إلى الله تعالى في الرخاء ليعرفه في الشدة وهو خلق شريف لا يعرفه إلا أفراد خصهم الله بلطفه ، فدل تركه على عدم شره لما مضى وخفة لما يأتي ومفاجأته للزوم الدعاء عند المس على دعم صبره وتلاشي جلده وقله حيائه) عريض) أي مديد العرض جدا ، وأما طوله فلا تسأل عنه ، وهذا كناية عن النهاية في الكثرة .
فصلت : (٥٢ - ٥٤) قل أرأيتم إن. .. . .
) قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ألا إنهم في مرية من لقآء ربهم ألا إنه بكل شيء محيط (( )
ولما ذكر سبحانه من احوالهم المندرجة في أحوال هذا النوع كله ما هو مكشوف بشاهد الوجود من أنه لا ثبات لهم لا سيما عند الشدائد إعلاما بالعراقة في الجهل والعجز ، دل على الأمرين معا بما لا يمكن عاقلا دفعه من أنهم لا يجوزون الممكن فيعدون له ما يمتعه على تقدير وقوعه ، فأمره (صلى الله عليه وسلم) أن يذكر ذلك إيذانا بالإعراض عنهم دليلا على تناهي الغضب : (قل أرأيتم) أي أخبروني) إن كان) أي هذا القرآن الذي نصبتم لمغالبته حتى الإعراض عن السماع باللغو حال قراءته من الصفير والتصفيق." (١)
" صفحة رقم ١٢٦
ولما كان الوصف لرؤوس المؤمنين ، عد أعمالهم أسبابا فأخبر عنهم بقوله : (فلا خوف عليهم) أي يعلوهم بغلبة الضرر ، ولعله يعبر في مثل هذا بالاسم إشارة إلى أن هيبته بالنظر إلى جلاله وقهره وجبروته وكبره وكماله لا تنتفي ، ويحصل للأنسان باستحضارها إخبات وطمأنينة ووقار وسكينة يزيده في نفسه جلالا ورفعة وكمالا ، فاملنفي خوف يقلق النفس) ولا هم (في ضمائرهم ولا في ظواهرهم) يحزنون) أي يتجدد لهم شيء من حزن أصلا .
الأحقاف : (١٤ - ١٦) أولئك أصحاب الجنة. .. . .
) أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزآء بما كانوا يعملون ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، المؤلف غير معروف ٦/٥٨٩

كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون (( )

ولما نفى عنهم المحذور ، مدهم بإيثار السرور ، فقال تعالى : (أولائك) أي العلو الدرجات) أصحاب الجنة (ولما دلت الصحبة على الملازمة ، صرح بها بقوله تعالى : (خالدين فيها (خلودا لا آخرا له ، جوزوا بذلك) جزاء (ولما كانوا محسنين فكانت أعمالهم في غاية الخلوص جعلها تعالى أسبابا أولا وثانيا ، فقال مشيرا إلى دوامها لأنها في جبلاتهم) بما كانوا) أي طبعا وخلقا) يعملون (على سبيل التجديد المستمر .

ولما تفضل سبحانه وتعالى على الإنسان بعد الأعمال التي هيأه لها وأقدره عليها ووفقه لها أسبابا قرن بالوصية بطاعته – لكونه المبدع – الوصية بالوالدين لكونه تعالى جعله سبب الإيجاد ، فقال في هذا السياق الذي عد فيه الأعمال لكونه سياق الإحسان التي أفضلها الصلاة على ميقاتها ، وثانيها في الرتبة بر الوالدين كما في الصحيح ، وفي الترمذي : (رضى الله في رضى الوالدين وسخطه في سخطهما) وعلى هذا المنوال جرت عادة القرآن يوصي بطاعة الوالدين بعد الأمر بعبادته)) وإذ أخذ الله ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا ( ) [البقرة : ٨٣])) واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ( ) [النساء : ٣٦] وكذاما بعدهما عاطفا على ما قدرته أو السورة من نحو أن يقال : وأمرنا الناس أجميعن أن يكونوا بطاعتنا في مهلة الأجل عاملين ولمعصيتنا مجتنبين : (ووصينا الإنسان) أي هذا النوع الذي أنس بنفسه) بوالديه (ولما." (١)

" صفحة رقم ٢١٨

وإذا أعجبهم وهم في غاية العناية بأمره والتفقد لحاله والملابسه له ومعرفة معانية كان لغيرهم أشد إعجابا ، ومثل لأنهم يكونون قليلين ثم يكثرون مع البهجة في عين الناظر لما لهم من الرونق الذي منشؤه نور الإيمان وثبات الطمأنينة والإيقان وشدة الموافقة من بعضهم لبعض ، ونفي المخالف لهم وإبعاده ، وقد تقدم في هذا الكتاب في آخر المائدة أمثال ضربت في الإنجيل بالزرع أقربها إلى هذا مثل حبة الخردل فراجعه .

ولما أنهى سبحانه مثلهم ، ذكر الثمرة في جعلهم كذلك فقال : (يغيظ (معلقا له بما يؤخذ من معنى

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، المؤلف غير معروف ١٢٦/٧

الكلام وه جعلهم كذلك لأجل أن يغيظ) بهم) أي غيظا شديدا بالغ القوة والإحكام) الكفار (وذلك أنهم لما كانوا أولأمر قليلا ، كان الكفار طامعين في أن لا يتم لهم أمر ، فكلما ازدادوا كثرة مع تمادي الزمان زاد غيظ الكفار منهم ، فكيف إذا رأوا مع الزيادة والقوة منهم حسنا ونضارة ورونقا وبهجة ن فهو في الغيظ مما لو كانوا في أول الأمر كثيرا لأنه كان يكون دفعه ويقصر زمنه ، فمن أبغض صحابيا خيف عليه الكفر لأنهم أول مراد بالآية ، وغيرهم بالقصد الثاني وبالتبع ، ومن أبغضهم كلهم كان كافرا ، وإذا حملناه على غيرهم كان دليلا على أن كل من خالف الإجماع كفر ، قاله القشيري .

ولما ثم مثلهم وعلة جعلهم كذلكط ، بشرهم فقال فيموضع وعدهم لتعليق الوعد بالوصف على عادة القرآن ترغيبا في التمسك به وترهيبا من مجانبته : (وعد الله) أي الملك الأعظم) الذين آمنوا (ولما كان الكلام في الدين معه (صلى الله عليه وسلم) ، وكانت المعية ظاهرة في الاتحاد في الدين لم تكن شاملة للمنافقين ، فلم يكن الاهتمام بالتقييدة بمنهم هنا كالاهتمام به في سورة النور ، فأخره وقدم العمل لأن العناية به هنا أكصر ، لأنه من سيماهم المذكورة فقال : (وعملوا) أي تصديقا لدعواهم الكون معه في الديـن) الصالحات (ولما كان قوله " معه " يعم كما مضى من بعد الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، وكان الخلل فيمن بعدهم كثيرا ، قيد بقوله : (منهم) أي من الذين معه (صلى الله عليه وسلم) سواء كانوا من أصل الزرع أو فراخه وةهم التابعون لهم بإحسان .

ولما كان الإنسان وإن اجتهد مقصرا عن بلوغ ما يحق له من العبادة ، أشار إلى ذلك بقوله : (مغفرة) أي لما يقع منهم من الهفوات أو الذنوب والسيئات) وأجرا عظيما (بعد ذلك الستر ، وقد جمعت هذه الآية الخاتمة لهذه السورة جميع حروف المعجم بشارة تلويحية مع ما فيها من البشائر التصريحية باجتماع أمرهم وعلو نصرهم ، وذلك أنه لما كانت هذه العمرة قد حصل لهم فيها كسر لرجوعهم قبل وصولهم إلى قصدهم من الدخول إلى مكة المشرفة والطواف بالبيت العتيق ، ولم يكن ذلك بسبب." (١)

" صفحة رقم ٤٣٢

كأنه أتاه من غير فكر ولا روية بل هجما) العقبة (وهي طريق النجاة ، والمقرر في اللغة أنها الطريق الصاعد في اجبل المستعار اسمها لأفعال البر المقرر في النفوس مريحة لا متعب ، مع كونها أعظم فخرا وأعلى منقبة ، لأنا حجبناه عنها بأيدينا وعظيم قوتنا وعجيب قدرتنا ، وذلك أن الخير لما كان محببا إلى القلوب معشوقا للنفوس مرغوبا فيه لا يعدل عنه أحد ، جعلناه في بادئ الأمر كريها وعلى النفوس مستصعبا ثقيلا

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، المؤلف غير معروف ٢١٨/٧

حتى صار لمخالفته الهوى كأنه عقبة كؤود ، لا ينال ما فيه من مشقة الصعود ، إلا بعزم شديد وهمة ماضية ، ونية جازمة ، ورياضة وتدريب ، وتأديب وتهذيب ، وشديد مجاهدة وعظيم مكابدة للنفس والهوى والشيطان ، بحيث يكون متعاطيه في فعله له كالرامي بنفسه المتعدي لطوره لم يختر لنفسه الخير بما أوتي من البصر الذي يبصر به صنائع الله ، والبصيرة التي يعرف بها ما يضره وما ينفعه شكرا لربه سبحانه وتعالى ويكون ذلك لإحسانه إليه ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ، وهل جزاء النعمة إلا الشكر ، بل اختار الشر وارتكب الضر مع أنا هيأناه لكل منهما فبانت لنا القدرة .

واتضحت في صفاتنا العظمة ، وتحقق له الضعف وظهر منه النقص والعجز ، فوجب عليه لعزتنا الخضوع ، وإجراء مصون الدموع وإظها الافتقار والذل والصغار ، لنقحمه سبيل الجنة وننجيه من طريق النار ، ومن اقتحم هذه العقبة التي هي للأعمال الصالحة اقتحم عقبة الصراط ، فكانت سهولتها عليه بقدر مكابدته لهذه ، واستراح من تلك المكابدات والأحزان والهموم وصار إلى حياة طيبة كما قال الله تعالى

٧٧ ( ) من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ( ) ٧

[النحل : ٩٧] الآية ، وقتحامها بأن يرتحل من عالمه السافل إلى العالم العالي الكامل الذي ليس فيه إلا اللذة ، وذلك هو الاعتراف بحق العبودية ، وتلك هي الحرية لأن الحر من خرج من رق الشهوات إلى خدمة المولى ، فصار طوع أمره في سره وجهره لا حظ لشهوة فيه ولا وصول لحظ إليه ، وذلك يكون بشيئين : أحدهما جذب والآخر كسب ، فالمجذوب محمول .

والكاسب في تعب المجاهدات بسيف الهمة العالية مصول .

ولما بين أنه لا خلاص من النكد إلا بهذا الاقتحام ، شرع في تفسير العقبة بادئا بتهويل أمرها لعظيم قدرها ، فقال معبرا بالماضي الذي جرت عادة القرآن بأنه إذا عبر به شرح المستفهم عنه : (وما أدراك) أي أيها السامع لكلامنا ، الراغب فيما عندنا) ما العقبة) أي إنك لم تعرف كنه صعوبتها وعظمة ثوابها ، فلما تفرغ القلب بالاستفهام عما لا يعرفه ، وكان الإنسان أشهى ما إليه تعرف ما أشكل عليه ، فتشوفت النفوس إلى." (١)

" أنواع ارتباط الآى بعضها ببعض

عدنا إلى ذكر ارتباط الآى بعضها ببعض فنقول

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، المؤلف غير معروف ٤٣٢/٨

ذكر الآية بعد الأخرى إما أن يظهر الارتباط بينهما لتعلق الكلام بعضه ببعض وعدم تمامه بالأولى فواضح وكذلك إذا كانت الثانية للأولى على جهة التأكيد والتفسير أو الاعتراض والتشديد وهذا القسم لا كلام فيه

وإما ألا يظهر الارتباط بل يظهر أن كل جملة مستقلة عن الأخرى وأنها خلاف النوع المبدوء به فإما أن تكون معطوفة على ما قبلها بحرف من حروف العطف المشترك فى الحكم أولا

القسم الأول أن تكون معطوفة ولا بد أن تكون بينهما جهة جامعة على ما سبق تقسيمه كقوله تعالى يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وقوله والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون وفائدة العطف جعلهما كالنظيرين والشريكين

وقد تكون العلاقة بينهما المضادة وهذا كمناسبة ذكر الرحمة بعد ذكر العذاب والرغبة بعد الرهبة وعادة القرآن العظيم إذا ذكر أحكاما ذكر بعدها وعدا ووعيدا ليكون ذلك باعثا على العمل بما سبق ثم يذكر آيات التوحيد والتنزيه ليعلم عظم الآمر والناهى وتأمل سورة البقرة والنساء والمائدة وغيرها تجده كذلك

وقد تأتى الجملة معطوفة على ما قبلها ويشكل وجه الارتباط فتحتاج إلى شرح ونذكر من ذلك صورا يلتحق بها ما هو فى معناها

فمنها قوله تعالى يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها الآية فقد يقال أى رابط بين أحكام الأهلة وبين حكم إتيان البيوت والجواب من وجوه ." (١)

" إلها واحدا إلى آخر كلامهم ثم اختصام الخصمين عند داود ثم تخاصم أهل النار ثم اختصام الملأ الأعلى فى العلم وهو الدرجات والكفارات ثم تخاصم إبليس واعتراضه على ربه وأمره بالسجود ثم اختصامه ثانيا فى شأن بنيه وحلفه ليغوينهم أجمعين إلا أهل الإخلاص منهم

وكذلك سورة ن والقلم فإن فواصلها كلها على هذا الوزن مع ما تضمنت من الألفاظ النونية

وتأمل سورة الأعراف زاد فيها ص لأجل قوله فلا يكن فى صدرك حرج وشرح فيها قصص آدم فمن بعده من الأنبياء ولهذا قال بعضهم معنى آلمص ألم نشرح لك صدرك وقيل معناه المصور وقيل أشار بالميم لمحمد وبالصاد للصديق وفيه إشارة لمصاحبة الصاد الميم وأنها تابعة لها كمصاحبة الصديق لمحمد ومتابعته له

---

(١) البرهان في علوم القرآن، المؤلف غير معروف ٤٠/١

وجعل السهيلى هذا من أسرار الفواتح وزاد فى الرعد راء لأجل قوله الله الذى رفع السموات ولأجل ذكر الرعد والبرق وغيرهما

واعلم أن عادة القرآن العظيم فى ذكر هذه الحروف أن يذكر بعدها ما يتعلق بالقرآن كقوله الم ذلك الكتاب وقد جاء بخلاف ذلك فى العنكبوت والروم فيسأل عن حكمة ذلك

تنبيهات

ثم لا بد من التنبيه على أحكام تختص بهذه الفواتح الشريفة

الأول أن البصريين لم يعدوا شيئا منها آية وأما الكوفيون فمنها ما عدوه آية ومنها ." (١)

" وقوله تعالى ان الذين كفروا بعد ايمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم ١ كنى بنفي قبول التوبة عن الموت على الكفر لانه يرادفه

رابعها أن يفحش ذكره في السمع فيكنى عنه بما لا ينبو عن الطبع قال تعالى واذا مروا باللغو مروا كراما ٢ أي كنوا عن لفظه ولم يوردوه على صيفته

ومنه قوله تعالى في جواب قوم هود انا لنراك في سفاهة ٣ قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين ٤ فكنى عن تكذيبهم بأحسن

ومنه قوله ولكن لا تواعدوهن سرا ٥ فكنى عن الجماع بالسر

وفيه لطيفة أخرى لأاه يكون من الآدميين في السر غالبا ولا يسره ما عدا الآدميين الا الغراب فانه يسره ويحكى ان بعض الادباء اسر الى ابي على الحاتمي كلاما فقال ليكن عندك اخفى من سفاد الغراب ومن الراء في كلام الالثغ فقال نعم ياسيدنا ومن ليلة القدر وعلم الغيب

ومن عادة القرآن العظيم الكناية عن الجماع باللمس والملامسة والرفث والدخول والنكاح ونحوهن قال تعالى فالآن باشروهن ٦ فكنى بالمباشرة عن الجماع لما فيه من التقاء البشرتين

وقوله تعالى اولامستم النساء ٧ إذ لا يخلوا الجماع من الملامسة ." (٢)

"الموسوعة القرآنية ، ج ٢ ، ص : ٢٨٣

٦٧ الآيات والسور

المناسبة فى اللغة : المشاكلة والمقاربة ، ومرجعها فى الآيات ونحوها إلى معنى رابط بينها عام أو خاص ،

---

(١) البرهان في علوم القرآن، المؤلف غير معروف ١٧٠/١

(٢) البرهان في علوم القرآن، المؤلف غير معروف ٣٠٣/٢

عقلى أو حسى أو خيالى أو غير ذلك من أنواع العلاقات ، أو التلازم الذهنى ، كالسبب والمسبب ، والعلة والمعلول ، والنظيرين والضدين ونحوه.

وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض ، فيقوى بذلك الارتباط ، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء.

وذكر الآية بعد الأخرى :

إما أن يكون ظاهر الارتباط لتعلق الكلم بعضه ببعض ، وعدم تمامه بالأولى فواضح ، وكذلك إذا كانت الثانية للأولى على وجه التأكيد أو التفسير أو الاعتراض أو البدل ، وهذا القسم لا كلام فيه.

وإما ألا يظهر الارتباط بل يظهر أن كل جملة مستقلة عن الأخرى ، وأنها خلال النوع المبدوء به.

وإما أن تكون معطوفة على الأولى بحروف من حروف العطف المشركة فى الحكم أولا.

فإن كانت معطوفة فلا بد أن تكون بينهما جهة جامعة على ما سبق تقسيمه كقوله تعالى : يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وقوله : والله يقبض ويبصط وإليه ترجعون للتضاد بين القبض والبسط ، والولوج ، والنزول ، والعروج ، وشبه التضاد بين السماء والأرض.

ومما الكلام فيه التضاد ذكر الرحمة بعد ذكر العذاب ، والرغبة بعد الرهبة ، وقد جرت **عادة القرآن** إذا ذكر أحكاما ذكر بعدها وعدا ووعيدا ليكون." (١)

"الموسوعة القرآنية ، ج ٢ ، ص : ٢٨٨

موضع ن لعدم التناسب الواجب مراعاته فى كلام الله ، وسورة ق بدئت به لما تكرر فيها من الكلمات بلفظ القاف من ذكر القرآن والخلق ، وتكرير القول ومراجعته مرارا والقرب من ابن آدم ، وتلقى الملكين ، وقول العتيد والرقيب ، والسائق ، والإلقاء فى جهنم ، والتقدم بالوعد ، وذكر المتقين ، والقلب والقرون والتنقيب فى البلاد ، وتشقق الأرض وحقوق الوعيد وغير ذلك.

و قد تكرر فى سورة يونس من الكلم الواقع فيها الر مائتا كلمة أو أكثر ، فلهذا افتتحت ب الر.

واشتملت سورة ص على خصومات متعددة.

فأولها خصومة النبى صلى الله عليه وسلم مع الكفار وقولهم : أجعل الآلهة إلها واحدا.

ثم اختصام الخصمين عند داود.

ثم تخاصم أهل النار.

---

(١) الموسوعة القرآنية، المؤلف غير معروف ص/٦٨٠

ثم اختصام الملأ الأعلى.

ثم تخاصم إبليس فى شأن آدم ، ثم فى شأن بنيه وإغوائهم.

الم جمعت المخارج الثلاثة : الحلق واللسان وارشفتين ، على ترتيبها ، وذلك إشارة إلى البداية التى هى بدء الخلق ، والنهاية التى هى بدء الميعاد ، والوسط الذى هو المعاش من التشريع بالأوامر والنواهى.

وكل سورة افتتحت بها فهى مشتملة على الأمور الثلاثة.

وسورة الأعراف زيد فيها (الصاد) على الم لما فيها من شرح القصص ، قصة آدم فمن بعده من الأنبياء ، ولما فيها من ذكر : فلا يكن في صدرك حرج ولهذا قال بعضهم : معنى المص : ألم نشرح لك صدرك.

وزيد فى الرعد راء ، لأجل قوله رفع السماوات ولأجل ذكر الرعد والبرق وغيرهما.

واعلم أن إعادة القرآن العظيم فى ذكر هذه الحروف أن يذكر بعدها." (١)

"فصل

المناسبة في اللغة المشاكلة والمقاربة ومرجعها في الآيات ونحوها إلى معنى رابط بينها عام أو خاص عقلي أو حسي أو خيالي أو غير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني كالسبب والمسبب والعلة والمعلول والنظيرين والضدين ونحوه

وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء فنقول ذكر الآية بعد الأخرى إما أن يكون ظاهر الارتباط لتعلق الكلم بعضه ببعض وعدم تمامه بالأولى فواضح وكذلك إذا كانت الثانية للأولى على وجه التأكيد أو التفسير أو الاعتراض أو البدل وهذا القسم لا كلام فيه

وإما إلا يظهر الارتباط بل يظهر أن كل جملة مستقلة عن الأخرى وأنها خلاف النوع المبدوء به فإما أن تكون معطوفة على الأولى بحرف من حروف العطف المشتركة في الحكم أو لا فإن كانت معطوفة فلا بد أن يكون بينهما جهة جامعة على ما سبق تقسيمه كقوله تعالى: ﴿ يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها﴾ وقوله: ﴿والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون﴾ للتضاد بين القبض والبسط والولوج والخروج والنزول والعروج وشبه التضاد بين السماء والأرض ومما الكلام فيه التضاد ذكر الرحمة بعد ذكر العذاب والرغبة بعد الرهبة وقد جرت عادة القرآن إذا ذكر." (٢)

---

(١) الموسوعة القرآنية، المؤلف غير معروف ص/٦٨٥

(٢) الإتقان في علوم القرآن، المؤلف غير معروف ٣/٣٧١

"فاتبع قرآنه بالإقرار بأنك فعلت ثم إن علينا بيان أمر الإنسان وما يتعلق بعقوبته انتهى.

وهذا يخالف ما ثبت في الصحيح أنها نزلت في تحريك النبي صلى الله عليه وسلم لسانه حالة نزول الوحي عليه

وقد ذكر الأئمة لها مناسبات:

منها أنه تعالى لما ذكر القيامة وكان من شأن من يقصر عن العمل لها حب العاجلة وكان من أصل الدين أن المبادرة إلى أفعال الخير مطلوبة فنبه على أنه قد يعترض على هذا المطلوب ما هو أجل منه وهو الإصغاء إلى الوحي وتفهم ما يرد منه والتشاغل بالحفظ قد يصد عن ذلك فأمر بألا يبادر إلى التحفظ لأن تحفيظه مضمون على ربه وليصغ إلى ما يرد عليه إلى أن ينقضي فيتبع ما اشتمل عليه ثم لما انقضت الجملة المعترضة رجع الكلام إلى ما يتعلق بالإنسان المبتدأ بذكره ومن هو من جنسه فقال: ﴿كلا﴾ وهي كلمة ردع كأنه قال "بل أنتم يا بني آدم لكونكم خلقتم من عجل تعجلون في كل شيء ومن ثم تحبون العا جلة"

ومنها أن **عادة القرآن** إذا ذكر الكتاب المشتمل على عمل العبد حيث يعرض يوم القيامة أردفه بذكر الكتاب المشتمل على الأحكام الدينية في الدنيا التي تنشأ عنها المحاسبة عملا وتركا كما قال في الكهف: ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه﴾ إلى أن قال: ﴿ ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل﴾ الآية وقال في سبحان: ﴿فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرأون كتابهم﴾ إلى أن قال: ﴿ولقد." (١)

"واشتملت سورة "ص" على خصومات متعددة فأولها خصومة النبي صلى الله عليه وسلم مع الكفار وقولهم: ﴿أجعل الآلهة إلها واحدا﴾ ثم اختصام الخصمين عند داود ثم تخاصم أهل النار ثم اختصام الملأ الأعلى ثم تخاصم إبليس في شأن آدم ثم في شأن بنيه وإغوائهم

و "الم" جمعت المخارج الثلاثة الحلق واللسان والشفتين على ترتيبها وذلك إشارة إلى البداية التي هي بدء الخلق والنهاية التي هي بدء الميعاد والوسط الذي هو المعاش من التشريع بالأوامر والنواهي وكل سورة افتتحت بها فهي مشتملة على الأمور الثلاثة

وسورة الأعراف زيد فيها الصاد على "الم" لما فيها من شرح القصص قصة آدم فمن بعده من الأنبياء ولما فيها من ذكر ﴿فلا يكن في صدرك حرج﴾ ولهذا قال بعضهم معنى "المص" ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ وزيد في الرعد راء لأجل قوله: ﴿رفع السماوات﴾ ولأجل ذكر الرعد والبرق وغيرهما

---

(١) الإتقان في علوم القرآن، المؤلف غير معروف ٣٧٧/٣

واعلم أن عادة القرآن العظيم في ذكر هذه الحروف أن يذكر بعدها ما يتعلق بالقرآن كقوله: ﴿الم ذلك الكتاب﴾ ﴿الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب بالحق﴾ ، ﴿المص كتاب أنزل إليك﴾ ﴿الر تلك آيات الكتاب الحكيم﴾ ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ ﴿طسم تلك آيات الكتاب﴾ ﴿يس والقرآن﴾ ﴿ص والقرآن﴾ ﴿حم تنزيل الكتاب﴾ ﴿ق والقرآن﴾ إلا ثلاث سور: العنكبوت والروم ون ليس فيها ما يتعلق به وقد ذكرت حكمة ذلك في "أسرار التنزيل"." (١)

"والنور في الأنعام وإنزال الكتاب في الكهف وملك ما في السموات وما في الأرض في سبأ وخلقهما في فاطر لأن الفاتحة أم القرآن ومطلعه فناسب الإتيان فيها بأبلغ الصفات وأعمها وأشملها.

في العجائب الكرماني: إن قيل: كيف جاء "يسألونك" أربع مرات بغير واو ﴿يسألونك عن الأهلة﴾ ﴿يسألونك ماذا ينفقون﴾ ﴿يسألونك عن الشهر الحرام﴾ ﴿يسألونك عن الخمر﴾ ثم جاء ثلاث مرات بالواو: ﴿ويسألونك ماذا ينفقون﴾ ﴿ويسألونك عن اليتامى﴾ ﴿ويسألونك عن المحيض﴾ قلنا لأن سؤالهم عن الحوادث الأول وقع متفرقا وعن الحوادث الأخر وقع في وقت واحد فجيء بحرف الجمع دلالة على ذلك

فإن قيل: كيف جاء ﴿ويسألونك عن الجبال فقل﴾ وعادة القرآن مجئ "قل" في الجواب بلا فاء؟ أجاب الكرماني بأن التقدير: "لو سئلت عنها فقل"

فإن قيل: كيف جاء ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب﴾ وعادة السؤال يجيء جوابه في القرآن "بقل"؟ قلنا: حذفت للإشارة إلى أن العبد في حالة الدعاء في أشرف المقامات لا واسطة بينه وبين مولاه." (٢)

"أول ما يلقاك من هذا في تفسيره تأويلا لهذا الأسلوب تأويله قول الله – عز وجل –:

﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم) (البقرة:٢٩)

يقول :" لما أجمل – سبحانه وتعالى – في اول هذه الآية (ي:٢٨) أول أمرهم وأوسطه وآخره على الوجه الذي تقدم أنه منبه على الكفر ينبغي أن يكون من قبيل الممتنع لما عليه من باهر الأدلة شرع يفصله على وجه داع لهم إلى جنابه بالامتنان بأنواع الإحسان بأمر أعلى في إفادة المقصود مما قبله على عادة القرآن في الترقي من العالي إلى الأعلى ، فساق – سبحانه وتعالى – ابتداء الخلق الذي هو من أعظم الأدلة على

---

(١) الإتقان في علوم القرآن، المؤلف غير معروف ٣/٣٨٤

(٢) الإتقان في علوم القرآن، المؤلف غير معروف ٣/٣٨٨

وحدانيته مساق الإنعام على عباده... فقال (هو) ..(الذي خلق لكم.. ما في الأرض) بعد أن سواهن سبعا ...(جميعا)....

ولم كانت السماء أشرف من جهة العلو الذي لايرام.... عبر في أمرها بـ" ثم " فقال(ثم استوى إلى السماء)....(فسواهن سبع سموات)... وخلق جميع ما فيها لكم .

فالآية من "الاحتباك" :

حذف أولا كون الأراضي سبعا لدلالة الثاني عليه ، وثانيا كون ما في السماء لنا لدلالة الأول عليه.

وهو فن عزيز نفيس وقد جمعت فيه كتابا حسنا ذكرت فيه تعريفه ومأخذه من اللغة وما حضرني من أمثلته من الكتاب العزيز وكلام الفقهاء وسميته:"الإدراك لفن الاحتباك "...." (١)

أبان البقاعي لنا ما كان محذوفا لدلالة القرينة المقالية عليه ، ولم يبين لنا هنا الوجه البياني لحذف ما حذف وذكر ما ذكر ، وكما أنه لم يبين لنا هنا تعريف (الاحتباك) وإن كان قد عرفه في موضع آت من بعد .

---

(١) ؟ ١ – نظم الدرر: ج١ص٢١٩ – ٢٢٥..." (١)

"فإذا كان الارتباط ظاهرا –كأن تكون الثانية مؤكدة للأولى أو مكملة لها– فالأمر هين. وإن لم يظهر وجه الربط بأن تكون كل آية أو جملة في موضوع مختلف. فإن وجد حرف عطف بحثنا عن الجهة الجامعة؛ إذ لا بد منها عند العطف؛ كقوله : ﴿والله يقبض ويبسط﴾ فالجهة الجامعة التضاد.

وقد جرت عادة القرآن إذا ذكر أحكاما ذكر بعدها وعدا ووعيدا؛ ليكون باعثا على العمل ، ثم يذكر آيات توحيد وتنزيه؛ ليعلم عظم الآمر والناهي.

وإن لم يوجد حرف العطف ، فلا بد من دعامة يعتمد عليها في الربط ، وهي قرينة معنوية يدركها المستنبط ببصيرته النفاذة؛ كإلحاق النظير بالنظير في قوله تعالى من سورة الأنفال : ﴿قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾.

ثم بين أوصافهم ، وختم ذلك بقوله : ﴿أولئك هم المؤمنون حقا﴾..

وذكر جزاءهم فقال : ﴿لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ، كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون﴾.

---

(١) الإمام البقاعي ومنهاجه في تأويل بلاغة القرآن، المؤلف غير معروف ص/٢٨٦

والتنظير هنا في أن الغنائم لما انتزعت من أيدي المجاهدين في أول الأمر وجعلت لله والرسول؛ تألم بعضهم لحرمانه منها. فألحق الله ذلك بكراهيتهم للخروج إلى الجهاد في أول الأمر ، وتبينهم بعد ذلك أن في الخروج الغنيمة والنصر وعز الإسلام وهلاك الأعداء؛ كأنه يقول : ﴿وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم﴾..

ومن أمثلة الروابط : التضاد وشبهه؛ كالحديث عن الكافرين بعد المؤمنين وعكس ذلك هو كثير في القرآن..
٦١ | ٣٩٦." (١)

"[١] قيل: كرر الأمر على جهة التغليظ وتأكيده كما تقول لرجل: قم قم (١) . والتكرير لأجل التغليظ ليس بتوجيه وجيه؛ فقد ذكر الله تعالى أنه تاب على آدم - عليه السلام - قبل الآية الثانية التي فيها جملة: ، ولا يوجد دليل على أن هذا التوبة كانت بعد إنزاله إلى الأرض؛ بل ظاهر القرآن أنها كانت وهو ما زال في الجنة، فكيف يغلظ عليه بعد أن تاب عليه؟

[٢] التكرير لأجل الربط في نظم الكلام، فهو قول واحد له مدلول واحد تكرر لربط الكلام لا لأمر معنوي، فكرر "الأمر لما علق بكل أمر منهما حكما غير حكم الآخر، فعلق بالأول العداوة، وبالثاني إتيان الهدى" (٢) ، "فيكون هذا التكرير لمجرد اتصال ما تعلق بمدلول [البقرة: ٣٦]، وذلك قوله [البقرة: ٣٦]، وقوله [البقرة: ٣٨] إذ قد فصل بين هذين المتعلقين ما اعترض بينهما من قوله

[البقرة: ٣٧]، فإنه لو عقب ذلك بقوله [البقرة: 8٣] لم يرتبط كمال الارتباط، ولتوهم السامع أنه خطاب للمؤمنين على عادة القرآن في التفنن (٣) ، فلدفع ذلك أعيد قوله [البقرة: ٣٨].

(١) تفسير القرطبي، ١/٣٦٨، فتح القدير، ١/١٠٨.

(٢) تفسير القرطبي، ١/٣٦٨.

(٣) عادات القرآن: هي أساليبه التي تميز بها، وجرت في نظمه وكلمه مجرى العادة. وتعرض لها بعض المفسرين كالزمخشري، وهي مبثوثة في تفسيره، وأشار إليها ابن عاشور في المقدمة. انظر: التحرير والتنوير، ١/٥٩.." (٢)

(١) الأصلان في علوم القرآن، المؤلف غير معروف ص/٦٢

(٢) فن التوجيه عند المفسرين، المؤلف غير معروف ص/٢٦

"٢ وهذا ينطبق حتى على سور مريم، والعنكبوت، والروم، ون، لأنها -وإن لم تفتتح بذكر الكتاب- قد اشتملت على معان تتعلق بإثبات الوحي والنبوة. وانظر تفصيل ذلك في تفسير المنار ٨/ ٢٩٦-٢٩٨. وقد نبه إلى ذلك الإمام الزركشي في "البرهان ١/ ١٧٠" فقال: "واعلم أن **عادة القرآن** العظيم في ذكر هذ الحروف أن يذكر بعدها ما يتعلق بالقرآن كقوله: ﴿الم، ذلك الكتاب﴾ [سورة البقرة: ١، ٢]، وقد جاء بخلاف ذلك في العنكبوت والروم، فيسأل عن ذلك".

٣ ويزداد هذا الرأي وضوحا إذا سلمنا بأن الزهراوين كانتا من أولائل السور نزولا في المدينة كما هو المشهور، وبنزولهما مفتتحتين بهذه الحروف المقطعة تمت الحكمة الإلهية من تنبيه اليهود إلى الدعوة الجدية وإثارة اهتمامهم بها، فلم يعد في استمرار الافتتاح بتلك الحروف بعد الزهراوين حكمة ظاهرة باهرة، ولذلك نزل لوحي بعدهما خاليا من تلك الفواتح، فلا ضرورة للتسليم بصحة الاعتراض الذي وجهه ابن كثير في تفسير "١/ ٣٧-٣٨" إلى هذا القول بسبب مدنية البقرة وآل عمران وكونهما ليستا خطابا للمشركين: لأن الحكمة من تخصيص الزهراوين بهذه الفواتح تكون -على ما بيناه- بالغة دامغة.

٢٤٥ ٣٨٢." (١)

"وفيها) التهذيب وهو أن يكون الكلام مهذبا مفخما بحيث لا يكون للإعتراض فيه مجال والآية والقرآن كله كذلك (وفيها) الاستتباع وهو الوصف بشيء على وجه يستتبع الوصف بآخر وهو هنا فى موضعين فإنه وصف المؤمنين بولاية الله تعالى لهم على وجه وصفهم بالهداية ووصف الكافرين بولاية الطاغوت على وجه استتبع وصفهم بالضلالة (ثم ظهر لى) أن يقال أن فى قوله يخرجهم من الظلمات إلى النور مكنية تخيلية (٢٣) بأن يكون شبه المنتقل من الضلال إلى الهدى بمن كان قارا فى مكان مظلم يخرج منه إلى مكان نير فأثبت المشبه وحذف المشبه به ودل عليه بلازمه وهو الإخراج ويجوز أن تكون الإستعارة تمثيلية انتزع فيها وجه الشبه من متعدد كما ترى ويأتى ذلك فى الجملة الثانية أيضا

(وظهر لى أيضا) أن تأتى فيها التورية وذلك أن ورد فى الحديث أن الناس يكونون يوم القيامة فى ظلمة ثم يرسل عليهم نور فيبقى نور المؤمن ويطفأ نور المنافق وقد يؤول بعضهم هذه الآية على ذلك فعلى هذا يكون النور والظلمات معنى حقيقى ومعنى مجازى والمجازى هو القريب والحقيقى البعيد

(وينجر) من هذا أن يكون فى الآية التلميح وهو الإشارة إلى قصة أو واقعة أو كائنة وقد يكون أريد من

---

(١) مباحث في علوم القرآن للشيخ صبحي الصالح، المؤلف غير معروف /

الآية المعنيان معا

كما هو عادة القرآن وبلاغته وقد ورد لكل حرف ظهر وبطن فيكون فى الآية استخدام على طريقة صاحب المفتاح نحو لكل أجل كتاب (٢٤) وهو إطلاق لفظ له معنيان فيرادان ويذكر معه لفظان كل لفظ يخدم معنى وهنا لما ذكر النور والظلمات وأريد المعنيان ذكر لفظ يخدم المعنى الحقيقى وهو الإخراج فإنه حقيقة فى التحول عن الحيز والأمكنة ولفظ يخدم المعنى المجازى وهو لفظ الإيمان والكفر

(ثم ظهر لى) أن فى الآية اللف والنشر فى موضعين أحدهما مرتب والآخر غير مرتب

فالأول فى الله ولى الذين آمنوا يخرجهم فإن المضمر الأول فيه هو المستتر وهو راجع إلى الجلالة." (١)

"علاقات التلازم ألذ هيئ، كالسبب والسبب، والعلة والعلوم، والنظيرين والضدين ونحوه.

وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حالته حال البناء المحكم الملائم الأجزاء فنقول:

ذكر الآية بعد الأخرى إما أن يكلون ظاهر الارتباط لتعلق الكللام بعضه

. لبعضه وعدم تمامه في الأولى، فواضح؟ وكذلك إذا كانت الثانية للأولى على وجه التأكيد أو التفسير أو الاعراض أو البدل، وهذا القسم لا كلام فيه.

وإما ألا يظهر الارتباط، بل يظهر أن كل جلة مستقلة عن الأخرى، ود نصا خلاف النوع الهدوء به؟ فإما أن تكلون معطوفة على الأولى بحرف من حروف العطف الشركة في الحكام، أو لا. فإن كانت معطوفة فلا بد أن يكلون بينهما جهة جامعة على ما سبق تقسيمه، كقوله تعالى: ويعم ما ينبئ في الأرض وما يخزبخ منها وما يئز ٤ من السمك؟ وما يغري فيهاش أسبر: ٢، وقوله: فوالله يقيضن وؤيئمئما وإليه ترجعون ! أ البقرة: ٢٤٥، للتضاد بين القبض والبصر، والولوج والخروج، والنزول والعروج، وشبه التضاد بين السماء والأرض.

ومما العلاقة فيه التضاد ذكر الرحمة بعد ذكر العذاب، والرغبة بعد الرهبة.

وقد جرت عادة القرآن العظيم إذا ذكر أحكاما ذكر بعدها وعدا أو وعيدا لتكون باعثا على العمل بما سبق، ثم يذكر آيات توحيد وتنزيه؟ ليعم جمام الآمر الناهي.

وتأمل سورة البقرة والنساء والائدة تجده كذلك.

وإن لم تكن معطوفة فلا بد من دعامة يؤذن باتصال الكلام، وهي قرائن معنوية تؤذن بالربط.

---

(١) فتح الجليل للعبد الذليل رسالة للسيوطى، المؤلف غير معروف ص/٨

وله أسباب:

أحدها: التنظير؟ فإن إلحاق التغير بالتغير من شأن العقلاء، كقوله: (كقا." (١)

"أفعال أني مطلوبة، فنبه على أنه قد يعرض على هذا المطلوب ما هو أجل منه، وهو الإصغاء إلى الوحي وتفهم ما يراد منه، والتشاغل بالحفظ قد يصل عن ذلك، فأمر بألا تبادر إلى التحفظ، لأن تحفيظه مضمون على ربه، وليصغي إلى ما يرد عليه إلى أن يقضى، فيتبع ما اشتمل عليه. ثم لما انقضت الجملة المعترضة رجع الكلام إلى ما يتعلق بالإنسان المبدأ بذكره، ومن هو من جنسه؟ فقال: (كلا! أ القيامة: ٢٠، وهي كلمة ردع، كأنه قال: بل أنتم يا بني آدم للأبمء- نكلم خلقتم من دخل تعجلون في كل لشيء؟ ومن ثم تحبون العاجلة.

ومنها أن عادة القرآن إذا ذكر الكلام المشتمل على عمل العبد حيث يعرض يوم القيامة أردفه بذكر الكتاب الشامل على الأحكلام الدينية في الدنيا التي تنشأ عنها الحاسبة عملا وتركي، كما قال في الكهف: (وؤضيع الكتالث فزي ائفجرمين فشئمقين مما فيه... ! أ الكهف: ٤٩، إلى أن قال: (ولقد ضيفنا في هذا القرآن للناس ومن كل قبل... ! أ الكهف: ٥٤، الآية.

وقال في طه: ليؤتم ئئقح في المئوية ؤتخ!ئتز المجرمين يومئذ زرقأ... ! أطه: ١٠٢،. إلى أن قال: (فتغالى الله المير الحق ولا تدخل بالقرآن من قبل أن ئقئتى إليلث ؤخئه ! أطه: ١١٤،.

ومنها أن أول سورة القيامة لما نزل إلى: (وتؤ ألقى وغاب يره ! أ القيامة: ١٥، صادف أنه ! في تلك الحالة بادر إلى تحفظ الذي نزل، وتحرك به لسانه من عجلته خشية من تفتته، فنزل: لا تحرك به لسانك... إلى قوله: ثم إن علينا بيانه، ثم عاد الكلام إلى تكلملة ما ابتداء به.

قال الفخر الراز!ط: ونحوه ما لو ألقى المدرس على الطالب مسألة فتشاغل الطالب بث!يء عرض له، فقال له: ألق إلي بالك، وتفهم ما أتول. ثم كمل المسألة، فمن لا يعرف السبب يقول: ليس هذا الكلام مناسبا للمسألة بخلاف من عرف ذلك.

ومنها أن " النفس ا لما تقدم ذكرها في أول السورة عدل إلى ذكر نفس." (٢)

"وفي يد في الرعد لأجل قوله: (رفغ السموات ! أ الرعد: ٢،، ولأجل ذكر الرعد والبرق وغيرهما.

وا ٣ أن عادة القرآن العظيم في ذكر هذه الحروف أن يذكر بعدها ما يتعلق بالقرآن، كقوله تعالى: وآلم.

---

(١) معترك الأقران للسيوطي، المؤلف غير معروف ص/٤٩

(٢) معترك الأقران للسيوطي، المؤلف غير معروف ص/٥٤

ذلك اليهتاب ! أ البقرة: ا،. (نرل عليلة الكتالت ! أ آل عمران: ٣،. خالص. كتائب انزل إليك ! أ الأعراف: ا، ٢،. (آلمر، تلك آيات الكتاب ! أ الرعد: ا،. وطه. لا أئرئنا غقئلث الجزآن يتشئقى! أ طه: ا،. وطسم. تلك آيات الكتاب المبين ! أ الشعراء: ا و ا لقصص: ا،. ليس. و ا لقرآن !. نص. و ا لقرآن !. لحم. تنز يل الكتاب ! أ غافر: ا،. حق. والقرآن !. إلا في ثلاث سور: العنكبوت، والروم، من، ليس فيها ما يتعلق به، وقد ذكرت حكمة ذلك في أس أر التنزيل.

وقال الحوالي: في معنى حديث: أنزل القرآن على سبعة أحرف: زاجر، وآمر، وحلال، وحر أم، و محكوم، ومتنا به، وأمثال. ٣١ أن القرآن نزل عند انتهاء الخلق، وقال كل ال أمر تذءأ، فكان التخلق

به جامعة لانتهاء كل خلق، وقال كل أمر؟ فكلذلك هول قيم الكون، وهو الجامع الكلامي؟ ولذلك كان خاتما وكتابه كذلك. وبدأ إلعاد من حين ظهوره، فاستوفى هذه الجوامع الثلاث التي قد خلت في الأولين بداية عصا، وتممت عنده غاية لصا؟ بعثت لأتقدم مكارم الأخلاق، وهي صلاح الدين والعقد التي معها قوله !!: اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي. وفي كل صلاح إقدام وإحجام؟ فتصير الجوامع الثلاثة ستة هي حروف القرآن الستة، ثم ذهب حرفا جامعا ثائعأ فردي لا زوج له، فتمت سبعة.

فأتى ني تلك الحروف أو صلاح الدنيا، فلها حرفان: حرف الحرام الذي لا تصلح النفس والبدن إلا بالتطهر منه، لبعده عن تقويمها. والثاني حرف الحلال

٥٦." (١)

"المقطوع به قوله تعالى: والحمد دنه الذي أنزل على غئلإ؟ الكتالت ولم يجعل له جموجآ! أ الكهف: أ، والتناسب في هذا أوضح من أن يتوقف فيه.

وأما سورة سبأ فلما تضمنت ما منح سبحانه داود عليه السلام من تسخير الجبال والطير والريح وإدانة الحديد ناسب ما به افتتحت السورة من أن الكل موكله وخلقه، فهو الآخر لها والتصرف في الكللءبما شاء، فقال تعالى: (الحمذ دتش الذي أة قاضي الستملوات وقع في الأرض وله الحمد في الآخرة! أ سبأ: أ،. وهذا أوضح التناسب.

وأما سورة الملائكة فمناسبة وصمه تعالى باخزاع السموات والأرض لما ذكره من خلق عالم في السموات من الملائكة وجعلهم زسلأ أولي أجنحة، وإمساكه السموات والأرض أن تزولا- أمين شيء وأؤضتحه؟ وليس

(١) معترك الأقران للسيوطي، المؤلف غير معروف ص/٦٠

شيء من هذه الأوصاف العلبة بمناسب لغير موضعه لمناسبته موضعه الوارد منه. فقد بان مجييء كل منها في موضعه ملائألما اتصل به. والله أ ٣.

قال الكزقاني في العجاﺋب: إن قيل كيف جاء يسألون أربع مرات بغير واو. ويسألونك عن الأهقة! أ البقرة: ١٨٩، ويسألونك ماذا ئمفون ! أ البقرة: ٢١٥، ويسألونك عن الشتفر الحزام ! أ البقرة: ٢١٧، ويسألونك عن الخمرة أ البقرة: ٢١٩، ثم جاء ثلاث مراب بالواو: (ويسألونك ماذا ئففون ! (ويسألونك عن اليتاضى!. (ويسألونك عن المريض ! أ البقرة: ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٢،.

قلنا: لأن سؤالهم عن الحوادث الأقل وقع متفرقا وعن الحوادث الأخر وقع

في وقت واحد؟ فجيء بحرف الجمع دلالة على ذلك.

فإن قيل: كيف تجاء: (ويسألونك عن الجبال قفل تئسيفقا زكي تسثفأ! أطه: ١٠٥، **وعادة القرآن** مجيء قل في الجواب بلا فاء؟ أجاب الكرداني بأن التقدير لو سئلت عنها قفل.

٦٥." (١)

"خاتمة ودعاء

الحمد لله الذي هدانا للإسلام وعلمنا الحكمة والقرآن وصلاة وسلاما على سيدنا محمد خير الأنام ... وبعد.

بهذا ينتهي ما جمعناه فى كتابنا هذا- (فقه قراءة القرآن الكريم) فما وجدت فيه- أخى الكريم- من صواب فمن الله عز وجل. فله سبحانه النعمة، وله الفضل، وله الثناء الحسن، وإن كان فيه من سهو أو خطأ، أو نسيان فمن نفسى، ومن الشيطان.

والله أسأل أن يتقبل منى أحسنه، وأن يغفر لى، وكما من على بإتمام هذا الكتاب أن يتم النعمة بقبوله وينفع به.

فاللهم إنا نسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته فى كتابك، أو علمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك: أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء أحزاننا، وذهاب غمومنا، وهمومنا.

اللهم ذكرنا منه ما نسينا، وعلمنا منه ما جهلنا، وارزقنا حق تلاوته آناء الليل وأطراف النهار على الوجه الذى يرضيك عنا. واجعله سائقا لنا إلى رضوانك والجنة. اللهم اجعله حجة لنا لا حجة علينا.

---

(١) معترك الأقران للسيوطي، المؤلف غير معروف ص/٧١

اللهم اجعلنا ممن يحل حلاله، ويحرم حرامه، ويتلوه حق تلاوته. اللهم اجعلنا ممن يقيم حروفه وحدوده، ولا تجعلنا ممن يقيم حروفه ويضيع حدوده، اللهم اجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهلك وخاصتك، يا أرحم الراحمين. اللهم أكرمنا بكرامة القرآن، وألبسنا بخلعة القرآن، وأسعدنا **بسعادة القرآن**، وشرفنا بشرف القرآن، وأدخلنا الجنة بشفاعة القرآن، ونجنا من النيران بحرمة القرآن.

اللهم هذا الدعاء، ومنك الإجابة، وهذا الجهد وعليك التكلان.." (١)

"المسألة السادسة:

قوله تعالى: وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم [التوبة: ٩/ ٤٠].

قرأ سائر القراء: وكلمة الله هي العليا على الاستئناف.

وانفرد يعقوب بالقراءة بالفتح: (وكلمة الله هي العليا) على العطف (١).

وضم القرطبي إلى يعقوب الأعمش في اختيار قراءة النصب، ولكنه نقل عن الفراء استنكاره لذلك من جهة اللغة (٢)؛ إذ لا تقول العرب: أعتق زيد غلام أبي زيد، بل تقول:

أعتق زيد غلام أبيه. وتمام الفصاحة أن يقال: وكلمته هي العليا.

ولكن التصريح في هذا المقام باسم الله أبلغ، وهو **عادة القرآن** العظيم فيما له مقام تشريف، أو موجب تنبيه؛ كما في قوله سبحانه: إذا زلزلت الأرض زلزالها* وأخرجت الأرض أثقالها [الزلزلة: ٩٩/ ١ - ٢]، فكرر ذكر الفاعل مع أن في الضمير غنية، وكذلك قوله: حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها [الكهف: ١٨/ ٧٧]، فكرر ذكر الأهل مع أن في إيراد الضمير غنية. ومثل ذلك ما أنشد لسيبويه:

لا أرى الموت يسبق الموت شيء ... نغص الموت ذا الغنى والفقيرا (٣)

وهذا الاحتجاج، ورده من باب تحصيل الحاصل محمول على عدم ثبوت تواتر القراءة عند المنكرين، وإلا فإنه بعد ثبوت تواتر القراءة ليس للكل إلا التسليم بجواز القراءة بها، وضبط قواعد العربية عليها، وليس العكس.

---

(١) تقريب النشر لابن الجزري، ١٢٠.

وعبارة الطيبة:

... / ... / ... / .. ظبي كلمة انصب بانيا ولم يأت الشاطبي على ذكر هذه القراءة لأنه اقتصر على

---

(١) فقه قراءة القرآن، سعيد عبد الجليل يوسف صخر ص/٩٥

السبع.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ٨/ ١٤٩.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ٨/ ١٤٩.." (١)

"تفسير قوله تعالى: (قد نرى تقلب وجهك في السماء)

ثم ذكر الله آية النسخ: ﴿قد نرى﴾ [البقرة:١٤٤] أي: ربما، وهي هنا للتكثير، كذا قال الزمخشري وهذا صحيح.

﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾ [البقرة:١٤٤] وهذا من أدب نبينا صلى الله عليه وسلم مع ربه، ﴿فلنولينك﴾ [البقرة:١٤٤] أي: فلنيسرن لك ونشرع لك ﴿قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ [البقرة:١٤٤]، فانتقلت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة.

﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ [البقرة:١٤٤] أي: الكعبة، قال بعض العلماء: المسجد الحرام أطلق في القرآن وفي السنة ويراد به أربعة أشياء: يراد به الكعبة، يراد به عين الكعبة، ويراد به المسجد المحيط بالكعبة، ويراد به مكة، ويراد به الحرم مما يشمله حدود الحرم.

الله يقول: ﴿ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾ [البقرة:١٩٦] أي: من أهل مكة، لكن ﴿إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ [التوبة:٢٨] يطلق على حدود الحرم.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾ [البقرة:١٤٤] الخطاب في قوله: (فولوا) للأمة، وفي قوله: (فول) للنبي صلى الله عليه وسلم، وهذه على غير عادة القرآن؛ لأن عادة القرآن إما أن يخاطب النبي وتكون الأمة تبعا له، وإما أن يخاطب الأمة ويكون النبي رأسا، لكن لا يأتي خبر في الغالب يذكر مرة لأمته، والجواب أن الله قال قبلها تمهيدا: ﴿وإن كانت لكبيرة﴾ [البقرة:١٤٣]، فلما كان أمرا ذا مشقة أكده الله جل وعلا بهذه الطريقة، وساقه بهذا الأسلوب، فخوطب به النبي وخوطبت به الأمة؛ لأنهم واجهوا عنتا شديدا في قضية قبوله، فالمشركون يقولون: حن محمد إلى مولده، والمنافقون يقولون: حن محمد إلى مولده، ولما أنزل الله جل وعلا الثناء على البيت وتمجيده وتعظيمه قالوا: إذا كان محمد يمجد هذا البيت كل التمجيد فلم يتوجه إلى بيت المقدس؟ ولهذا قال الله: ﴿سيقول السفهاء من الناس﴾ [البقرة:١٤٢]، فهنا خاطب الله نبيه، وخاطب أمته صلوات الله وسلامه عليه، فقال: ﴿فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من

---

(١) القراءات المتواترة وأثرها في الرسم القرآني والأحكام الشرعية، محمد الحبش ص/١٤٩

ربهم وما الله بغافل عما يعملون﴾ [البقرة:١٤٤] والمعنى: أن أهل الكتاب يعلمون فيما أنزل عليهم أن الله جل وعلا سيطلب من نبيه أن يتحول إلى الكعبة، اليهود والنصارى أهل الكتاب يعلمون أن الله جل وعلا سيأمر نبيه بالتحول إلى الكعبة، وأن آخر الأمر سيكون التوجه لكل من آمن بالله إلى الكعبة.

روى البغوي رحمه الله تعالى في شرح السنة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: الكعبة قبلة من في المسجد الحرام، والمسجد الحرام قبلة لأهل الحرم، والحرم قبلة لأهل المشرق والمغرب.

وقد اتفق المسلمون على أن التوجه للقبلة شرط من شروط صحة الصلاة، ويستثنى من هذا حالتان: الحالة الأولى: حال القتال.

الـحالة الثانية: حالة من يتنفل على ظهر الدابة حال السفر، فمن يتنفل على ظهر الدابة قبلته حيثما توجهت به دابته، وعند ابن حزم أنه يجوز حتى في داخل المدن، لكن قول الجمهور هو الصحيح، من يتنفل على دابته في سفر قبلته حيثما توجهت به دابته.

والمقاتل لاسيما المسايف قبلته جهة أمنه، أي وجهة يغلب على ظنه أنه يأمن بها تكون هي قبلته، كما أن الدابة حيثما توجهت هي قبلة من يصلي عليها متنفلا.." (١)

"سبب نزول هذه الآية

روى أبو نعيم وابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت في معاذ بن جبل وثعلبة بن غنمة قالا: يا رسول الله! ما بال الهلال يطلع دقيقا مثل الخيط؟ يعني: كان يشغل السائلين تفسير هذه الظاهرة وبتعبير معاصر كأنهم كانوا يسألوه عن التفسير العلمي للزيادة والنقصان في الهلال، وكان يمكن أن يقول لهم النبي عليه الصلاة والسلام: إن هذا ناشئ عن الظل حينما تكون الأرض بين الشمس والقمر، فإذا حجب ظل الأرض القمر لا يظهر منه شيء، ثم إذا انحسر قليلا يبدو الهلال، وكلما مر الوقت فإنه يزيد حتى يصير بدرا ثم ينعكس كما هو معروف في دورة القمر.

فهذا كأنه سؤال عما لا يغني وعما لا يفيد، فلذلك كان الجواب بما ينفع، فلم يفسر لهم هذا الذي كانوا يسألون عنه، وإنما انتقل إلى ما يفيدهم ويعود عليهم بالنفع تماما كما أجاب النبي صلى الله عليه وسلم الرجل الذي سأله: متى الساعة؟ فقال: (ما أعددت لها؟) فهو انصرف عن جواب سؤاله الذي لا يعنيه إلى ما يعنيه، ليس المهم متى الساعة، الساعة آتية ولو بعد أربعمائة سنة أو خمسمائة سنة أو أكثر أو أقل، وهذا لا يعنيك أنت، أنت لن تخلد شئت أم أبيت، أنت لك ساعتك، وقيامتك أنت يوم تموت، أما عمر

---

(١) سلسلة محاسن التأويل - المغامسي، صالح المغامسي ٤/٩

الدنيا فهذا لا يعنيك، وهذا مما استأثر الله بعلمه، فانتقل إلى جوابه عما يفيده وما يعنيه، فقال: (ما أعددت لها؟ قال: لا شيء غير أني أحب الله ورسوله، فقال صلى الله عليه وسلم: أنت مع من أحببت).

كذلك هذان الصحابيان قالا: يا رسول الله! ما بال الهلال يبدو أو يطلع دقيقا مثل الخيط ثم يزيد حتى يعظم ويستدير، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان، ولا يكون على حال واحدة؟ فنزلت هذه الآية: ((يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج))، فهنا أجاب السائل بغير ما كان يطلب، ونزل سؤاله منزلة غيره تنبيها للسائل على أن ذلك الغير هو الأولى بحاله، أو هو المهم له، فلما سأله عن السبب الفعلي للتشكلات النورية في الهلال، أجيب بما ترى من السبب الغائي تنبيها على أن السؤال عن الغاية والفائدة هو أليق بحالهم؛ لأن درك الأسباب الفاعلية لتلك التشكلات مبني على أمور من علم الهيئة لا عناية للشرع بها، وهذه تترك لأهل الدنيا يتكلمون فيها، **كعادة القرآن** في أن أمور الدنيا يترك الله سبحانه وتعالى الأمر فيها للناس؛ لأن الله أوضع فيهم القوة والقدرة العقلية على استنباط واكتشاف هذه الأشياء، لكن الشرع يخبرنا بالأمور المهمة التي تفيدنا، مثلا: صراخ المولود الطبيعي حين يولد نجد الأطباء لهم تفسيرات تتواءم مع علمهم وأمور الدنيا، فيقولون مثلا: من أجل أن يتنفس ويتفتق حلقه وغير ذلك من الأشياء التي هي من فوائد هذا الصراخ، في حين أن الوحي أخبرنا عن سبب آخر لا يتعارض مع هذه الأمور التي يمكن أن يعلمها الناس من أمور الدنيا، فتركها لهم ليكتشفوها، أما الذي لا سبيل إلى دركه فهو ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: (ما من مولود يولد إلا ويستهل صارخا إلا ابن مريم وأمه)؛ وذلك استجابة لدعوة امرأة عمران وهي أم مريم عليها السلام حينما قالت: ﴿وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾ [آل عمران:٣٦]، فيثبت النبي عليه الصلاة والسلام أن كل مولد يولد يطعنه الشيطان في خاصرته؛ إعلانا له بالعداوة من أول لحظة، وأنه سيتلقاه بالعداوة كما عادى أبويه من قبل، فهذا إعلان لعداوته له من أول لحظة ينزل فيها إلى الدنيا، فهذا لا يمكن أن يصل إليه العلم البشري، فلذلك تكفل الله سبحانه وتعالى بإيحائه إلى نبيه عليه الصلاة والسلام.

أما تفسيرات الظواهر الموجودة والمبثوثة في الآفاق وفي الكون وفي أنفسنا فتركت لأهل الدنيا يكتشفونها ويتحدثون عنها، أما الشرع فلا يهمه تفسير الهلال لماذا ينقص ويزيد وغير ذلك، فإنما يهمه الحكمة من وراء ذلك والغاية.

فذكر أن الغاية هي أن ذلك مواقيت للناس والحج.

يقول: فلو أجيبوا بأن اختلاف تشكلات الهلال بحسب محاذاته للشمس فإذا حاذاها طرف منه استنار

ذلك الطرف، ثم تزداد المحاذاة والاستنارة حتى إذا تمت بالمقابلة امتلأ، ثم تنقص المحاذاة والاستنارة حتى إذا حصل الاجتماع أظلم بالكلية؛ لكان هذا الجواب اشتغالا بعلم الهيئة الذي لا ينتفع به في الدين ولا يتعلق به صلاح معاشهم ومعادهم، والنبي صلى الله عليه وسلم إنما بعث لبيان ما يصلح ديننا ودنيانا.

وقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد) أخرجه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقال علي رضي الله عنه: من طلب علم النجوم تكهن.

وهو من العلم الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: (علم لا ينفع وجهل لا يضر) وإن كان لا يصح هذا الحديث.

عىى أي حال هذا أسلوب من الأساليب الحسنة في الجواب، إشعارا بأن الأولى السؤال عن الحكمة فيه وليس عن كيفية تشكله، ونظيره عند العرب أن شاعرا أتته امرأته تشكو إليه من كثرة الضيفان وقرى الأضياف، ونحتاج إلى الاستشهاد بهذه الأشعار؛ لأن القرآن نزل بلغة العرب، يقول الشاعر: أتت تشتكي عندي مداولة القرى وقد رأت الضيفان ينحون منزلي فقلت كأني ما سمعت كلامها هم الضيف جدي في قراهم وعجلي فلم يجبها فيما شكت إليه، وانتقل إلى ما يفيد ويجدي.

وكما قال أيضا تبارك وتعالى: ﴿يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ [البقرة:٢١٥]، سألوا عن بيان الشيء الذي يخرجونه، فأجيبوا ببيان المصرف الذي ينفقونه؛ لأن هذا هو الذي يفيدهم، فينزل سؤال السائل منزلة غير سؤاله لتوخي التنبيه له بألطف وجه على موضع سؤال هو أليق بحاله أن يسأل عنه، أو هو أهم له إذا تأمله، وهذا بلا شك: ينشط السامع إلى ما سمعه، وهذا الأسلوب الحكيم لربما طابق المقام فحرك من نشاط السامع ما سلبه حكم الوقوف، وأبرزه في معرض المذكور، وهل ألان شكيمة الحجاج في ذلك الخارجي، وسل سخيمته حتى آثر أن يحسن على أن يسيء، غير أن سحره بهذا الأسلوب؟ إذ توعده الحجاج بالقيد في قوله: لأحملنك على الأدهم، فقال متغاضيا -أي: الرجل قالها بصيغة التغاضي-: مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب! ف الحجاج كان يتهدده أنه يركبه على الفرس الأدهم، ويطاف به في الأسواق، وهذا أسلوب من أساليب المعاقبة من قبل.

فالرجل تغاضى عن ذلك وسحر الحجاج بأسلوبه حينما لجأ إلى هذا الأسلوب الحكيم الذي نتحدث عنه، فلما قال له: لأحملنك على الأدهم، أظهر له أنه فهم غير ما أراد، وهو يعلم حقيقة ذلك، ولكنه تغابى،

وكأنه فهم أنه يريد أن يكرمه، وسيحمله على الفرس الأدهم، فقال: مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب يعني: مثلك رجل شريف ذو سلطان ولا يليق بك أن تحمل على الأدهم، بل تحملنا على شيء أعظم من ذلك، فقال متغاضيا: مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب، مبرزا وعيده في معرض الوعد، مترتبا بأن يريه بألطف وجه أن امرأ مثله في مكمل الإمرة المطاعة خليق بأن يفد لا أن يوفد، وأن يعد لا أن يوعد.." (١)

"تفسير قوله تعالى: (وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة)

قال تبارك وتعالى: ﴿وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا﴾ [النساء:١٠٢].

قوله: ((وإذا كنت فيهم)) يعني: إذا كنت يا محمد حاضرا فيهم، وأنتم تخافون العدو.

((فأقمت لهم الصلاة)) يعني: فأقمت لهم صلاة الخوف، وهذا جرى على **عادة القرآن** في الخطاب، فلا مفهوم له، أي: ليس حضوره صلى الله عليه وسلم شرطا لإقامة صلاة الخوف كما سنبين إن شاء الله تعالى عما قريب.

وبعض الناس يقولون: إنه لا تصلى صلاة الخوف إلا في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال: ((وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك))، فإذا لم يكن فهم بعد موته عليه الصلاة والسلام، ألا يصلي الإمام الناس؟ بلى يصلي، وهذا نفس الاستدلال الذي استدل به بعض مانعي الزكاة في تأويلهم الفاسد لقوله تعالى: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾ [التوبة:١٠٣]، قالوا: هذا فقط في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام، أما إذا مات الرسول عليه الصلاة والسلام فنحن لا ندفع لغيره؛ لأن الأمر إنما هو إلى الرسول بنفسه، وسيأتي الرد على ذلك إن شاء الله.

((فلتقم طائفة منهم معك)) يعني: طائفة تقوم معك وطائفة تتأخر.

((وليأخذوا أسلحتهم)) يعني: هؤلاء الذين يصلون معك يأخذون أسلحتهم معهم في الصلاة.

والمقصود بالأسلحة هنا: الأسلحة التي لا تتعارض مع الصلاة، كالأسلحة الخفيفة التي يسهل حملها أثناء

---

(١) تفسير القرآن الكريم – المقدم، محمد إسماعيل المقدم ١٤/٤

الصلاة دونما مشقة تعيق عن أداء الصلاة.

((فإذا سجدوا)) سجدوا هنا بمعنى: صلوا.

((فليكونوا من ورائكم))، يعني: تكون الطائفة الأخرى من ورائكم، يحرسونكم إلى أن تقضوا الصلاة، ثم تذهب هذه الطائفة لتحرس.

((ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم)) أي: معهم إلى أن تقضوا الصلاة، وقد فعل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ببطن نخل كما رواه الشيخان.

في هذه الآيات بالذات كما جاء في كتب التفسير أن الصحابة كانوا متحركين في جهة القبلة، والأعداء كانوا في الجهة المقابلة، فكيف تكون صفة هذه الصلاة وهم بهذا الاتجاه؟ يقف صف يصلي وهو مستقبل القبلة مع النبي عليه الصلاة والسلام، والصف الآخر يقف وراءه يحرسهم، وهو معنى قوله: ((فليكونوا من ورائكم)) وسيأتي بيان تفصيل صلاة الخوف في الأحاديث.

((ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم))، يعني: تمنوا لو تغفلون عن الأسلحة حال قيامكم إلى الصلاة.

((فيميلون عليكم ميلة واحدة))، يعني: بأن يحملوا عليكم فيأخذوكم، هنا تعليل بالأمر لهؤلاء الذين يصلون بأن يأخذوا معهم الأسلحة.." (١)

"تفسير قوله تعالى: (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إلي)

قال تعالى: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون﴾ [الأنعام:٩٣].

قوله تعالى: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا﴾ [الأنعام:٩٣] أي: اختلق إفكا فجعل له شركاء أو ولدا، أو افترى أحكاما في الحل والحرمة، كـ عمرو بن لحي وأشباهه ممن ينطبق عليهم قول الله: ﴿أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء﴾ [الأنعام:٩٣] وممن ادعى النبوة كذبا، وهذا يزيد على الافتراء في دعوى النبوة، وهذا تهديد على سبيل الإجمال، **كعادة القرآن**، فإنه يدخل فيه كل من اتصف بشيء من ذلك.

وقوله: (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء) يعني: لا أحد أظلم من هؤلاء، (ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله) يعني من ادعى أنه يعارض ما جاء من عند الله من الوحي، بما

---

(١) تفسير القرآن الكريم – المقدم، محمد إسماعيل المقدم ١١/٣٧

يفتريه من القول، كـ النضر بن الحارث، وهذا كقوله تعالى: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾ [الأنفال: ٣١].

فقوله: ﴿ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله﴾ [الأنعام:٩٣] يعني من ينكر إعجاز القرآن الكري، حتى قال: (سأنزل مثلما أنزل الله) مع أنه قد عرف إعجازه، فكأنه ادعى لنفسه قدرة الله، وكأنه -أيضا- ادعى الإلهية لنفسه؛ لأن القرآن لا يقدر على أن يأتي به على هذه الصورة المعجزة إلا الله سبحانه وتعالى، فمن قال: سأنزل مثلما أنزل الله فكأنه يدعي أنه قادر على ما لا يقدر عليه إلا الله من هذه المعجزة الظاهرة، وكأنه يسوي قدرته بقدرة الله، ويلزم من ذلك أنه يدعي الإلهية لنفسه، ولا يجترئ على هذه الوجوه من الظلم من يؤمن بالآخرة، فيعلم ما للظالمين فيها المبين في قوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت﴾ [الأنعام:٩٣] يعني أصحاب هذه الأقوال وهذه الأفعال المذكورة في أول الآية بقوله تعالى: (ومن أظلم ممن افترى على الكذب أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله) فإنه لا أحد أظلم من هؤلاء، وهؤلاء هم الظالمون؛ لأن الإنسان الذي عنده إيمان بالآخرة وخوف من العاقبة والآخرة وما أعد الله للظالمين فيها لا يجترئ على أن يأتي بشيء من هذه الأشياء المشار إليها في الآية، فمن ثم استطردت الآية في ذكر أحوال الظالمين في الآخرة، باعتبار أن هؤلاء أظلم الظالمين.

يقول تعالى: (ولو ترى) أي: انظر إلى أحوالهم: (ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم) قوله تعالى: (في غمرات الموت) أي: في شدائده وسكراته وكرباته (والملائكة باسطوا أيدهم) أي: بالضرب والعذاب.

وهذا كقوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ [الأنفال: ٥٠].

وقوله: ((أخرجوا أنفسكم)) أي: قائلين لهم: أخرجوا إلينا أرواحكم من أجسادكم.

تغليظا وتوبيخا وتعنيفا لهم، والظاهر أنه لا يمكن أن يكون في ذلك مجاز، وإنما هو حقيقة، وأن هذا يحصل حقيقة مع الكفار عند احتضارهم على الصورة المحكية، ومتى ما أمكن حمله على الحقيقة فلا نعدل عنه إلى المجاز.

قال الحافظ ابن كثير: إن الكافر إذا احتضر بشرته الملائكة بالعذاب والنكال والأغلال والسلاسل والجحيم والحميم وغضب الرحمن الرحيم، فتتفرق روحه في جسده، وتعصي وتأبى الخروج، وروحه تهرب خوفا من الملائكة، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم قائلين لهم وهم يخرجون: (أخرجوا أنفسكم) ومما يؤيد الحقيقة ويبعد المجاز قوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم

وأدبارهم﴾ [الأنفال:٥٠] فإن الحقيقة صريحة في قوله: (ولو ترى) وقوله: (يضربون)، ومراعاة النظائر القرآنية أعظم ما يفيد في باب التأويل.

قال السيوطي في (الإكليل): في هذه الآية بيان حال الكافر عند القبر وعذاب القبر، واستدل بها محمد بن قيس على أن لملك الموت أعوانا من الملائكة.

لأنه هنا ذكر مجموعة من الملائكة وليس ملكا واحدا.

يقول تعالى: ﴿أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون﴾ قوله: (اليوم) يعني وقت الإهانة، أو الوقت الممتد من الإماتة إلى ما لا نهاية له، أي: من الآن فصاعدا، فمن وقت الإهانة لكم عذاب دائم لا ينقطع.

وقوله: (تجزون عذاب الهون) أي: الهوان الشديد (بما) أي: بسبب (بما كنتم تقولون على الله غير الحق) كالتحريف، وكدعوى النبوة الكاذبة، وهو جرأة على الله متضمنة للاستهانة به سبحانه وتعالى (وكنتم عن آياته تستكبرون) حتى قال بعضكم: (سأنزل مثل ما أنزل الله).." (١)

"تفسير قوله تعالى: (إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون)

والقسم الآخر: أهل النار والعياذ بالله نسأل الله العفو والعافية، قال تعالى: ﴿إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون﴾ [الزخرف:٧٤]، وهذه عادة القرآن العظيم، إذا ذكر أهل الجنة ذكر أهل النار، حتى يكون الإنسان بين الرغبة والرهبة، بين الخوف مما عند الله وبين الأمل والرجاء فيما عند الله سبحانه تبارك وتعالى، وهكذا المؤمن دائما يسير بين الخوف والرجاء، وبين الرغبة والرهبة، وبين الطمع وبين الخوف والخشية.

أما المجرمون الذين أجرموا وأساءوا إلى أنفسهم وإلى دينهم وإلى رسل الله عليهم الصلاة والسلام فيقول الله عنهم: ﴿إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون﴾ [الزخرف:٧٤]، وهي نار الآخرة والعياذ بالله، نار مستعرة، أسماؤها في القرآن أسماء شديدة تدل على قبح ما فيها، وعلى شدتها وسعيرها، وجنهم بمعنى: البعيدة الغور، والبعيدة القاع، فيقال: بئر جهنام، بمعنى: بئر عظيمة القعر، ونار جهنم التي يلقى فيها صخرة من فوقها فلا تصل إلى قاعها إلا بعد سبعين عاما، هذه هي النار الفظيعة العظيمة قال تعالى: ﴿إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون﴾ [الزخرف:٧٤]، أي: لا يخرجون منها، فهؤلاء هم الكفار والعياذ بالله الذين أجرموا.." (٢)

---

(١) تفسير القرآن الكريم - المقدم، محمد إسماعيل المقدم ١٥/٥٤

(٢) تفسير أحمد حطيبة، أحمد حطيبة ٨/٤٥٨

"تفسير قوله تعالى: (قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى)

فلما رجعوا إلى قومهم منذرين ﴿قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى﴾ [الأحقاف:٣٠] وهذا كعادة القرآن في ذكر كتاب موسى وكتاب محمد صلى الله عليه وسلم، لأن كتاب موسى كان كتاب شريعة، وأما الإنجيل كتاب عيسى عليه الصلاة والسلام فلم يكن كتاب شريعة، وإنما كان كتاب حكم ومواعظ، وبشارة لمجيء النبي صلى الله عليه وسلم، وعندما يقال: العهد الجديد والعهد القديم فإن القديم هو التوراة التي فيها الشريعة.

فإذا قيل الكتاب الذي قبل القرآن فهو كتاب موسى عليه الصلاة والسلام الذي فيه التشريع من الله سبحانه وتعالى، فكأن الجن قالوا: هذا كتاب تشريع كما كان كتاب موسى كتاب تشريع.

وقوله تعالى: ((مصدقا لما بين يديه)) أي: مصدقا للكتب السابقة وما جاء فيها من التشريعات والعقائد، من قصص الأنبياء.

وقوله: ((يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم)) أي: يهدي إلى أمر الله عز وجل، وإلى الطريق المستقيم، وهو الطريق الموصل إلى جنة الله ورضوانه.

قال الله تعالى: ((يا قومنا أجيبوا داعي الله)) فالجن يطلبون من أقوامهم أن يستجيبوا للنبي صلى الله عليه وسلم، ويؤمنوا به، فإن فعلتم ذلك فالله يغفر لكم من ذنوبكم بفضله وكرمه، وبسبب استجابتكم، ولأن الإسلام يجب ما قبله كما في حديث النبي صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى: ((يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم)).

نسأل الله عز وجل أن يغفر لنا ذنوبنا، وأن يجيرنا من عذابه سبحانه.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم، وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.." (١)

"ما يكون «١».

فقد اكتفى البيان القرآني بالهمة والقصد، فما قرأنا انكشاف صدر، أو نزع ثياب، أو تأوهات، كما هي الحال في كثير من الأدب الروائي، مما يثير الغرائز الحيوانية، ويستفز النوازع المريضة.

وضح القدامى هذه الجمالية في معرض حديثهم عن الأسلوب الكنائي في القرآن، ونحن إذا قلبنا صفحات كتبهم، وطالعنا أبواب الكناية نجد الشواهد الرائعة التي دلت على ذوق وتدبر.

---

(١) تفسير أحمد حطيبة، أحمد حطيبة ٩/٤٩١

وعلى سبيل المثال لا الحصر نورد شاهدا يذكره الزركشي في باب الكناية، وقد نقله السيوطي في باب الكناية أيضا مع غيره من الشواهد التي ذكرها سلفه، ولتوضيح هذا نذكر من الوقفات التي تفرد بها الزركشي ما كان في تأمل الآية:

فالآن باشروهن «٢»، إذ يقول: ومن **عادة القرآن** العظيم الكناية عن الجماع باللمس والملامسة والرفث، والدخول والنكاح ونحوهن، فكنى بالمباشرة عن الجماع، لما فيه من التقاء البشرتين» «٣».

فكأن الكناية هنا استلزمت أخذ جزء بسيط من المكنى عنه، ونجد أن الزركشي يعول على الأصل اللغوي، ونظير ما جاء في تفسيره لمعنى الفرج، إذ يقول حول الآيتين: والتي أحصنت فرجها «٤»، والذين هم لفروجهم حافظون «٥»: «أخطأ من توهم هنا الفرج الحقيقي، وإنما هو من لطيف الكنايات وأحسنها، وهي كناية عن فرج القميص، أي لم يعلق ثوبها ريبة، فهي طاهرة الأثواب، وفروج القميص أربعة: الكمان، والأعلى والأسفل، وليس

---

(١) أبو السعود العمادي، محمد بن محمد، إرشاد العقل السليم: ٤/ ٢٦٦. ولم يلزا: لم يلتصقا، والقرن: الحبل يجمع به البعيران.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

(٣) الزركشي، محمد بن عبد الله، البرهان: ٢/ ٣٣، وانظر السيوطي: جلال الدين الإتقان: ٢/ ١٠٢.

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٩١.

(٥) سورة المؤمنون، الآية: ٥.." (١)

"* دراسة السبب:

هكذا جاء في سبب نزول هذه الآية الكريمة. وقد انفرد ابن كثير من بين جمهور المفسرين برواية الحديث عند تفسيره للآية.

وساق الطبري بإسناده قريبا من ذلك عن الربيع بن أنس قال: (نزلت هذه الآية (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) وهم يصومون ثلاثة أيام من الشهر ويؤدون عشر أموالهم، ثم نزلت الفرائض بعد ذلك: صوم رمضان، والزكاة) اهـ.

والظاهر - والله أعلم - أن نزول الآية ليس له صلة بصيامهم، ولهذا لم يذكر جل المفسرين هذا الحديث،

---

(١) جماليات المفردة القرآنية، أحمد ياسوف ص/٢٥٧

ومما يؤيد هذا ما تبين من وهم عاصم الأحول أحد رواة الحديث فقد خالفه أناس أثبت منه وأحفظ كما تبين من دراسة إسناد الحديث.

وهنا أمر ثالث ذكره ابن عاشور حيث أشار إلى ارتباط الآية بما قبلها فقال بعد ذكر الآية: (من عادة القرآن أنه إذا أنذر أعقب الإنذار ببشارة لمن لا يحق عليه ذلك الإنذار، وإذا بشر أعقب البشارة بنذارة لمن يتصف بضد ما بشر عليه، وقد جرى على ذلك هاهنا: فإنه لما أنذر المؤمنين وحذرهم من التريث في اكتساب الخير قبل أن يأتي بعض آيات الله القاهرة بقوله: (لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا) فحد لهم بذلك حدا هو من مظهر عدله أعقب ذلك ببشرى من مظاهر فضله وعدله وهي الجزاء على الحسنة بعشر أمثالها والجزاء على السيئة بمثلها) اهـ.

* النتيجة:

أن الآية لم تنزل بسبب الحديث المذكور وذلك لعلة إسناده، وإعراض أكثر المفسرين عن ذكره، وارتباط الآية بما قبلها والله أعلم.." (١)

"هدى

[محمد: ١٧] وهذه الزوائد والفوائد والمزايا يجوز حصولها في الدنيا قبل الموت، ويجوز حصولها في الآخرة بعد الموت، قال القفال: وإذا حملنا الآية على هذا الوجه كان المعنى يهديهم ربهم بإيمانهم وتجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم، إلا أن حذف الواو وجعل قوله: تجري خبرا مستأنفا منقطعا عما قبله.

والتأويل الثالث: أن الكلام في تفسير هذه الآية يجب أن يكون مسبوقا بمقدمات.

المقدمة الأولى: أن العلم نور والجهل ظلمة وصريح العقل يشهد بأن الأمر كذلك، ومما يقرره أنك إذا ألقيت مسألة جليلة شريفة على شخصين، فاتفق أن فهمها أحدهما وما فهمها الآخر، فإنك ترى وجه الفاهم متهللا مشرقا مضيئا، ووجه من لم يفهم عبوسا مظلما منقبضا، ولهذا السبب جرت عادة القرآن بالتعبير عن العلم والإيمان والنور، وعن الجهل والكفر بالظلمات.

والمقدمة الثانية: أن الروح كاللوح، والعلوم والمعارف كالنقوش المنقوشة في ذلك اللوح. ثم هاهنا دقيقة، وهي أن اللوح الجسماني إذا رسمت فيه نقوش جسمانية فحصول بعض النقوش في ذلك اللوح مانع من حصول سائر النقوش فيه، فأما لوح الروح فخاصيته على الضد من ذلك، فإن الروح إذا كانت خالية عن نقوش المعارف والعلوم فإنه يصعب عليه تحصيل المعارف والعلوم، فإذا احتال وحصل شيء منها، كان

(١) المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة، خالد المزيني ٥٣٧/١

حصول ما حصل منها معينا له على سهولة تحصيل الباقي، وكلما كان الحاصل أكثر كان تحصيل البقية أسهل، فالنقوش الجسمانية يكون بعضها مانعا من حصول الباقي، والنقوش الروحانية يكون بعضها معينا على حصول البقية، وذلك يدل على أن أحوال العالم الروحاني بالضد من أحوال العالم الجسماني.

المقدمة الثالثة: أن الأعمال الصالحة عبارة عن الأعمال التي تحمل النفس على ترك الدنيا وطلب الآخرة، والأعمال المذمومة ما تكون بالضد من ذلك.

إذا عرفت هذه المقدمات فنقول: الإنسان إذا آمن بالله فقد أشرق روحه بنور هذه المعرفة، ثم إذا واظب على الأعمال الصالحة حصلت له ملكة مستقرة في التوجه إلى الآخرة وفي الإعراض عن الدنيا، وكلما كانت هذه الأحوال أكمل كان استعداد النفس لتحصيل سائر المعارف أشد، وكلما/ كان الاستعداد أقوى وأكمل كانت معارج المعارف أكثر وإشراقها ولمعانها أقوى، ولما كان لا نهاية لمراتب المعارف والأنوار العقلية، لا جرم لا نهاية لمراتب هذه الهداية المشار إليها بقوله تعالى: يهديهم ربهم بإيمانهم.

المسألة الثانية: قوله تعالى: تجري من تحتهم الأنهار المراد منه أنهم يكونون جالسين على سرر مرفوعة في البساتين والأنهار تجري من بين أيديهم، ونظيره قوله تعالى: قد جعل ربك تحتك سريا [مريم: ٢٤] وهي ما كانت قاعدة عليها، ولكن المعنى بين يديك، وكذا قوله: وهذه الأنهار تجري من تحتي [الزخرف: ٥١] المعنى بين يدي فكذا هاهنا.

المسألة الثالثة: الإيمان هو المعرفة والهداية المترتبة عليها أيضا من جنس المعارف، ثم إنه تعالى لم يقل يهديهم ربهم إيمانهم بل قال: يهديهم ربهم بإيمانهم وذلك يدل على أن العلم بالمقدمتين لا يوجب العلم بالنتيجة، بل العلم بالمقدمتين سبب لحصول الاستعداد التام لقبول النفس للنتيجة ثم إذا حصل هذا." (١)

"بهذين الأمرين وعدهم هود عليه السلام، أنهم لو تركوا عبادة الأصنام واشتغلوا بالاستغفار والتوبة فإن الله تعالى يقوي حالهم في هذين المطلوبين ويزيدهم فيها درجات كثيرة،

ونقل أيضا أن الله تعالى لما بعث هودا عليه السلام إليهم وكذبوه وحبس الله عنهم المطر سنين وأعقم أرحام نسائهم فقال لهم هود: إن آمنتم بالله أحيا الله بلادكم ورزقكم المال والولد،

فذلك قوله: يرسل السماء عليكم مدرارا والمدرار الكثير الدر وهو من أبنية المبالغة وقوله: ويزدكم قوة إلى قوتكم ففسروا هذه القوة بالمال والولد، والشدة في الأعضاء، لأن كل ذلكم ما يتقوى به الإنسان.

فإن قيل: حاصل الكلام هو أن هودا عليه السلام قال: لو اشتغلتم بعبادة الله تعالى لانفتحت عليكم أبواب

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢١٤/١٧

الخيرات الدنيوية، وليس الأمر كذلك،
لأنه عليه الصلاة والسلام قال: «خص البلاء بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل»
فكيف الجمع بينهما، وأيضا فقد جرت عادة القرآن بالترغيب في الطاعات بسبب ترتيب الخيرات الدنيوية والأخروية عليها، فأما الترغيب في الطاعات، لأجل ترتيب الخيرات الدنيوية عليها، فذلك لا يليق بالقرآن بل هو طريق مذكور في التوراة.
الجواب: أنه لما أكثر الترغيب في السعادات الأخروية لم يبعد الترغيب أيضا في خير الدنيا بقدر الكفاية.
وأما قوله: ولا تتولوا مجرمين فمعناه: لا تعرضوا عني وعما أدعوكم إليه وأرغبكم فيه مجرمين أي مصرين على إجرامكم وآثامكم.

[سورة هود (١١) : الآيات ٥٣ الى ٥٦]

قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين (٥٣) إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون (٥٤) من دونه فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون (٥٥) إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم (٥٦)

اعلم أنه تعالى لما حكى عن هود عليه السلام ما ذكره للقوم، حكى أيضا ما ذكره القوم له وهو أشياء:
أولها: قولهم: ما جئتنا ببينة أي بحجة، والبينة سميت بينة لأنها تبين الحق من الباطل، ومن المعلوم أنه عليه السلام كان قد أظهر المعجزات إلا أن القوم بجهلهم أنكروها، وزعموا أنه ما جاء بشيء من المعجزات.
وثانيها: قولهم: وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وهذا أيضا ركيك، لأنهم/ كانوا يعترفون بأن النافع والضار هو الله تعالى وأن الأصنام لا تنفع ولا تضر، ومتى كان الأمر كذلك فقد ظهر في بديهة العقل أنه لا تجوز عبادتها وتركهم آلهتهم لا يكون عن مجرد قوله بل عن حكم نظر العقل وبديهة النفس. وثالثها: قوله: وما نحن لك بمؤمنين وهذا يدل على الإصرار والتقليد والجحود. ورابعها: قولهم: إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء يقال: اعتراه كذا إذا غشيه وأصابه. والمعنى: أنك شتمت آلهتنا فجعلتك مجنونا وأفسدت عقلك، ثم إنه تعالى ذكر أنهم لما قالوا ذلك قال هود عليه السلام: إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه وهو ظاهر.

ثم قال: فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون وهذا نظير ما قاله نوح عليه السلام لقومه: فأجمعوا أمركم وشركاءكم إلى قوله: ولا تنظرون [يونس: ٧١] .." (١)

"عند [ذوي] العقول من إيصال النفع لا جرم قدم الإنذار على التبشير في اللفظ، قال صاحب «الكشاف» وقرئ ويبشر بالتخفيف والتثقيل وقوله: ماكثين فيه أبدا يعني خالدين وهو حال للمؤمنين من قوله: أن لهم أجرا، قال القاضي: الآية دالة على صحة قولنا في مسائل، أحدها: أن القرآن مخلوق وبيانه من وجوه.

الأول: أنه تعالى وصفه بالإنزال والنزول وذلك من صفات المحدثات فإن القديم لا يجوز عليه التغير.

الثاني:

وصفه بكونه كتابا والكتب هو الجمع وهو سمي كتابا لكونه مجموعا من الحروف والكلمات وما صح فيه التركيب والتأليف فهو محدث. الثالث: أنه تعالى أثبت الحمد لنفسه على إنزال الكتاب والحمد إنما يستحق على النعمة والنعمة محدثة مخلوقة. الرابع: أنه وصف الكتاب بأنه غير معوج وبأنه مستقيم والقديم لا يمكن وصفه بذلك فثبت أنه محدث مخلوق. وثانيها: مسألة خلق الأعمال فإن هذه الآيات تدل على قولنا في هذه المسأرة من وجوه. الأول: نفس الأمر بالحمد لأنه لو لم يكن للعبد فعل لم ينتفع بالكتاب إذا الانتفاع به إنما يحصل إذا قدر على أن يفعل ما دل الكتاب على أنه يجب فعله ويترك ما دل الكتاب على أنه يجب تركه وهو إنما يفعل ذلك لو كان مستقلا بنفسه، أما إذا لم يكن مستقلا بنفسه لم يكن لعوج الكتاب أثر في اعوجاج فعله ولم يكن لكون الكتاب قيما أثر في استقامة فعله، أما إذا كان العبد قادرا على الفعل مختارا فيه بقي لعوج الكتاب واستقامته أثر في فعله. والثاني: أنه تعالى لو كان أنزل بعض الكتاب ليكون سببا لكفر البعض وأنزل الباقي ليؤمن البعض الآخر فمن أين أن الكتاب قيم لا عوج فيه؟ لأنه لو كان فيه عوج لما زاد على ذلك. والثالث:

قوله: لينذر وفيه دلالة على أنه تعالى أراد منه صلى الله عليه وسلم/ إنذار الكل وتبشير الكل وبتقدير أنه يكون خالق الكفر والإيمان هو الله تعالى لم يبق للإنذار والتبشير معنى لأنه تعالى إذا خلق الإيمان فيه حصل شاء أو لم يشأ وإذا خلق الكفر فيه حصل شاء أو لم يشاء فبقي الإنذار والتبشير على الكفر والإيمان جاريا مجرى الإنذار والتبشير على كونه طويلا قصيرا وأسود وأبيض مما لا قدرة له عليه. والرابع: وصفه المؤمنين بأنهم يعملون الصالحات فإن كان ما وقع خلق الله تعالى فلا عمل لهم البتة. الخامس: إيجابه

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٦٤/١٨

لهم الأجر الحسن على ما عملوا فإن كان الله تعالى يخلق ذلك فيهم فلا إيجاب ولا استحقاق.
المسألة الرابعة: قال قوله: لينذر يدل على أنه تعالى إنما يفعل أفعاله لأغراض صحيحة وذلك يبطل قول من يقول إن فعله غير معلل بالغرض، واعلم أن هذه الكلمات قد تكررت في هذا الكتاب فلا فائدة في الإعادة.

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ٤ الى ٦]
وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا (٤) ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا (٥) فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا (٦)
[في قوله تعالى وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا] في الآية مسائل:
المسألة الأولى: اعلم أن قوله تعالى: وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا معطوف على قوله: لينذر بأسا شديدا من لدنه [الكهف: ٢] والمعطوف يجب كونه مغايرا للمعطوف عليه فالأول عام في حق كل من استحق العذاب. والثاني خاص بمن أثبت لله ولدا، **وعادة القرآن** جارية بأنه إذا ذكر قضية كلية عطف عليها بعض." (١)

"ثم قال تعالى: له الملك وهذا يفيد الحصر أي له الملك لا لغيره، ولما ثبت أنه لا ملك/ إلا له وجب القول بأنه لا إله إلا هو لأنه لو ثبت إله آخر، فذلك الإله إما أن يكون له الملك أو لا يكون له الملك، فإن كان له الملك فحينئذ يكون كل واحد منهما مالكا قادرا ويجري بينهما التمانع كما ثبت في قوله: لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا [الأنبياء: ٢٢] وذلك محال، وإن لم يكن للثاني شيء من القدرة والملك فيكون ناقصا ولا يصلح للإلهية، فثبت أنه لما دل الدليل على أنه لا ملك إلا الله، وجب أن يقال لا إله للعالمين ولا معبود للخلق أجمعين إلا الله الأحد الحق الصمد، ثم اعلم أنه سبحانه لما بين بهذه الدلائل كمال قدرة الله سبحانه وحكمته ورحمته، رتب عليه تزييف طريقة المشركين والضالين من وجوه الأول: قوله: فأنى تصرفون يحتج به أصحابنا ويحتج به المعتزلة. أما أصحابنا فوجه الاستدلال لهم بهذه الآية: أنها صريحة في أنهم لم ينصرفوا بأنفسهم عن هذه البيانات بل صرفها عنهم غيرهم، وما ذاك الغير إلا الله، وأيضا فدليل العقل يقوي ذلك لأن كل واحد يريد لنفسه تحصيل الحق والصواب، فلما لم يحصل ذلك وإنما حصل الجهل والضلال علمنا أنه من غيره لا منه، وأما المعتزلة فوجه الاستدلال لهم: أن قوله: فأنى تصرفون تعجب من هذا الانصراف، ولو كان الفاعل لذلك الصرف هو الله تعالى لم يبق لهذا التعجب

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢١/٤٢٤

معنى.

ثم قال تعالى: إن تكفروا فإن الله غني عنكم والمعنى أن الله تعالى ما كلف المكلفين ليجر إلى نفسه منفعة أو ليدفع عن نفسه مضرة، وذلك لأنه تعالى غني على الإطلاق، ويمتنع في حقه جر المنفعة ودفع المضرة، وإنما قلنا إنه غني لوجوه: الأول: واجب الوجود لذاته وواجب الوجود في جميع صفاته، ومن كان كذلك كان غنيا على الإطلاق الثاني: أنه لو كان محتاجا لكانت تلك الحاجة إما قديمة وإما حادثة. والأول باطل وإلا لزم أن يخلق في الأزل ما كان محتاجا إليه وذلك محال، لأن الخلق والأزل متناقض. والثاني باطل لأن الحاجة نقصان والحكيم لا يدعوه الداعي إلى تحصيل النقصان لنفسه الثالث: هب أنه يبقى الشك في أنه هل تصح الشهوة والنفرة والحاجة عليه أم لا؟ أما من المعلوم بالضرورة أن الإله القادر على خلق السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم والعرش والكرسي والعناصر الأربعة، والمواليد الثلاثة يمتنع أن ينتفع بصلاة زيد وصيام عمرو، وأن يضر بعدم صلاة هذا وعدم صيام ذاك، فثبت بما ذكرنا أن جميع العالمين لو كفروا وأصروا على الجهل فإن الله غني عنهم.

ثم قال تعالى بعده: ولا يرضى لعباده الكفر يعني أنه وإن كان لا ينفعه إيمان ولا يضره كفران إلا أنه لا يرضى بالكفر، واحتج الجبائي بهذه الآية من وجهين: الأول: أن المجبرة يقولون إن الله تعالى خلق كفر العباد وإنه من جهة ما خلقه حق وصواب، قال ولو كان الأمر كذلك لكان قد رضي الكفر من الوجه الذي خلقه، وذلك ضد الآية الثاني: لو كان الكفر بقضاء الله تعالى لوجب علينا أن نرضى به لأن الرضا بقضاء الله تعالى واجب، وحيث اجتمعت الأمة على أن الرضا بالكفر كفر ثبت أنه ليس بقضاء الله وليس أيضا برضاء الله تعالى، وأجاب/ الأصحاب عن هذا الاستدلال من وجوه الأول: أن **عادة القرآن** جارية بتخصيص لفظ العباد بالمؤمنين، قال الله تعالى: وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا [الفرقان: ٦٣] وقال: عينا يشرب بها عباد الله [الإنسان: ٦] وقال: إن عبادي ليس لك عليهم سلطان [الحجر: ٤٢] فعلى هذا التقدير قوله: ولا يرضى لعباده الكفر ولا يرضى للمؤمنين الكفر، وذلك لا يضرنا الثاني: أنا نقول الكفر." (١)

"تلك المحبة بالنفرة، لأن تلك المحبة إنما حصلت لاعتقاد حصول الخير والراحة، فإذا زال ذلك الاعتقاد، وحصل عقيبه اعتقاد أن الحاصل هو الضرر والألم، وجب أن تتبدل تلك المحبة بالبغضة، لأن تبدل العلة يوجب تبدل المعلول، أما إذا كانت الخيرات الموجبة للمحبة، خيرات باقية أبدية، غير قابلة

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٢٥/٢٦

للتبدل والتغير، كانت تلك المحبة أيضا محبة باقية آمنة من التغير، إذا عرفت هذا الأصل فنقول الذين حصلت بينهم محبة ومودة في الدنيا، إن كانت تلك المحبة لأجل طلب الدنيا وطيباتها ولذاتها، فهذه المطالب لا تبقى في القيامة، بل يصير طلب الدنيا سببا لحصول الآلام والآفات في يوم القيامة، فلا جرم تنقلب هذه المحبة الدنيوية بغضة ونفرة في القيامة، أما إن كان الموجب لحصول المحبة في الدنيا الاشتراك في محبة الله وفي خدمته وطاعته، فهذا السبب غير قابل للنسخ والتغير، فلا جرم كانت هذه المحبة باقية في القيامة، بل كأنها تصير أقوى وأصفى وأكمل وأفضل مما كانت في الدنيا، فهذا هو التفسير المطابق لقوله تعالى: الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا/ المتقين، الحكم الثاني: من أحكم يوم القيامة، وقوله تعالى: يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون وقد ذكرنا مرارا أن **عادة القرآن** جارية بتخصيص لفظ العباد، بالمؤمنين المطيعين المتقين، فقوله يا عباد كلام الله تعالى، فكأن الحق يخاطبهم بنفسه ويقول لهم يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون وفيه أنواع كثيرة مما يوجب الفرح أولها: أن الحق سبحانه وتعالى خاطبهم بنفسه من غير واسطة وثانيها: أنه تعالى وصفهم بالعبودية، وهذا تشريف عظيم، بدليل أنه لما أراد أن يشرف محمدا صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج، قال: سبحان الذي أسرى بعبده [الإسراء: ١] وثالثها: قوله لا خوف عليكم اليوم فأزال عنهم الخوف في يوم القيامة بالكلية، وهذا من أعظم النعم ورابعها: قوله ولا أنتم تحزنون فنفى عنهم الحزن بسبب فوت الدنيا الماضية.

ثم قال تعالى: الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين قيل الذين آمنوا مبتدأ، وخبره مضمر، والتقدير يقال لهم: ادخلوا الجنة، ويحتمل أن يكون المعنى أعني الذين آمنوا، قال مقاتل: إذا وقع الخوف يوم القيامة، نادى مناد يا عباد لا خوف عليكم اليوم فإذا سمعوا النداء رفع الخلائق رؤوسهم، فيقال الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين فتنكس أهل الأديان الباطلة رؤوسهم الحكم الثالث: من وقائع القيامة، أنه تعالى إذا أمن المؤمنين من الخوف والحزن، وجب أن يمر حسابهم على أسهل الوجوه وعلى أحسنها، ثم يقال لهم ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون والحبرة المبالغة في الإكرام فيما وصف بالجميل، يعني يكرمون إكراما على سبيل المبالغة، وهذا مما سبق تفسيره في سورة الروم.

ثم قال: يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب قال الفراء: الكوب المستدير الرأس الذي لا أذن له، فقوله يطاف عليهم بصحاف من ذهب إشارة إلى المطعوم، وقوله وأكواب إشارة إلى المشروب، ثم إنه تعالى ترك التفصيل وذكر بيانا كليا، فقال: وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون.

ثم قال: وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون وقد ذكرنا في وراثة الجنة وجهين في قوله أولئك هم

الوارثون الذين يرثون الفردوس [المؤمنون: ١٠، ١١] ولما ذكر الطعام والشراب فيما تقدم، ذكر هاهنا حال الفاكهة، فقال: لكم فيها فاكهة (كثيرة) منها تأكلون.

واعلم أنه تعالى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم إلى العرب أولا، ثم إلى العالمين ثانيا، والعرب كانوا في ضيق شديد." (١)

"قومنا أجيبوا داعي الله

واختلفوا في أنه هل المراد بداعي الله الرسول أو الواسطة التي تبلغ عنه؟ والأقرب أنه هو الرسول لأنه هو الذي يطلق عليه هذا الوصف.

واعلم أن قوله أجيبوا داعي الله فيه مسألتان:

المسألة الأولى: هذه الآية تدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان مبعوثا إلى الجن كما كان مبعوثا إلى الإنس قال مقاتل، ولم يبعث الله نبيا إلى الإنس والجن قبله.

المسألة الثانية: قوله أجيبوا داعي الله أمر بإجابته في كل ما أمر به، فيدخل فيه الأمر بالإيمان إلا أنه أعاد ذكر الإيمان على التعيين، لأجل أنه أهم الأقسام وأشرفها، وقد جرت **عادة القرآن** بأنه يذكر اللفظ العام، ثم يعطف عليه أشرف أنواعه كقوله وملائكته ورسله وجبريل [البقرة: ٩٨] وقوله وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح [الأحزاب: ٧] ولما أمر بالإيمان به ذكر فائدة ذلك الإيمان وهي قوله يغفر لكم من ذنوبكم وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قال بعضهم كلمة من هاهنا زائدة والتقدير: يغفر لكم ذنوبكم، وقيل بل الفائدة فيه أن كلمة من هاهنا لابتداء الغاية، فكان المعنى أنه يقع ابتداء الغفران بالذنوب، ثم ينتهي إلى غفران ما صدر عنكم من ترك الأولى والأكمل.

المسألة الثانية: اختلفوا في أن الجن هل لهم ثواب أم لا؟ فقيل لا ثواب لهم إلا النجاة من النار، ثم يقال لهم كونوا ترابا مثل البهائم، واحتجوا على صحة هذا المذهب بقوله تعالى: ويجركم من عذاب أليم [الأحقاف: ٣١] وهو قول أبي حنيفة، والصحيح أنهم في حكم بني آدم فيستحقون الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية، وهذا القول قول ابن أبي ليلى ومالك، وجرت بينه وبين أبي حنيفة في هذا الباب مناظرة، قال الضحاك يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون، والدليل على صحة هذا القول أن كل دليل على أن البشر يستحقون الثواب على الطاعة فهو بعينه قائم في حق الجن، والفرق بين البابين بعيد جدا.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٦٤٢/٢٧

واعلم أن ذلك الجني لما أمر قومه بإجابة الرسول والإيمان به حذرهم من تلك تلك الإجابة فقال: ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض أي لا ينجي منه مهرب ولا يسبق قضاءه سابق، ونظيره قوله تعالى: وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هربا [الجن: ١٢] ولا نجد له أيضا وليا ولا نصيرا، ولا دافعا من دون الله ثم بين أنهم في ضلال مبين.

[سورة الأحقاف (٤٦) : الآيات ٣٣ الى ٣٤]

أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير (٣٣) ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون (٣٤)

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى ذكر في أول السورة ما يدل على وجود الإله القادر الحكيم المختار، ثم." (١)

"[سورة الطور (٥٢) : آية ١٧]

إن المتقين في جنات ونعيم (١٧)

على ما هو عادة القرآن من بيان حال المؤمن/ بعد بيان حال الكافر، وذكر الثواب عقيب ذكر العقاب ليتم أمر الترهيب والترغيب، وقد ذكرنا تفسير المتقين في مواضع، والجنة وإن كانت موضع السرور، لكن الناظور قد يكون في البستان الذي هو غاية الطيبة وهو غير متنعم، فقوله ونعيم يفيد أنهم فيها يتنعمون، كما يكون المتفرج لا كما يكون الناظور.

[سورة الطور (٥٢) : آية ١٨]

فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم (١٨)

وقوله فاكهين يزيد في ذلك لأن المتنعم قد يكون آثار التنعم على ظاهره وقلبه مشغول، فلما قال:

فاكهين يدل على غاية الطيبة، وقوله بما آتاهم ربهم يفيد زيادة في ذلك، لأن الفكه قد يكون خسيس النفس فيسره أدنى شيء، ويفرح بأقل سبب، فقال: فاكهين لا لدنو هممهم بل لعلو نعمهم حيث هي من

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٩/٢٨

عند ربهم.

وقوله تعالى: ووقاهم ربهم عذاب الجحيم يحتمل وجهين أحدهما: أن يكون المراد أنهم فاكهون بأمرين أحدهما: بما آتاهم، والثاني: بأنه وقاهم وثانيهما: أن يكون ذلك جملة أخرى منسوقة على الجملة الأولى، كأنه بين أنه أدخلهم جنات ونعيما ووقاهم عذاب الجحيم. ثم قال تعالى:

[سورة الطور (٥٢) : الآيات ١٩ الى ٢٠]

كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون (١٩) متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين (٢٠)

وفيه بيان أسباب التنعيم على الترتيب، فأول ما يكون المسكن وهو الجنات ثم الأكل والشرب، ثم الفرش والبسط ثم الأزواج، فهذه أمور أربعة ذكرها الله على الترتيب، وذكر في كل واحد منها ما يدل على كماله قوله جنات إشارة إلى المسكن والمسكن للجسم ضروري وهو المكان، فقال: فاكهين لأن مكان التنعيم قد ينتغص بأمور وبين سبب الفكاهة وعلو المرتبة يكون مما آتاهم الله، وقد ذكرنا هذا، وأما في الأكل والشرب والإذن المطلق فترك ذكر المأكول والمشروب لتنوعهما وكثرتهما، وقوله تعالى: هنيئا إشارة إلى خلوهما عما يكون فيها من المفاسد في الدنيا، منها أن الآكل يخاف من المرض فلا يهنأ له الطعام، ومنها أنه يخاف النفاد فلا يسخو بالأكل والكل منتف في الجنة فلا مرض ولا انقطاع، فإن كل أحد عنده ما يفضل عنه، ولا إثم ولا تعب في تحصيله، فإن الإنسان في الدنيا ربما يترك لذة الأكل لما فيه من تهيئة المأكول بالطبخ والتحصيل من التعب أو المنة أو ما فيه من قضاء الحاجة واستقذار ما فيه، فلا يتهنأ، وكل ذلك في الجنة منتف. وقوله تعالى: بما كنتم تعملون إشارة إلى أنه تعالى يقول/ أي مع أني ربكم وخالقكم وأدخلتكم بفضلي الجنة، وإنما منتي عليكم في الدنيا إذ هديتكم ووفقتكم للأعمال الصالحة كما قال تعالى: بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان [الحجرات: ١٧] . وأما اليوم فلا من عليكم لأن هذا إنجاز الوعد فإن قيل قال في حق الكفار إنما تجزون ما كنتم تعملون [التحريم: ٧] وقال في حق المؤمنين بما كنتم تعملون فهل بينهما فرق؟

قلت بينهما بون عظيم من وجوه الأول: كلمة (إنما) للحصر أي لا تجزون إلا ذلك، ولم يذكر هذا في حق." (١)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٠٦/٢٨

"المسألة السادسة: ألا إن نصر الله قريب يحتمل أن يكون جوابا من الله تعالى لهم، إذ قالوا: متى نصر الله فيكون كلامهم قد انتهى عند قوله: متى نصر الله ثم قال الله عند ذلك ألا إن نصر الله قريب ويحتمل أن يكون ذلك قولا لقوم منهم، كأنهم لما قالوا: متى نصر الله رجعوا/ إلى أنفسهم فعلموا أن الله لا يعلي عدوهم عليهم، فقالوا: ألا إن نصر الله قريب فنحن قد صبرنا يا ربنا ثقة بوعدك.

فإن قيل: قوله: ألا إن نصر الله قريب يوجب في حق كل من لحقه شدة أن يعلم أن سيظفر بزوالها، وذلك غير ثابت.

قلنا: لا يمتنع أن يكون هذا من خواص الأنبياء عليهم السلام، ويمكن أن يكون ذلك عاما في حق الكل، إذ كل من كان في بلاء فإنه لا بد له من أحد أمرين، إما أن يتخلص عنه، وإما أن يموت وإذا مات فقد وصل إلى من لا يهمل أمره ولا يضيع حقه، وذلك من أعظم النصر، وإنما جعله قريبا لأن الموت قريب.

[سورة البقرة (٢) : آية ٢١٥]

يسئلونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم (٢١٥)

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما بالغ في بيان أنه يجب على كل مكلف أن يكون معرضا عن طلب العاجل، وأن يكون مشتغلا بطلب الآجل، وأن يكون بحيث يبذل النفس والمال في ذلك شرع بعد ذلك في بيان الأحكام وهو من هذه الآية إلى قوله: ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم [البقرة: ٢٤٣] لأن من عادة القرآن أن يكون بيان التوحيد وبيان الوعظ والنصيحة وبيان الأحكام مختلطا بعضها بالبعض، ليكون كل واحد منها مقويا للآخر ومؤكدا له.

الحكم الأول فيما يتعلق بالنفقة هو هذه الآية

وفيه مسائل المسألة الأولى:

قال عطاء: عن ابن عباس نزلت هذه الآية في رجل أتى للنبي عليه الصلاة والسلام فقال إن لي دينارا فقال: أنفقه على نفسك قال: إن لي دينارين قال: أنفقهما على أهلك قال: إن لي ثلاثة قال: أنفقها على خادمك قال: إن لي أربعة قال: أنفقها على والديك قال: إن لي خمسة قال: أنفقها على قرابتك قال إن لي ستة قال: أنفقها في سبيل الله وهو أحسنها.

وروى الكلبي/ عن ابن عباس أن الآية نزلت عن عمرو بن الجموح وكان شيخا كبيرا هرما، وهو الذي قتل

يوم أحد وعنده مال عظيم، فقال: ماذا ننفق من أموالنا وأين نضعها فنزلت هذه الآية.
المسألة الثانية: للنحويين في (ماذا) قولان أحدهما: أن يجعل (ما) مع (ذا) بمنزلة اسم واحد ويكون الموضع نصبا بينفقون، والدليل عليه أن العرب يقولون: عما ذا تسأل؟ بإثبات الألف في (ما) فلولا أن (ما) مع (ذا) بمنزلة اسم واحد لقالوا: عما ذا تسأل؟ بحذف الألف كما حذفوها من قوله تعالى: عم يتساءلون [النبأ: ١] وقوله: فيم أنت من ذكراها [النازعات: ٤٣] فلما لم يحذفوا الألف من آخر (ما) علمت أنه مع." (١)

"النار، وأن يدخل المذنبين الجنة، وقالوا: إنه تعالى ذكر ذلك على سبيل الاستبعاد، ولولا أنه ممتنع في العقول، وإلا لما حسن هذا الاستبعاد، وأكد القفال ذلك فقال: لا يجوز في الحكمة أن يسوى المسيء بالمحسن، فإن فيه إغراء بالمعاصي وإباحة لها وإهمالا للطاعات.

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٦٣]
هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون (١٦٣)
[في قوله تعالى هم درجات عند الله] وفيه مسائل.
المسألة الأولى: تقدير الكلام: لهم درجات عند الله، إلا أنه حسن هذا الحذف، لأن اختلاف أعمالهم قد صيرتهم بمنزلة الأشياء المختلفة في ذواتها. فكان هذا المجاز أبلغ من الحقيقة والحكماء يقولون: إن النفوس الإنسانية مختلفة بالماهية والحقيقة، فبعضها ذكية وبعضها بليدة، وبعضها مشرقة نورانية، وبعضها كدرة ظلمانية، وبعضها خيرة وبعضها نذلة، واختلاف هذه الصفات ليس لاختلاف الأمزجة البدنية، بل لاختلاف ماهيات النفوس، ولذلك
قال عليه الصلاة والسلام: «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة» وقال: «الأرواح جنود مجندة»
وإذا كان كذلك ثبت أن الناس في أنفسهم درجات، لا أن لهم درجات.
المسألة الثانية: هم عائد إلى لفظ «من» في قوله: أفمن اتبع رضوان الله [آل عمران: ١٦٢] ولفظ «من» يفيد الجمع في المعنى، فلهذا صح أن يكون قوله: هم عائدا إليه، ونظيره قوله: أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون فإن قوله: يستوون صيغة الجمع وهو عائد إلى «من» .
المسألة الثالثة: هم ضمير عائد إلى شيء قد تقدم ذكره، وقد تقدم ذكر من اتبع رضوان الله وذكر من باء بسخط من الله، فهذا الضمير يحتمل أن يكون عائدا إلى الأول، أو إلى الثاني، أو إليهما معا، والاحتمالات

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٨١/٦

ليست إلا هذه الثلاثة.

الوجه الأول: أن يكون عائدا الى فمن اتبع رضوان الله وتقديره: أفمن اتبع رضوان الله سواء، لا بل هم درجات عند الله على حسب أعمالهم، والذي يدل ع‌ل‌ى أن هذا الضمير عائد إلى من اتبع الرضوان وأنه أولى، وجوه: الأول: أن الغالب في العرف استعمال الدرجات في أهل الثواب، والدركات في أهل العقاب. الثاني:

أنه تعالى وصف من باء بسخط من الله، وهو أن مأواهم جهنم وبئس المصير، فوجب أن يكون قوله: هم درجات وصفا لمن اتبع رضوان الله. الثالث: أن **عادة القرآن** في الأكثر جارية بأن ما كان من الثواب والرحمة فإن الله يضيفه إلى نفسه، وما كان من العقاب لا يضيفه إلى نفسه، قال تعالى: كتب ربكم على نفسه الرحمة وقال: كتب عليكم القصاص [البقرة: ١٧٨] كتب عليكم الصيام [البقرة: ١٨٣] فما أضاف هذه الدرجات إلى نفسه حيث قال: هم درجات عند الله علمنا أن ذلك صفة أهل الثواب. ورابعها: أنه متأكد بقوله تعالى: انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا [الإسراء: ٢١].

والوجه الثاني: أن يكون قوله: هم درجات عائدا على كمن باء بسخط من الله و الحجة أن الضمير عائد إلى الأقرب وهو قول الحسن، قال: والمراد أن أهل النار متفاوتون في مراتب العذاب، وهو كقوله:

ولكل درجات مما عملوا [الأحقاف: ١٩]

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن فيها ضحضاحا وغمرا وأنا أرجو أن يكون أبو طالب في ضحضاحها»

وقال عليه الصلاة والسلام: «إن أهون أهل النار عذابا يوم القيامة رجل يحذى له نعلان من نار يغلي من حرهما دماغه ينادي يا رب وهل أحد يعذب عذابي» .

الوجه الثالث: أن يكون قوله: هم عائدا إلى الكل، وذلك لأن درجات أهل الثواب متفاوتة، ودرجات أهل العقاب أيضا متفاوتة على حسب تفاوت أعمال الخلق، لأنه تعالى قال: فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره." (١)

"قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم الخطاب عام، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مبعوثا إلى كافة الثقلين، وسائر الرسل إلى أقوامهم. جميعا حال من إليكم. الذي له ملك السماوات والأرض صفة لله

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٩/٤١٦

وإن حيل بينهما بما هو متعلق المضاف إليه لأنه كالتقدم عليه، أو مدح منصوب أو مرفوع، أو مبتدأ خبره لا إله إلا هو وهو على الوجوه. الأول بيان لما قبله فإن من ملك العالم كان هو الإله لا غيره وفي: يحيي ويميت مزيد تقرير لاختصاصه بالألوهية. فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته ما أنزل عليه وعلى سائر الرسل من كتبه ووحيه. وقرئ «وكلمته» على إرادة الجنس أو القرآن، أو عيسى تعريضا لليهود وتنبيها على أن من لم يؤمن به لم يعتبر إيمانه، وإنما عدل عن التكلم إلى الغيبة لإجراء هذه الصفات الداعية إلى الإيمان به والاتباع له. واتبعوه لعلكم تهتدون جعل رجاء الاهتداء أثر الأمرين تنبيها على أن من صدقه ولم يتابعه بالتزام شرعه فهو يعد في خطط الضلالة.

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٥٩ الى ١٦٠]

ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون (١٥٩) وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطا أمما وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون (١٦٠)

ومن قوم موسى يعنى من بني إسرائيل. أمة يهدون بالحق يهدون الناس محقين أو بكلمة الحق.

وبه بالحق. يعدلون بينهم في الحكم والمراد بها الثابتون على الإيمان القائمون بالحق من أهل زمانه، أتبع ذكرهم ذكر أضدادهم على ما هو عادة القرآن تنبيها على أن تعارض الخير والشر وتزاحم أهل الحق والباطل أمر مستمر. وقيل مؤمنو أهل الكتاب. وقيل قوم وراء الصين رآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج فآمنوا به.

وقطعناهم وصيرناهم قطعا متميزا بعضهم عن بعض. اثنتي عشرة مفعول ثان لقطع فإنه متضمن معنى صير، أو حال وتأنيثه للحمل على الأمة أو القطعة. أسباطا بدل منه ولذلك جمع، أو تمييز له على أن كل واحدة من اثنتي عشرة أسباط فكأنه قيل: اثنتي عشرة قبيلة. وقرئ بكسر الشين وإسكانها. أمما على الأول بدل بعد بدل، أو نعت أسباط وعلى الثاني بدل من أسباط. وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه في التيه. أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست أي فضرب فانبجست وحذفه للإيماء على أن موسى صلى الله عليه وسلم لم يتوقف في الامتثال، وأن ضربه لم يكن مؤثرا يتوقف عليه الفعل في ذاته منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس كل سبط. مشربهم وظللنا عليهم الغمام ليقيهم حر الشمس. وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا أي وقلنا لهم كلوا. من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون سبق تفسيره في سورة «البقرة» .

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٦١ الى ١٦٢]

وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين (١٦١) فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذي قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزا من السماء بما كانوا يظلمون (١٦٢)

وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية بإضمار اذكر والقرية بيت المقدس. وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا مثل ما في سورة «البقرة» معنى غير أن قوله فكلوا فيها بالفاء أفاد تسبب." (١)

"قرأ نافع، والبزي بفتح ياء «فطرني» ، وأبو عمرو وقنبل بإسكانها. ومعنى «فطرني» خلقني، ﴿أفلا تعقلون﴾ أني مصيب في المنع من عبادة الأوثان.

ثم قال: ﴿وياقوم استغفروا ربكم﴾ آمنوا به، والاستغفار - ههنا - بمعنى الإيمان.

وقال الأصم: ﴿استغفروا ربكم﴾ أي: سلوه أن يغفر لكم ما تقدم من شرككم، ثم توبوا من بعده بالندم على ما مضى، وبالعزم على أن لا تعودوا إلى مثله، فإذا فعلتم ذلك فالله يكثر النعمة عليكم.

قوله: ﴿يرسل السمآء عليكم مدرارا﴾ نصب «مدرارا» على الحال، ولم يؤنثه وإن كان من مؤنث لثلاثة أوجه:

أحدها: أن المراد بالسماء السحاب، فذكر على المعنى.

الثاني: أن مفعالا للمبالغة فيستوي فيه المذكر والمؤنث ك: صبور، وشكور، وفعيل.

الثالث: أن الهاء حذفت من «مفعال» على طريق النسب قاله مكي، وقد تقدم إيضاحه في الأنعام.

والمعنى: يرسل عليكم المطر متتابعا مرة بعد أخرى في أوقات الحاجة. ﴿ويزدكم قوة إلى قوتكم﴾ أي: شدة مع شدتكم. وقيل: المراد بالقوة: المال وذلك أن الله تعالى لما بعث هودا إليهم، وكذبوه حبس الله المطر عنهم ثلاث سنين، وأعقم أرحام نسائهم، فقال لهم هود: إن آمنتم بالله أحيا الله بلادكم ورزقكم المال، والولد، فذلك قوله تعالى: ﴿يرسل السمآء عليكم مدرارا﴾ والمدرار: بالكسر الكثير الدر وهو من أبنية المبالغة.

فإن قيل: إن هودا - عليه الصلاة والسلام - قال: لو اشتغلتم بعبادة الله لانفتحت عليكم أبواب الخيرات الدنيوية، وليس الأمر كذلك لقوله - عليه الصلاة والسلام - «خص البلاء بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل،

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٣/٣٨

فالأمثل» فكيف الجمع بينهما؟ وأيضا فقد جرت **عادة القرآن** بالترغيب في الطاعات بسبب ترتيب الخيرات الدنيوية، والأخروية عليها، فأما الترغيب في الطاعات لأجل ترتيب الخيرات الدنيوية عليها؛ فذلك لا يليق بالقرآن.

فالجواب: لما كثر الترغيب في سعادات الآخرة لم يتغير بالترغيب أيضا في خير الدنيا بقدر الكفاية.

قوله: ﴿إلى قوتكم﴾ يجوز أن يتعلق ب «يزدكم» على التضمين، أي: يضيف إلى قوتكم قوة أخرى، أو يجعل الجار والمجرور صفة ل «قوة» فيتعلق بمحذوف.

وقدره أبو البقاء: «مضافة إلى قوتكم» ، وهذا يأباه النحاة، لأنهم لا يقدرون إلا الكون." (١)

"الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ [الحجر: ٤٢] فيكون عاما في اللفظ خاصا في المعنى كقوله: ﴿عينا يشرب بها عباد الله﴾ [الإنسان: ٦] يريد بعض العباد، وقال قتادة: لا يرضى لأحد من عباده الكفر أي لا يرضى لعباده أن يكفروا به. وهو قول السلف قالوا: كفر الكافر غير مرضي لله وإن كان بإرادته.

واحتج الجنائي بهذه الآية من وجهين:

الأول: أن المجبرة يقولون: إن الله تعالى خلق العباد وأفعالهم وأقوالهم وكل ما خلقه حق وصواب، وإذا كان كذلك كان قد رضي بالكفر من التوجه الذي خلقه وذلك ضد الآية.

الثاني: لو كان الكفر بقضاء الله تعالى لوجب علينا أن نرضى به لأن الرضا بقضاء الله واجب وحيث اجتمعت الأمة على أن الرضا بالكفر كفر ثبت أنه ليس بقضاء الهو ليس أيضا برضا الله تعالى وأجيب بوجوه:

أحدها: إن **عادة القرآن** جارية بتخصيص لفظ العباد بالمؤمنين كما قدماه عن ابن عباس.

وثانيها: قول السلف المتقدم وأنشد ابن دريد:

٤٢٩١ - رضيت قسرا أو على القسر رضا ... من كان ذا سخط على صرف القضا

أثبت الرضا مع القسر.

وثالثها: هب أن الرضا هو الإرادة إلا أن قوله: ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾ عام فيتخصص بالآيات الدالة على أنه تعالى لا يريد الكفر لقوله تعالى: ﴿وما تشآءون إلا أن يشآء الله﴾ [الإنسان: ٣٠] .

قوله: ﴿وإن تشكروا﴾ أي تؤمنوا بربكم وتطيعوه «يرضه لكم» فيثيبكم عليه. قرأ ابن كثير والكسائي وابن

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٠/٥٠٦

ذكوان يرضهو بالصلة. وهي الأصل من غير خلاف وهي قراءة واضحة. قال الواحدي: من أشبع الهاء (حتى ألحق فيها واوا لأن ما قبل الهاء متحرك فصار بمنزلة ضربه، وقرأ «يرضه» بضم الهاء) من غير صلة بلا خلاف نافع وعاصم." (١)

"قوله: يا عبادي «قرأ أبو بكر عن عاصم:» يا عبادي لا خوف «بفتح الياء. والأخوان وابن كثير وحفص بحذفها وصلا ووقفا. والباقون بإثباتها ساكنة. وقرأ العامة: لا خوف بالرفع والتنوين إما مبتدأ وإما اسما لها وهو قليل. وابن محيصن دون تنوين على حذف مضاف وانتظاره أي لا خوفل شيء. والحسن وابن أبي إسحاق بالفتح على لا التبرئة، وهي عندهم أبلغ.

فصل

قد تقدم أن عادة القرآن جارية بتخصيص لفظ العباد بالمؤمنين المطيعين المتقن. وفيه أنواع كثيرة توجب الفرح:

أولها: أن الحق سبحانه وتعالى خاطبهم بنفسه من غير واسطة.

وثانيها: أنه تعالى وصفهم بالعبودية من غير واسطة، وهذا تشريف عظيم، بدليل أنه تعالى لما أراد تشريف محمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج قال: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلا﴾ [الإسراء: ١] .

وثالثها: قوله: ﴿لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون﴾ فنفى عنهم الحزن بسبب فوت الدنيا الماضية.

قوله: «الذين آمنوا» يجوز أن يكون نعتا لعبادي، أو بدلا منه، أو عطف بيان الله، أو مقطوعا منصوبا بفعل أي أعني الذين آمنوا.

أو مرفوعا بالابتداء وخبره مضمر، تقديره يقال لهم: ادخلوا.

فصل

قال مقاتل: إذا وقع الخوف يوم القيامة نداى مناد: يا عبادي لا خوف عليكم اليوم. فإذا سمعوا النداء رفع الخلائق رؤوسم فيقال: ﴿الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين﴾ فينكس أهل الأديان الباطلة رؤوسهم فيمر حسابهم على أحسن الوجوه ثم يقال لهم:." (٢)

"فالجواب: أنه روي عن عطاء والحسن أنه كان دينهم اليهودية فلذلك قالوا: إنا سمعنا كتابا أنزل بعد موسى. وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) أن الجن ما سمعت أمر عيسى فلذلك قالوا: من بعد موسى ثم

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤٧٨/١٦

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٨٩/١٧

إن الجن لما وصفوا القرآن بهذه الصفات الفاضلة قالوا يا قومنا أجيبوا داعي الله «يعني محمدا صلى الله عليه وسلم .

فصل

دلت هذه الآية على أنه صلى الله عليه سولم كان مبعوثا إلى الجن كما كان مبعوثا إلى الإنس.

قال مقاتل: لم يبعث الله نبيا إلى الإنس وإلى الجن قبله.

فإن قيل: قوله ﴿أجيبوا داعي الله﴾ أمر بإجابته في كل ما أمر به فيدخل فيه الأمر بالإيمان فكيف قال: وآمنوا به» ؟

فالجواب: أفاد ذكر الإيمان على التعيين، لأنه أهم الأقسام وأشرفها وقد جرت عادة القرآن الكريم بأنه يذكر اللفظ العام ثم يعطف عليه أشرف أنواعه، كقوله: ﴿وملائكته ورسله وجبريل وميكال﴾ [البقرة: ٩٨] وقوله ﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح﴾ [الأحزاب: ٧] ولما أمر بالإيمان به ذكر فائدة ذلك الإيمان فقال: ﴿يغفر لكم من ذنوبكم﴾ قال بعضهم: كلمة «من» هنا زائدة والتقدير: يغفر لكم ذنوبكم، وقيل: بل فائدته أن كلمة «من» هنا لابتداء الغاية والمعنى أنه يقع ابتداء الغفران بالذنوب ثم ينتهي إلى عفو ما صدر عنكم من ترك الأولى والأكمل. ويجوز أن تكون تبعيضية.

قوله: ﴿ويجركم من عذاب أليم﴾ قال ابن عباس (رضي الله عنهما) فاستجاب لهم من قومهم نحو سبعين بعلا من الجن فرجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوافقوه في البطحاء فقرأ عليهم القرآن وأمرهم ونهاهم.

فصل

اختلفوا في أن الجن هل لهم ثواب أم لا؟ فقيل: لا ثواب لهم إلا النجاة من النار، ثم يقال لهم: كونوا ترابا مثل البهائم. واحتجوا على ذلك بقوله: (ويجركم من عذاب أليم) وقو قول أبي حنيفة والصحيح أن حكمهم حكم بني آدم يستحقون الثواب على." (١)

"قوله تعالى: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا﴾ .

تعلم أن الوعد والوعيد متلازمان في الذكر غالبا، فإن عادة القرآن إذا ذكر الوعيد أن يذكر معه الوعد.

قوله: ﴿والذين آمنوا﴾ فيه ثلاثة أوجه:

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤١٧/١٧

أظهرها: أنه مبتدأ، وخبره ﴿سندخلهم﴾ .

والثاني: أنه في محل نصب؛ عطفا على اسم «إن» وهو ﴿الذين كفروا﴾ ، والخبر أيضا: ﴿سندخلهم جنات﴾ ويصير هذا نظير قولك: إن زيدا قائم وعمرا قاعد، فعطفت المنصوب على المنصوب، والمرفوع على المرفوع.

والثالث: أن يكون في محل رفع؛ عطفا على موضع اسم «إن» ؛ لأن محله الرفع، قاله أبو البقاء؛ وفيه نظر، من حيث الصناعة اللفظية، حيث يقال: ﴿والذين آمنوا﴾ في موضع نصب؛ عطفا على ﴿الذين كفروا﴾ ، وأتى بجملة الوعيد مؤكدة ب «إن» ؛ تنبيها على شدة ذلك، وبجملة الوعد حالية منه؛ لتحققها وأنه لا إنكار لذلك، وأتى فيها بحرف التنفيس القريب المدة تنبيها على قرب الوعد.

فصل في أن الإيمان غير العمل

دلت هذه الآية، على أن الإيمان غير العمل؛ لأنه تعالى عطف العمل على الإيمان، والمعطوف مغاير للمعطوف عليه.

قال القاضي: متى ذكر لفظ الإيمان وحده، دخل فيه العمل، ومتى ذكر معه العمل، كان الإيمان هو التصديق، وهذا بعيد، لأن الأصل عدم الاشتراك، وعدم التغيير ولولا أن الأمر كذلك، لخرج القرآن عن كونه مفيدا، فلعل هذه الألفاظ التي." (١)

"أنواع ارتباط الآي بعضها ببعض

عدنا إلى ذكر ارتباط الآي بعضها ببعض فنقول ذكر الآية بعد الأخرى إما أن يظهر الارتباط بينهما لتعلق الكلام بعضه ببعض وعدم تمامه بالأولى فواضح وكذلك إذا كانت الثانية للأولى على جهة التأكيد والتفسير أو الاعتراض والتشديد وهذا القسم لا كلام فيه

وإما ألا يظهر الارتباط بل يظهر أن كل جملة مستقلة عن الأخرى وأنها خلاف النوع المبدوء به فإما أن تكون معطوفة على ما قبلها بحرف من حروف العطف المشترك في الحكم أولا:

القسم الأول: أن تكون معطوفة ولا بد أن تكون بينهما جهة جامعة على ما سبق تقسيمه كقوله تعالى ﴿يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها﴾ وقوله ﴿والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون﴾ وفائدة العطف جعلهما كالنظيرين والشريكين

وقد تكون العلاقة بينهما المضادة وهذا كمناسبة ذكر الرحمة بعد ذكر العذاب والرغبة بعد الرهبة وعادة

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٦/٤٣٠

القرآن العظيم إذا ذكر أحكاما ذكر بعدها وعدا ووعيدا ليكون ذلك باعثا على العمل بما سبق ثم يذكر آيات التوحيد والتنزيه ليعلم عظم الآمر والناهي

وتأمل سورة البقرة والنساء والمائدة وغيرها تجده كذلك

وقد تأتي الجملة معطوفة على ما قبلها ويشكل وجه الارتباط فتحتاج إلى شرح ونذكر من ذلك صورا يلتحق بها ما هو في معناها:

فمنها قوله تعالى يسألونك ﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾ الآية

فقد يقال أي رابط بين أحكام الأهلة وبين حكم إتيان البيوت والجواب من وجوه." (١)

"إلها واحدا﴾ إلى آخر كلامهم ثم اختصام الخصمين عند داود ثم تخاصم أهل النار ثم اختصام الملأ الأعلى في العلم وهو الدرجات والكفارات ثم تخاصم إبليس واعتراضه على ربه وأمره بالسجود ثم اختصامه ثانيا في شأن بنيه وحلفه ليغوينهم أجمعين إلا أهل الإخلاص منهم

وكذلك سورة: ﴿ن والقلم﴾ فإن فواصلها كلها على هذا الوزن مع ما تضمنت من الألفاظ النونية

وتأمل سورة الأعراف زاد فيها ص لأجل قوله: ﴿فلا يكن في صدرك حرج﴾ وشرح فيها قصص آدم فمن بعده من الأنبياء ولهذا قال بعضهم معنى المص: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ وقيل معناه المصور وقيل أشار بالميم لمحمد وبالصاد للصديق وفيه إشارة لمصاحبة الصاد الميم وأنها تابعة لها كمصاحبة الصديق لمحمد ومتابعته له

وجعل السهيلي هذا من أسرار الفواتح وزاد في الرعد راء لأجل قوله: ﴿الله الذي رفع السماوات﴾ ولأجل ذكر الرعد والبرق وغيرهما

واعلم أن عادة القرآن العظيم في ذكر هذه الحروف أن يذكر بعدها ما يتعلق بالقرآن كقوله: ﴿الم ذلك الكتاب﴾ وقد جاء بخلاف ذلك في العنكبوت والروم فيسأل عن حكمة ذلك.

تنبيهات

ثم لا بد من التنبيه على أحكام تختص بهذه الفواتح الشريفة

الأول: أن البصريين لم يعدوا شيئا منها آية وأما الكوفيون فمنها ما عدوه آية ومنها." (٢)

---

(١) البرهان في علوم القرآن الزركشي، بدر الدين ١/ ٤٠

(٢) البرهان في علوم القرآن الزركشي، بدر الدين ١/ ١٧٠

"وقوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم﴾ كنى بنفي قبول التوبة عن الموت على الكفر لأنه يرادفه

رابعها: أن يفحش ذكره في السمع فيكنى عنه بما لا ينبو عنه الطبع قال تعالى: ﴿وإذا مروا باللغو مروا كراما﴾ أي: كنوا عن لفظه ولم يوردوه على صيغته

ومنه قوله تعالى في جواب قوم هود: ﴿إنا لنراك في سفاهة﴾ ﴿قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين﴾ فكنى عن تكذيبهم بأحسن

ومنه قوله: ﴿ولكن لا تواعدوهن سرا﴾ فكنى عن الجماع بالسر

وفيه لطيفة أخرى لأنه يكون من الآدميين في السر غالبا ولا يسره -ما عدا الآدميين- إلا الغراب فإنه يسره ويحكى أن بعض الأدباء أسر إلى أبي علي الحاتمي كلاما فقال: ليكن عندك أخفى من سفاد الغراب ومن الراء في كلام الألثغ فقال: نعم يا سيدنا ومن ليلة القدر وعلم الغيب

ومن عادة القرآن العظيم الكناية عن الجماع باللمس والملامسة والرفث والدخول والنكاح ونحوهن قال تعالى: ﴿فالآن باشروهن﴾ فكنى بالمباشرة عن الجماع لما فيه من التقاء البشرتين

وقوله تعالى: ﴿أو لامستم النساء﴾ إذ لا يخلوا الجماع عن الملامسة." (١)

"علاقات التلازم الذهني، كالسبب والمسبب، والعلة والمعلول، والنظيرين والضدين ونحوه.

وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حالته حال البناء المحكم التلائم الأجزاء فنقول:

ذكر الآية بعد الأخرى إما أن يكون ظاهر الارتباط لتعلق الكلام بعضه ببعض وعدم تمامه في الأولى، فواضح، وكذلك إذا كانت الثانية للأولى على وجه التأكيد أو التفسير أو الاعتراض أو البدل، وهذا القسم لا كلام فيه.

وإما ألا يظهر الارتباط، بل يظهر أن كل جملة مستقلة عن الأخرى، وأنها خلاف النوع المبدوء به، فإما أن تكون معطوفة على الأولى بحرف من حروف العطف المشركة في الحكم، أو لا.

فإن كانت معطوفة فلا بد أن يكون بينهما جهة جامعة على ما سبق تقسيمه، كقوله تعالى: (يعلم ما يلج

---

(١) البرهان في علوم القرآن الزركشي، بدر الدين ٢/٣٠٣

في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها) .

وقوله: (والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون (٢٤٥) .

للتضاد بين القبض والبصط، والولوج والخروج، والنزول والعروج، وشبه التضاد بين السماء والأرض.

ومما العلاقة فيه التضاد ذكر الرحمة بعد ذكر العذاب، والرغبة بعد الرهبة.

وقد جرت **عادة القرآن** العظيم إذا ذكر أحكاما ذكر بعدها وعدا أو وعيدا.

لتكون باعثا على العمل بما سبق، ثم يذكر آيات توحيد وتنزيه، ليعلم عظم الآمر الناهي.

وتأمل سورة البقرة والنساء والمائدة تجده كذلك.

وإن لم تكن معطوفة فلا بد من دعامة تؤذن باتصال الكلام، وهي قرائن معنوية تؤذن بالربط.

وله أسباب:

أحدها: التنظير، فإن إلحاق النظير بالنظير من شأن العقلاء." (١)

"أفعال الخير مطلوبة، فنبه على أنه قد يعترض على هذا المطلوب ما هو أجل منه، وهو الإصغاء إلى الوحي وتفهم ما يراد منه، والتشاغل بالحفظ قد يصد عن ذلك، فأمر بألا يبادر إلى التحفظ، لأن تحفيظه مضمون على ربه، وليصغي إلى ما يرد عليه إلى أن يقضى، فيتبع ما اشتمل عليه.

ثم لما انقضت الجملة المعترضة رجع الكلام إلى ما يتعلق بالإنسان المبدأ بذكره، ومن هو من جنسه، فقال: (كلا) . القيامة، ٢٠، وهي كلمة ردع، كأنه قال: بل أنتم يا بني آدم لكونكم خلقتم من عجل تعجلون في كل شيء، ومن ثم تحبون العاجلة.

ومنها أن **عادة القرآن** إذا ذكر الكلام المشتمل على عمل العبد حيث يعرض يوم القيامة أردفه بذكر الكتاب المشتمل على الأحكام الدينية في الدنيا التي تنشأ عنها المحاسبة عملا وتركا، كما قال في الكهف: (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه) ... ، إلى أن قال: (ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل م ثل) .

وقال في طه: (يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا (١٠٢) .

إلى أن قال: (فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه) .

ومنها أن أول سورة القيامة لما نزل إلى: (ولو ألقى معاذيره) القيامة:

---

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن السيوطي ١/٤٥

١٥، صادف أنه اعمط في تلك الحالة بادر إلى تحفظ الذي نزل، وتحرك به لسانه من عجلته خشية من تفلته، فنزل: لا تحرك به لسانك ...

إلى قوله: ثم إن علينا بيانه، ثم عاد الكلام إلى تكملة ما ابتدىء به.

قال الفخر الرازي: ونحوه ما لو ألقى المدرس على الطالب مسألة فتشاغل الطالب بشيء عرض له، فقال له: ألق إلي بالك، وتفهم ما أقول.

ثم كمل المسألة، فمن لا يعرف السبب يقول: ليس هذا الكلام مناسبا للمسألة بخلاف من عرف ذلك.

ومنها أن " النفس" لما تقدم ذكرها في أول السورة عدل إلى ذكر نفس." (١)

"وزيد في الرعد لأجل قوله: (رفع السماوات) ، ولأجل ذكر الرعد والبرق وغيرهما.

واعلم أن عادة القرآن العظيم في ذكر هذه الحروف أن يذكر بعدها ما يتعلق بالقرآن، كقوله تعالى: (الم (١) ذلك الكتاب) .

(نزل عليك الكتاب) .

(المص (١) كتاب أنزل إليك) .

(المر تلك آيات الكتاب) .

(ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى (٢) .

(طسم (١) تلك آيات الكتاب المبين (٢) .

(يس (١) والقرآن الحكيم (٢) .

(ص والقرآن ذي الذكر (١) .

(حم (١) تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم (٢) .

(ق والقرآن المجيد (١) .

إلا في ثلاث سور: العنكبوت، والروم، ون، ليس فيها ما يتعلق به، وقد ذكرت حكمة ذلك في أسرار التنزيل.

وقال الحرالي: في معنى حديث: أنزل القرآن على سبعة أحرف: زاجر.

وآمر، وحلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثال.

اعلم أن القرآن نزل عند انتهاء الخلق، وكمال كل الأمر بدءا، فكان التخلق به جامعا لانتهاء كل خلق،

---

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن السيوطي ١/٥٠

وكمال كل أمر، فكذلك هو قيم الكون، وهو الجامع الكامل، ولذلك كان خاتما وكتابه كذلك.
وبدأ المعاد من حين ظهوره، فاستوفى هذه الجوامع الثلاث التي قد خلت في الأولين بداياتها، وتممت عنده غاياتها، بعثت لأتمم مكارم الأخلاق، وهي صلاح الدين والمعاد التي جمعها قوله - صلى الله عليه وسلم -: اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي.
وفي كل صلاح إقدام وإحجام، فتصير الجوامع الثلاثة ستة هي حروف القرآن الستة، ثم وهب حرفا جامعا شائعا فردا لا زوج له، فتمت سبعة.
فأدنى تلك الحروف هو صلاح الدنيا، فلها حرفان: حرف الحرام الذي لا تصلح النفس والبدن إلا بالتطهر منه، لبعده عن تقويمها.
والثاني حرف الحلال." (١)

"المقطوع به قوله تعالى: (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا) .
والتناسب في هذا أوضح من أن يتوقف فيه.
وأما سورة سبأ فلما تضمنت ما منح سبحانه داود عليه السلام من تسخير الجبال والطير والريح وإلانة الحديد ناسب ما به افتتحت السورة من أن الكل ملكه وخلقه، فهو المسخر لها والتصرف في الكل بما شاء، فقال تعالى:
(الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة) .
وهذا أوضح التناسب.
وأما سورة الملائكة فمناسبة وصفه تعالى باختراع السماوات والأرض لما ذكره من خلق عام في السماوات من الملائكة وجعلهم رسلا أولي أجنحة، وإمساكه السماوات والأرض أن تزولا - أبين شيء وأوضحه، وليس شيء من هذه الأوصاف العلية بمناسب لغير موضعه لمناسبته موضعه الوارد منه.
فقد بان مجيء كل منها في موضعه ملائما لما اتصل به.
والله أعلم.

---

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن السيوطي ٥٦/١

قال الكرماني في العجائب: إن قيل كيف جاء يسألون أربع مرات بغير واو.

(يسألونك عن الأهلة) .

(يسألونك ماذا ينفقون) .

(يسألونك عن الشهر الحرام) .

(يسألونك عن الخمر) .

ثم جاء ثلاث مرات بالواو:

(ويسألونك ماذا ينفقون) (ويسألونك عن اليتامى) .

(ويسألونك عن المحيض) .

قلنا: لأن سؤالهم عن الحوادث الأول وقع متفرقا، وعن الحوادث الأخر وقع في وقت واحد، فجيء بحرف الجمع دلالة على ذلك.

فإن قيل: كيف جاء: (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا (١٠٥)

، **وعادة القرآن** مجيء قل في الجواب بلا فاء؟

أجاب الكرماني بأن التقدير لو سئلت عنها فقل.." (١)

"فصل

المناسبة في اللغة المشاكلة والمقاربة ومرجعها في الآيات ونحوها إلى معنى رابط بينها عام أو خاص عقلي أو حسي أو خيالي أو غير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني كالسبب والمسبب والعلة والمعلول والنظيرين والضدين ونحوه

وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء فنقول ذكر الآية بعد الأخرى إما أن يكون ظاهر الارتباط لتعلق الكلم بعضه ببعض وعدم تمامه بالأولى فواضح وكذلك إذا كانت الثانية للأولى على وجه التأكيد أو التفسير أو الاعتراض أو البدل وهذا القسم لا كلام فيه

وإما إلا يظهر الارتباط بل يظهر أن كل جملة مستقلة عن الأخرى وأنها خلاف النوع المبدوء به فإما أن تكون معطوفة على الأولى بحرف من حروف العطف المشتركة في الحكم أو لا فإن كانت معطوفة فلا بد أن يكون بينهما جهة جامعة على ما سبق تقسيمه كقوله تعالى: ﴿يعلم ما يلج في الأرض وما

---

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن السيوطي ١/٦٥

يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها﴾ وقوله: ﴿والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون﴾ للتضاد بين القبض والبسط والولوج والخروج والنزول والعروج وشبه التضاد بين السماء والأرض ومما الكلام فيه التضاد ذكر الرحمة بعد ذكر العذاب والرغبة بعد الرهبة وقد جرت عادة القرآن إذا ذكر." (١)

"فاتبع قرآنه بالإقرار بأنك فعلت ثم إن علينا بيان أمر الإنسان وما يتعلق بعقوبته انتهى.

وهذا يخالف ما ثبت في الصحيح أنها نزلت في تحريك النبي صلى الله عليه وسلم لسانه حالة نزول الوحي عليه

وقد ذكر الأئمة لها مناسبات:

منها أنه تعالى لما ذكر القيامة وكان من شأن من يقصر عن العمل لها حب العاجلة وكان من أصل الدين أن المبادرة إلى أفعال الخير مطلوبة فنبه على أنه قد يعترض على هذا المطلوب ما هو أجل منه وهو الإصغاء إلى الوحي وتفهم ما يرد منه والتشاغل بالحفظ قد يصد عن ذلك فأمر بألا يبادر إلى التحفظ لأن تحفيظه مضمون على ربه وليصغ إلى ما يرد عليه إلى أن ينقضي فيتبع ما اشتمل عليه ثم لما انقضت الجملة المعترضة رجع الكلام إلى ما يتعلق بالإنسان المبتدأ بذكره ومن هو من جنسه فقال: ﴿كلا﴾ وهي كلمة ردع كأنه قال "بل أنتم يا بني آدم لكونكم خلقتم من عجل تعجلون في كل شيء ومن ثم تحبون العاجلة"

ومنها أن عادة القرآن إذا ذكر الكتاب المشتمل على عمل العبد حيث يعرض يوم القيامة أردفه بذكر الكتاب المشتمل على الأحكام الدينية في الدنيا التي تنشأ عنها المحاسبة عملا وتركا كما قال في الكهف: ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه﴾ إلى أن قال: ﴿ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل﴾ الآية وقال في سبحان: ﴿فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرأون كتابهم﴾ إلى أن قال: ﴿ولقد." (٢)

"واشتملت سورة "ص" على خصومات متعددة فأولها خصومة النبي صلى الله عليه وسلم مع الكفار وقولهم: ﴿أجعل الآلهة إلها واحدا﴾ ثم اختصام الخصمين عند داود ثم تخاصم أهل النار ثم اختصام الملأ الأعلى ثم تخاصم إبليس في شأن آدم ثم في شأن بنيه وإغوائهم

و "الم" جمعت المخارج الثلاثة الحلق واللسان والشفتين على ترتيبها وذلك إشارة إلى البداية التي هي بدء الخلق والنهاية التي هي بدء الميعاد والوسط الذي هو المعاش من التشريع بالأوامر والنواهي وكل سورة

---

(١) الإتقان في علوم القرآن السيوطي ٣/٣٧١

(٢) الإتقان في علوم القرآن السيوطي ٣/٣٧٧

افتتحت بها فهي مشتملة على الأمور الثلاثة

وسورة الأعراف زيد فيها الصاد على "الم" لما فيها من شرح القصص قصة آدم فمن بعده من الأنبياء ولما فيها من ذكر ﴿فلا يكن في صدرك حرج﴾ ولهذا قال بعضهم معنى "المص" ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ وزيد في الرعد راء لأجل قوله: ﴿رفع السماوات﴾ ولأجل ذكر الرعد والبرق وغيرهما

واعلم أن عادة القرآن العظيم في ذكر هذه الحروف أن يذكر بعدها ما يتعلق بالقرآن كقوله: ﴿الم ذلك الكتاب﴾ ﴿الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب بالحق﴾ ، ﴿المص كتاب أنزل إليك﴾ ﴿الر تلك آيات الكتاب الحكيم﴾ ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ ﴿طسم تلك آيات الكتاب﴾ ﴿يس والقرآن﴾ ﴿ص والقرآن﴾ ﴿حم تنزيل الكتاب﴾ ﴿ق والقرآن﴾ إلا ثلاث سور: العنكبوت والروم ون ليس فيها ما يتعلق به وقد ذكرت حكمة ذلك في "أسرار التنزيل"." (١)

"والنور في الأنعام وإنزال الكتاب في الكهف وملك ما في السموات وما في الأرض في سبأ وخلقهما في فاطر لأن الفاتحة أم القرآن ومطلعه فناسب الإتيان فيها بأبلغ الصفات وأعمها وأشملها.

في العجائب الكرماني: إن قيل: كيف جاء "يسألونك" أربع مرات بغير واو ﴿يسألونك عن الأهلة﴾ ﴿يسألونك ماذا ينفقون﴾ ﴿يسألونك عن الشهر الحرام﴾ ﴿يسألونك عن الخمر﴾ ثم جاء ثلاث مرات بالواو: ﴿ويسألونك ماذا ينفقون﴾ ﴿ويسألونك عن اليتامى﴾ ﴿ويسألونك عن المحيض﴾ قلنا لأن سؤالهم عن الحوادث الأول وقع متفرقا وعن الحوادث الأخر وقع في وقت واحد فجيء بحرف الجمع دلالة على ذلك

فإن قيل: كيف جاء ﴿ويسألونك عن الجبال فقل﴾ وعادة القرآن مجئ "قل" في الجواب بلا فاء؟ أجاب الكرماني بأن التقدير: "لو سئلت عنها فقل"

فإن قيل: كيف جاء ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب﴾ وعادة السؤال يجئ جوابه في القرآن "بقل"؟ قلنا: حذفت للإشارة إلى أن العبد في حالة الدعاء في أشرف المقامات لا واسطة بينه وبين مولاه." (٢)

"فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته أي: ما أنزل عليه وعلى سائر الرسل قبله من كتبه ووحيه. وإنما عدل عن التكلم إلى الغيبة، أي: لم يقل: فآمنوا بالله وآمنوا لإجراء هذه الصفات عليه، الداعية إلى الإيمان به وأتباعه، ولذلك قال: واتبعوه لعلكم تهتدون إلى طريق الحق والرشد، جعل رجاء

---

(١) الإتقان في علوم القرآن السيوطي ٣٨٤/٣

(٢) الإتقان في علوم القرآن السيوطي ٣٨٨/٣

الاهتداء آثر الأمرين تنبيها على أن من صدقه، ولم يتابعه بالتزام شرعه فهو يعد في خطط الضلالة. قاله البيضاوي.

الإشارة: لا غنى للمريد عن متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولو بلغ ما بلغ، لقوله تعالى: واتبعوه لعلكم تهتدون، وغاية الاهتداء غير متناهية، لأن آدب العبودية مقرون مع عظمة الربوبية، فكما أن الترقي في مشاهدة الربوبية لا نهاية له، كذلك أدب العبودية لا نهاية له، ولا تعرف كيفية الأدب إلا بواسطة تعليمه عليه الصلاة والسلام، فواسطة النبي صلى الله عليه وسلم لا تفارق العبد، ولو عرف ما عرف، وبلغ ما بلغ. والله تعالى أعلم.

ثم رجع الحق تعالى إلى الكلام مع بنى إسرائيل، فقال:

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٥٩]

ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون (١٥٩)

يقول الحق جل جلاله: ومن قوم موسى، يعني بني إسرائيل، أمة طائعة يهدون الناس بكلمة الحق، أو متلبسين بالحق وهم الذين ثبتوا حين افتتن الناس بعباده العجل، والأحبار الذين تمسكوا بالتوراة من غير تحريف، أو الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، وبه أي: بالحق يعدلون في أحكامهم وقضاياهم.

قال البيضاوي: أتبع ذكرهم ذكر أضدادهم على ما هو **عادة القرآن** تنبيها على أن تعارض الخير والشر وتزاحم أهل الحق والباطل أمر مستمر. هـ.

الإشارة: في كل أمة، وفي كل عصر، أمة صالحة، يبصرون الناس بالحق، ويدعون إلى الله، فمنهم من يهدي إلى تزيين الظواهر بالشرائع، وهم العلماء الأتقياء، ومنهم من يهدي إلى تنوير السرائر بالحقائق، وهم الصوفية الأولياء، المحققون بمعرفة الله. وبالله التوفيق.

ثم ذكر أحوال بنى إسرائيل، فقالوا:

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٦٠]

وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطا أمما وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست

منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون (١٦٠)." (١)

"بأخبار من الله تعالى ولم يقص علينا فيما حكي عنهم اكتفاء بدلالة الجواب عليه للإيجاز كما هو عادة القرآن، ويؤيد ذلك ما روي في بعض الآثار أنه لما قال الله تعالى ذلك قالوا: وما يكون من ذلك الخليفة؟ قال: تكون له ذرية يفسدون في الأرض ويقتل بعضهم بعضا فعند ذلك قالوا: ربنا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء وقيل:

عرفوا ذلك من اللوح ويبعده عدم علم الجواب، ويحتاج الجواب إلى تكلف، وقيل: عرفوه استنباطا عما ركز في عقولهم من عدم عصمة غيرهم المفضي إلى العلم بصدور المعصية عمن عداهم المفضي إلى التنازع والتشاجر إذ من لا يرحم نفسه لا يرحم غيره، وذلك يفضي إلى الفساد وسفك الدماء، وقيل: قياسا لأحد الثقلين على الآخر بجامع اشتراكهما في عدم العصمة ولا يخفى ما في القولين، ويحتمل أنه علموا ذلك من تسميته خليفة لأن الخلافة تقتضي الإصلاح وقهر المستخلف عليه وهو يستلزم أن يصدر منه فساد إما في ذاته بمقتضى الشهوة أو في غيره من السفك أو لأنها مجلى الجلال كما أنها مجلى الجمال، ولكل آثار، والإفساد والسفك- من آثار الجلال وسكتوا عن آثار الجمال إذ لا غرابة فيها وهم على كل تقدير ما قدروا الله تعالى حق قدره ولا يخل ذلك بهم ففوق كل ذي علم عليم ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك حال من ضمير الفاعل في أتجعل وفيها تقرير لجهة الإشكال، والمعنى تستخلف من ذكر ونحن المعصومون وليس المقصود إلا الاستفسار عن المرجح لا العجب والتفاخر حتى يضر بعصمتهم كما زعمت الحشوية، ولزوم الضمير، وترك الواو في الجملة الاسمية إذا وقعت حالا مؤكدة غير مسلم كما في شرح التسهيل وصيغة المضارع للاستمرار، وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي للاختصاص، ومن الغريب جعل الجملة استفهامية حذف منها الأداة، وكذا المعادل والتسبيح في الأصل مطلق التبعيد، والمراد به تبعيد الله تعالى عن السوء وهو متعد بنفسه ويءدى باللام إشعارا بأن إيقاع الفعل لأجل الله تعالى وخالصا لوجهه سبحانه فالمفعول المقدر هاهنا يمكن أن يكون باللام على وفق قرينه، وأن يكون بدونه كما هو أصله، و «بحمدك» في موضع الحال والباء لاستدامة الصحبة والمعية، وإضافة الحمد إما إلى الفاعل والمراد لازمه مجازا من التوفيق والهداية، أو إلى المفعول أي متلبسين بحمدنا لك على ما وفقتنا لتسبيحك، وفي ذلك نفي ما يوهمه الإسناد من العجب، وقيل: المراد به تسبيح خاص وهو- سبحان ذي الملك

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢/ ٢٧١

والملكوت سبحان ذي العظمة والجبروت سبحان الحي الذي لا يموت- ويعرف هذا بتسبيح الملائكة، أو- سبحان الله وبحمده-

وفي حديث عن عبادة بن الصامت عن أبي ذر «أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم سئل أي الكلام أفضل؟ قال ما اصطفى الله تعالى لملائكته أو لعباده سبحان الله وبحمده»

أي وبحمده نسبح، والتقديس- في المشهور كالتسبيح معنى، واحتاجوا لدفع التكرار إلى أن أحدهما باعتبار الطاعات والآخر باعتبار الاعتقادات، وقيل: التسبيح تنزيهه تعالى عما لا يليق به، والتقديس تنزيهه في ذاته عما لا يراه لائقا بنفسه فهو أبلغ ويشهد له أنه حيث جمع بينهما أخر نحو- سبوح قدوس- ويحتمل أن يكون بمعنى التطهير، والمراد نسبحك ونطهر أنفسنا من الأدناس أو أفعالنا من المعاصي فلا نفعل فعلهم من الإفساد والسفك أو نطهر قلوبنا عن الالتفات إلى غيرك، ولام «لك» إما للعلة متعلق- بنقدس- والحمل على التنازع مما فيه تنازع أو معدية للفعل كما في- سجدت لله تعالى- أو للبيان كما في- سفها لك (١) - فمتعلقها حينئذ خبر مبتدأ محذوف أو زائدة والمفعول هو المجرور، ثم الظاهر أن قائل هذه الجملة هو قائل الجملة الأولى، وأغرب الشيخ صفي الدين الخزرجي في كتابه- فك الأزرار- فجعل القائل مختلفا، وبين ذلك بأن الملائكة كانوا حين ورود الخطاب عليهم مجملين وكان إبليس مندرجا في

---

(١) قوله سفها لك كذا بخطه اه مصححه.." (١)

"ومعنى التكذيب بها تكذيبهم بالوحي الناطق بها، وقوله تعالى: أفسحر هذا توبيخ وتقريع لهم حيث كانوا يسمونه سحرا كأنه قيل: كنتم تقولون للوحي الذي أنذركم بهذا سحرا أفهذا المصدق له سحر أيضا وتقديم الخبر لأنه المقصود بالإنكار والمدار للتوبيخ.

أم أنتم لا تبصرون أي أم أنتم عمي عن المخبر به كما كنتم في الدنيا عميا عن الخبر والفاء مؤذنة بما ذكر وذلك لأنها لما كانت تقتضي معطوفا عليه يصح ترتب الجملة أعني سحر هذا عليه وكانت هذا جملة واردة تقريعا مثل هذا النار إلخ لم يكن بد من تقدير ذلك على وجه يصح الترتب ويكون مدلولا عليه من السياق فقدر كنتم تقولون إلى آخره، ودل عليه قوله تعالى: في خوض يلعبون وقوله سبحانه: هذه النار التي كنتم بها تكذبون وفي الكشف إن هذا نظير ما تستدل بحجة فيقول الخصم: هذا باطل فتأتي بحجة

---

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ٢٢٤/١

أوضح من الأول مسكتة وتقول:
أفباطل هذا؟! تعيره بالإلزام بأن مقالته ال أولى كانت باطلة، وفي مثله جاز أن يقدر القول على معنى أفتقول باطل هذا وأن لا يقدر لابتنائه على كلام الخصم وهذا أبلغ، وأم كما هو الظاهر منقطعة، وفي البحر لما قيل لهم: هذه النار وقفوا على الجهتين اللتين يمكن منهما دخول الشك في أنها النار وهي إما أن يكون ثم سحر يلبس ذات المرأى، وإما أن يكون في ناظر الناظر اختلال، والظاهر أنه جعل أم معادلة والأول أبعد مغزى.
اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا أي ادخلوها وقاسوا شدائدها فافعلوا ما شئتم من الصبر وعدمه.
سواء عليكم أي الأمران سواء عليكم في عدم النفع إذ كل لا يدفع العذاب ولا يخففه- فسواء- خبر مبتدأ محذوف وصح الإخبار به عن المثنى لأنه مصدر في الأصل، وجوز كونه مبتدأ محذوف الخبر وليس بذاك، وقوله تعالى: إنما تجزون ما كنتم تعملون تعليل للاستواء فإن الجزاء حيث كان متحتم الوقوع لسبق الوعيد به وقضائه سبحانه إياه بمقتضى عدله كان الصبر وعدمه مستويين في عدم النفع.
إن المتقين في جنات ونعيم شروع في ذكر حال المؤمنين بعد ذكر حال الكافرين كما هو **عادة القرآن** الجليل في الترهيب والترغيب، وجوز أن يكون من جملة المقبول للكفار إذ ذاك زيادة في غمهم وتنكيدهم والأول أظهر، والتنوين في الموضعين للتعظيم أي في جنات عظيمة ونعيم عظيم، وجوز أن يكون للنوعية أي نوع من الجنات ونوع من النعيم مخصوصين بهم وكونه عوضا عن المضاف إليه أي جناتهم ونعيمهم ليس بالقوي كما لا يخفى.
فاكهين متلذذين بما آتاهم ربهم من الإحسان، وقرىء- فكهين- بلا ألف، ونصبه في القراءتين على الحال من الضمير المستتر في الجار والمجرور أعني من جنات الواقع خبرا لأن، وقرأ خالد- فاكهون- بالرفع على أنه الخبر، وفي جنات متعلق به لكنه قدم عليه للاهتمام، ومن أجاز بعدد الخبر أجاز أن يكون خبرا بعد خبر ووقاهم ربهم عذاب الجحيم عطف على «في جنات» على تقدير كونه خبرا كأنه قيل: استقروا في جنات ووقاهم ربهم إلخ، أو على آتاهم إن جعلت (ما) مصدرية أي فاكهين بإيتائهم ربهم ووقايتهم عذاب الجحيم، ولم يجوز كثير عطفه عليه إن جعلت موصولة إذ يكون التقدير فاكهين بالذي وقاهم ربهم فلا يكون راجع إلى الموصول، وجوزه بعض بتقدير الراجع أي وقاهم به على أن الباء للملابسة، وفي الكشف لم يحمل على حذف الراجع لكثرة الحذف ولو درج نصا. والفعل من المتعدي إلى ثلاثة مفاعيل وهو مسموع عند بعضهم، ولا يخفى أنه وجه سديد أيضا، والمعنى عليه أسد لأن الفكاهة تلذذ يشتغل به صاحبه

والتلذذ بالإيتاء يحتمل التجدد باعتبار تعدد المؤتى إما بالوقاية أي على تقدير المصدرية فلا، وأقول لعله هو المنساق إلى الذهن، وجوز أن يكون حالا بتقدير قد أو بدونه إما من المستكن في الخبر أو في الحال. وإما من فاعل آتى أو من مفعوله. أو منهما، وإظهار الرب في موقع." (١)

"يخرج عن الاسمية، وقال الكوفيون: إن التاء لمجرد التأنيث وياء بالإضافة مقدرة، ويأباه عدم سماع يا أبتي في السعة، وكذا سماع فتحها على ما قيل، وتعقب بأن تاء لات للتأنيث عند الجمهور وكذا تاء ربت، وثمت وهي مفتوحة إني رأيت أي في المنام كما يقتضيه كلام ابن عباس وغيره، وكذا قوله سبحانه: لا تقصص رؤياك وهذا تأويل رؤياي، فإن مصدر رأي الحلمية الرؤيا ومصدر البصرية الرؤية في المشهور، ولذا خطىء المتنبي في قوله:

ورؤياك أحلى في العيون من الغمض وذهب السهيلي وبعض اللغويين الى أن الرؤيا سمعت من العرب بمعنى الرؤية ليلا ومطلقا، واستدل بعضهم لكون رأي حلمية بأن ذلك لو وقع يقظة وهو أمر خارق للعادة لشاع وعد معجزة ليعقوب عليه السلام أو إرهاصا ليوسف عليه السلام، وأجيب بأنه يجوز أن يكون في زمان يسير من الليل والناس غافلون، والحق أنها حلمية، ومثل هذا الاحتمال مما لا يلتفت إليه.

وقرأ أبو جعفر «أني» (١) بفتح الياء أحد عشر كوكبا وهي جربان والطارق والذيال وقابس وعمودان والفيلق والمصبح والفرع ووثاب وذو الكتفين والضروح

فقد روي عن جابر أن سنانا اليهودي جاء الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: أخبرني يا محمد عن النجوم التي رآهن يوسف فسكت فنزل جبريل عليه السلام فأخبره بذلك فقال عليه الصلاة والسلام: هل أنت مؤمن إن أخبرتك؟ قال: نعم فعد صلى الله عليه وسلم ما ذكر فقال اليهودي: أي والله إنها لأسماؤها.

وأخرج السهيلي عن الحارث بن أبي أسامة نحو ذلك إلا أنه ذكر النطح بدل المصبح، وأخرج الخبر الأول جماعة من المفسرين وأهل الأخبار وصححه الحاكم، وقال: إنه على شرط مسلم، وقال أبو زرعة وابن الجوزي: إنه منكر موضوع.

وقرأ الحسن وطلحة بن سليمان وغيرهما أحد عشر بسكون العين لتوالي الحركات وليظهر جعل الاسمين اسما واحدا والشمس والقمر عطف على ما قبل.

وزعم بعضهم أن الواو للمعية وليس بذاك وتخصيصهما بالذكر وعدم الاندراج في عموم الكواكب

---

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ٣١/١٤

لاختصاصهما بالشرف وتأخيرهما لأن سجودهما أبلغ وأعلى كعبا فهو من باب لا يعرفه فلان ولا أهل بلده، وتقديم الشمس على القمر لما جرت عليه **عادة القرآن** إذا جمع الشمس والقمر، وكان ذلك إما لكونها أعظم جرما وأسطع نورا وأكثر نفعا من القمر وإما لكونها أعلى مكانا منه وكون فلكها أبسط من فلكه على ما زعمه أهل الهيئة وكثيرين من غيرهم، وإما لأنها مفيضة النور عليه كما ادعاه غير واحد، واستأنس له بقوله سبحانه: هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا [يونس: ٥] وإنما أورد الكلام على هذا الأسلوب ولم يطو ذكر العدد لأن المقصود الأصلي أن يتطابق المنام ومن هو في شأنهم وبترك العدد يفوت ذلك رأيتهم لي ساجدين استظهر في البحر أن رأيتهم تأكيد لما تقدم تطرية للعهد كما في قوله تعالى: أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون واختار الزمخشري التأسيس وأن الكلام جواب سؤال مقدر كأن يعقوب عليه السلام قال له عند قوله: رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر كيف رأيتها؟ سائلا عن حال رؤيتها فقال: رأيتهم لي ساجدين وكأنه لا يرى أن رأي

---

(١) قوله: وقرأ أبو جعفر إلخ هكذا بخطه ولعلها من غير المتواتر عنه. [.....]."[(١)]

"بحسب بادئ الرأي والنظرة الأولى أما إذا نظر بعين الإنصاف بعد تسليم أن ذاك أولى وأقوى علم أن ما قاله أبو حيان وارد فإن قوله تعالى: كذلك يقتضي أن هذا شأنه وعادته عز شأنه في ضرب الأمثال فيقتضي أن ما جرت به **العادة القرآنية** مقيد بهؤلاء وليس كذلك، وما ذكره المتعقب ولو سلم فهو خلاف الظاهر. وأما قوله: إن المستجيبين معلوم مما ذكره ففرق بين العلم ضمنا والعلم صراحة، وأما أن الصفة مؤكدة أولا مفهوم لها فخلاف الأصل أيضا، وكون الجملة غير مرتبطة بما قبلها ظاهر، والسؤال عن حال أحد الفريقين مع ذكرهما ملبس، وعود الضمير على ما قبله مطلقا هو المتبادر وما ذكر لا يدفع الإيهام. وفي إرشاد العقل السليم بعد نقل التفسير الأخير وحمل الأمثال فيه على الأمثال السابقة: وأنت خبير بأن عنوان الاستجابة وعدمها لا مناسبة بينه وبين ما يدور عليه أمر التمثيل وأن الاستعمال المستفيض دخول اللام على من يقصد تذكيره بالمثل. نعم قد يستعمل في هذا المعنى أيضا كما في قوله تعالى:
ضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأت فرعون [التحريم: ١١] ونظائره، على أن بعض الأمثال المضروبة لا سيما المثل الأخير الموصول بالكلام ليس مثل الفريقين بل مثل للحق والباطل ولا مساغ لجعل الفريقين مضروبا لهم أيضا بأن يجعل في حكم أن يقال: كذلك يضرب الله الأمثال للناس إذ لا وجه حينئذ لتنويعهم إلى

---

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ٦/٣٧١

المستجيبين وغير المستجيبين ويؤيد هذا ما في الكشف حيث قال: إن جعل للذين استجابوا من تتمة الأمثال لا من صلة يضرب متكلف لأنهما مثلا الحق والباطل بالأصالة ومن صلة يضرب أبعد لأن الأمثال إنما ضربت لمن يعقل.

ثم إن كون المراد بالأمثال الأمثال السابقة مبني على أن ما تقدم كان أمثالا والمشهور أنه مثلان، نعم أخرج ابن جرير. وغيره عن قتادة أنه قال في الآية: هذه ثلاثة أمثال ضربها الله تعالى في مثل واحد، وبعد هذا كله لا شك في سلامة التفسير الأول من القيل والقال وإنه الذي يستدعيه النظم الجليل لأن تمام حسن الفاصلة أن تكون كاسمها ولهذا انحط قول امرئ القيس:

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي ... بصبح وما الإصباح منك بأمثل

عن قول المتنبي:

إذا كان مدحا فالنسيب المقدم ... أكل فصيح قال شعرا متيم

وهو الذي فهمه السلف من الآية، ومن هنا كان أكثر الشيوخ يقفون على الأمثال ويتبدؤون بقوله تعالى: للذين استجابوا وقال صاحب المرشد: إنه وقف تام والوقف على الحسنى حسن وكذا على لافتدوا به والعجب من الزمخشري كيف اختار خلاف ذلك مع وضوحه والله تعالى أعلم.

ومن باب الإشارة: المر أي الذات الأحدية واسمه العليم واسمه الأعظم ومظهره الذي هو الرحمة تلك آيات علامات الكتاب الجامع الذي هو الوجود المطلق الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها أي بغير عمد مرئية بل بعمد غير مرئية، وجعل الشيخ الأكبر قدس سره عمادها الإنسان الكامل، وقيل: النفس المجردة التي تحركها بواسطة النفس المنطبعة وهي قوة جسمانية سارية في جميع أجزاء الفلك لا يختص بها جزء دون جزء لبساطته وهي بمنزلة الخيال فينا وفيه ما فيه، وقيل: رفع سموات الأرواح بلا مادة تعمدها بل مجردة قائمة بنفسها ثم استوى على العرش بالتأثير والتقويم، وقيل: عرش القلب بالتجلي وسخر الشمس شمس الروح بإدراك المعارف الكلية واستشراف الأنوار العالية «والقمر» قمر القلب بإدراك ما في العالمين والاستمداد من فوق ومن تحت ثم قبول تجليات الصفات كل يجري لأجل مسمى وهو كماله بحسب الفطرة يدبر الأمر في البداية بتهيئة الاستعداد وترتيب." (١)

"ويحرص على أن يحيط علمه بما يريده هو منها، ويجتهد في إنزالها من نفسه في أفضل منازلها، ومن ذلك التنبيه لها قبل البدء بها لكيلا يفوته شيء منها.

---

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ١٢٧/٧

وقد جعلت العرب منه هاء التنبيه وأداة الاستفتاح، فأي غرابة في أن يزيد عليها القرآن الذي بلغ حد الإعجاز في البلاغة وحسن البيان، ويجب أن يكون الإمام المقتدى، كما أنه هو الإمام في الإصلاح والهدى؟ ومنه ما يقع في أثناء الخطاب من رفع الصوت وتكييفه بما تقتضيه الحال من صحية التخويف والزجر، أو غنة الاسترحام والعطف، أو رنة النعي وإثارة الحزن، أو نغمة التشويق والشجو، أو هيعة الاستصراخ عند الفزع، أو صخب التهويش وقت الجدل. ومنه الاستعانة بالإشارات وتصوير المعاني بالحركات، ومنه كتابة بعض الكلمات أو الجمل بحروف كبيرة أو وضع خط فوقها أو تحتها..إلخ"١.

وإن انطباق هذه الحكمة على الواقع النفسي لمن كان القرآن موجها إليهم حين نزول الوحي، لا يزيدنا إلا استمساكا بهذا الرأي. ولأمر ما افتتحت جميع السور التي في أولها حروف مقطعة بذكر الكتاب أو معان تتعلق بالوحي والنبوة٢. ومن المعلوم أن هذه السور كلها مكية إلا البقرة وآل عمران. فأما المكية فلدعوة المشركين إلى إثبات النبوة والوحي، وأما الزهراوان المدنيتان فلمجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن٣. وكانت تلك الفواتح كفيلة بتنبيه هؤلاء وأولئك إلى ما كان يلقى عليهم حتى لا يفوتهم شيء.

وما تنفك هذه الفواتح من عوامل الاستغراب، ولا يخلق الاستغراب إلا الاهتمام، ولا يثير الاهتمام إلا التنبيه، ولن ينبه الناس ويقرع أسماعهم صوت أحل وقعا من هذه الحروف المقطعة الأزلية التي همستها السماء في أذن الأرض!

---

١ تفسير المنار ٨/ ٢٩٩.

٢ وهذا ينطبق حتى على سور مريم، والعنكبوت، والروم، ون، لأنها -وإن لم تفتتح بذكر الكتاب- قد اشتملت على معان تتعلق بإثبات الوحي والنبوة. وانظر تفصيل ذلك في تفسير المنار ٨/ ٢٩٦-٢٩٨.

وقد نبه إلى ذلك الإمام الزركشي في "البرهان ١/ ١٧٠" فقال: "واعلم أن عادة القرآن العظيم في ذكر هذ الحروف أن يذكر بعدها ما يتعلق بالقرآن كقوله: ﴿الم، ذلك الكتاب﴾ [سورة البقرة: ١، ٢] ، وقد جاء بخلاف ذلك في العنكبوت والروم، فيسأل عن ذلك".

٣ ويزداد هذا الرأي وضوحا إذا سلمنا بأن الزهراوين كانتا من أولائل السور نزولا في المدينة كما هو المشهور، وبنزولهما مفتتحتين بهذه الحروف المقطعة تمت الحكمة الإلهية من تنبيه اليهود إلى الدعوة الجدية وإثارة اهتمامهم بها، فلم يعد في استمرار الافتتاح بتلك الحروف بعد الزهراوين حكمة ظاهرة باهرة، ولذلك نزل لوحي بعدهما خاليا من تلك الفواتح، فلا ضرورة للتسليم بصحة الاعتراض الذي وجهه ابن كثير في تفسير

"١/ ٣٧-٣٨" إلى هذا القول بسب مدنية البقرة وآل عمران وكونهما ليستا خطابا للمشركين: لأن الحكمة من تخصيص الزهراوين بهذه الفواتح تكون -على ما بيناه- بالغة دامغة.." (١)

"الفرقان ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا﴾

القدر: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾

الزمر: ﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم (١) إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين﴾

كما أن التنبيه، جاء في القرآن بغير الحروف المقطعة، كالنداء في سور النساء والحج والتحريم، والبدء بواو القسم في مثل سور الضحى والعصر والليل والفجر والشمس والنجوم. . . وعدم ذكر البسملة، في سورة التوبة.

وقد رد الرازي على الأول، بأن السورة التي فيها ذكر القرآن تنبه على كل القرآن. ورد على الثاني بأن هذه السور غير المفتتحة بالحروف، ليست واردة على مشغول القلب بشيء غير القرآن. ورد على الثالث بأن أوائل الحج والتحريم أشياء هائلة عظيمة.

وأما السور التي افتتحت بالحروف ولم يذكر بعدها القرآن أو التنزيل، فعلله بأن ثقل القرآن، بما فيه من التكاليف والمعاني.

ولا يبدو رده مقنعا، بل هو واضح التكلف.

وكان "الزركشي" أوضح مسلكا وأنأى عن تكليف، إذ اكتفى بقوله:

"واعلم أن عادة القرآن العظيم في ذكر هذه الحروف، أن يذكر بعدها ما يتعلق بالقرآن. . .

وقد جاء بخلاف ذلك في العنكبوت والروم، فيسأل عن حكمة ذلك." وهو ما حاوله "الحافظ ابن كثير" فهداه الاستقراء إلى أن كل سورة افتتحت بالحروف فلابد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه. على ما سوف ننقل فيما يلي.

* * *." (٢)

"يورد القرآن كثيرا من النماذج التي تؤيد صحة الدعوة، وتؤكد نسبتها إلى الله تعالى.

٢ - أن معظم هذه السور فيها حديث - بعد الفواتح مباشرة - عن سمو القرآن وعلو طبقته: (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) ،

---

(١) مباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح صبحي الصالح ص/٢٤٥

(٢) الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ ص/١٥٤

و (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت) . . . إلى آخر هذه الآيات والمطالع.

وقد تنبه العلماء قديما إلى هذه الظاهرة، فنص عليها الرازى،

والزركشى وغيرهما.

قال الزركشي: " واعلم أن عادة القرآن العظيم في ذكر هذه الحروف أن يذكر بعدها ما يتعلق بالقرآن. .

وقد جاء بخلاف ذلك في العنكبوت والروم فيسأل عن حكمة ذلك ".

والمشكلة تتصور في العرض الآتى: فقد حرص القرآن الكريم في كل سورة

بدئت بالحروف المقطعة أن يذكر معها ما يتعلق بالقرآن.

وتخلف هذا المنهج فى ثلاث سور هي: مريم – العنكبوت – الروم. فقد جاءت مطالعها هكذا:

(كهيعص (١) ذكر رحمت ربك عبده زكريا (٢) .

(الم (١) أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون (٢) .

(الم (١) غلبت الروم (٢) .

والحق أن المتتبع لهذه السور الثلاث يجد في غضونها ذكرا وحديثا عن

القرآن، أو الانتصار للقرآن كما يقول الحافظ ابن كثير.." (١)

"(٤٦٦١٨) – عن الضحاك بن مزاحم – من طريق عبيد – في قوله: (كيف نكلم من كان في المهد صبيا قال إني عبد الله)، قال: لم يتكلم عيسى إلا عند ذلك، حين (قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا) أخرجه ابن جرير (١٥) / (٥٢٨)، وإسحاق البستي في تفسيره ص (١٩٠) – .

(ذلك عيسى ابن مريم قول الحق)

قراءات

(٤٦٦١٩) – عن إبراهيم النخعي – من طريق الأعمش – قال: كانوا يقولون في هذا الحرف في قراءة عبد الله بن مسعود: (قال الله الذي فيه يمترون) – قال: كلمة الله أخرجه ابن جرير (١٥) / (٥٣٥) – (قال الله) قراءة شاذة – انظر: مختصر ابن خالويه ص (٨٧) – ساق ابن جرير ((١٥) / (٥٣٥)) هذا القول، ثم قال: «ولو وجه تأويل ذلك إلى: ذلك عيسى ابن مريم القول الحق، بمعنى: ذلك القول الحق، ثم حذفت الألف واللام من القول، وأضيف إلى الحق – كما قيل: (إن هذا لهو حق اليقين) [الواقعة: (٩٥)]، وكما قيل: (وعد الصدق الذي كانوا يوعدون) [الأحقاف: (١٦)] كان تأويلا صحيحا» – .

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية عبد العظيم المطعني ١/٢٠٤

(٤٦٦٢٠) - عن الأعمش: في قراءة عبد الله بن مسعود: (ذلك عيسى ابن مريم قال الحق الذي فيه يمترون) أخرجه ابن أبي داود في المصاحف (١) / (٣٢٢) - (قال الحق) قراءة شاذة - انظر: مختصر ابن خالويه ص (٨٧) - ذكر ابن جرير ((١٥) / (٥٣٦)) أن هذه القراءة بمعنى: قول الحق، مثل: العاب والعيب، والذام والذيم - .

تفسير الآية

(٤٦٦٢١) - عن مجاهد بن جبر - من طريق ابن جريج - في قوله: (ذلك عيسى ابن مريم قول الحق)، قال: الله الحق أخرجه ابن جرير (١٥) / (٥٣٥)، وإسحاق البستي في تفسيره ص (١٩٠) - وعزاه السيوطي إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم - استدرك ابن تيمية ((٤) / (٢٧٩) - (٢٨٠)) على هذا القول بقوله: «فهو وإن كان معنى صحيحا فعادة القرآن إذا أضيف القول إلى الله أن يقال: قول الله، لا يقال: قول الحق، إلا إذا كان المراد: القول الحق، كما في قوله: (قوله الحق) [الأنعام: (٧٣)]» - .
". (١)

"كتابه مطلعها سبعة آلاف سنة، ومهبطها سبعة آلاف سنة أخرجه ابن أبي حاتم - كما في التخويف من النار ص (٧٦) - - وعزاه السيوطي إلى ابن جرير - .

(٨٣٣٥٤) - قال مجاهد بن جبر=

(٨٣٣٥٥) - والضحاك بن مزاحم=

(٨٣٣٥٦) - ومحمد بن السائب الكلبي: (فلا اقتحم العقبة) هي الصراط يضرب على جهنم كحد السيف، مسيرة ثلاثة آلاف، سهلا وصعودا وهبوطا، وأن لجنبتيه كلاليب وخطاطيف كأنها شوك السعدان، فناج مسلم، وناج مخدوش، ومكردس في النار منكوس، فمن الناس من يمر عليه كالبرق الخاطف، ومنهم من يمر عليه كالريح العاصف، ومنهم من يمر عليه كالفارس، ومنهم من يمر عليه كالرجل يسير، ومنهم من يزحف زحفا، ومنهم الزالون والزالات، ومنهم من يكردس في النار، واقتحامه على المؤمن كما بين صلاة العصر إلى العشاء تفسير الثعلبي (١٠) / (٢١٠)، وتفسير البغوي (٨) / (٤٣٢) - .

(٨٣٣٥٧) - عن الحسن البصري - من طريق أبي رجاء - قال: عقبة في جهنم أخرجه ابن جرير (٢٤) / (٤٢٠) - .

(٨٣٣٥٨) - عن الحسن البصري - من طريق أبي رجاء - (فلا اقتحم العقبة) قال: جهنم، (وما أدراك ما

---

(١) موسوعة التفسير المأثور المؤلف غير معروف ١٠١/٢٥

العقبة) قال: ذكر لنا: أنه ليس من رجل مسلم يعتق رقبة مسلمة إلا كانت فداءه من النار أخرجه ابن جرير (٢٤) / (٤٢٠)، (٤٢٢) – وعزاه السيوطي إلى عبد بن حميد – .

(٨٣٣٥٩) – عن أبي صالح [باذام]، (فلا اقتحم العقبة)، قال: عقبة بين الجنة والنار عزاه السيوطي إلى ابن المنذر – .

(٨٣٣٦٠) – عن قتادة بن دعامة – من طريق معمر – قال: النار عقبة دون الجنة، واقتحامها (فك رقبة) الآية [البلد: (١٣)] أخرجه عبد الرزاق (٢) / (٣٧٤)، وابن جرير (٢٤) / (٤٢٠)، (٤٢٣) بلفظ: النار عقبة دون الجسر – وعزاه السيوطي إلى ابن المنذر – .

(٨٣٣٦١) – عن قتادة بن دعامة – من طريق سعيد – في قوله: (فلا اقتحم العقبة)، قال: إنها قحمة شديدة، فاقتحموها بطاعة الله أخرجه ابن جرير (٤2) / (٤٢٠) – .

(٣٦٢3٨) – عن قتادة بن دعامة: هذا مثل ضربه الله سبحانه، يقول: إن المعتق والمطعم يقاحم نفسه وشيطانه مثل من يتكلف صعود العقبة تفسير الثعلبي (١٠) / (٢١٠) – .

(٨٣٣٦٣) – قال مقاتل بن سليمان: ثم عرفه على الكفارة، فقال: (فلا اقتحم العقبة)، وهو مثل ضربه الله له، يقول: إن الذنوب بين يديك مثل الجبل، فإذا أعتقت رقبة اقتحم ذلك الذنوب حتى تذوب وتذهب، كمثل رجل بين يديه عقبة، فيقتحم، فيستوي بين يديه، وكذلك من أصاب ذنبا واستغفر ربه وكفره بصدقة تتقحم ذنوبه حتى تحطمها تحطيما مثل الجبل إذا خر، فيستوي مع الأرض، فذلك قوله: (فلا اقتحم العقبة) تفسير مقاتل بن سليمان (٤) / (٧٠٢) – (٧٠٣) – .

(٨٣٣٦٤) – عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم – من طريق ابن وهب – (فلا اقتحم العقبة)، قال: ألا سلك الطريق التي فيها النجاة والخير أخرجه ابن جرير (٢٤) / (٤٢١) – ذكر ابن عطية ((٨) / (٦٢٢)) ،اختلاف المفسرين في قوله تعالى: (فلا) على أقوال: «فقال جمهور المفسرين: هو تحضيض بمعنى: فألا – وقال آخرون: هو دعاء بمعنى أنه يستحق أن يدعى عليه بأن لا يفعل خيرا – وقيل: هو نفي، أي: فما اقتحم، وقاله أبو عبيدة، والزجاج – ثم وجه القول الأخير بقوله:» وهذا نحو قوله تعالى: (فلا صدق ولا صلى) [القيامة: (٣١)]، فهو نفي محض، كأنه تعالى قال: وهبنا له الجوارح ودللناه على السبيل فما فعل خيرا" – واختلف في «العقبة» هل هي مثل عقبة الدنيا، أو هي عقبة حقيقية في الآخرة؟ على قولين: الأول: أنها مثل ضربه الله لمجاهدة النفس والشيطان في أعمال البر – الثاني: أنها عقبة حقيقة، يصعدها الناس – وذكر ابن عطية ((٨) / (٦٢٢)) أن معنى «(العقبة) في هذه الآية – على عرف كلام العرب – استعارة

لهذا العمل الشاق على النفس من حيث هو بذل مال، تشبيه بالعقبة من الجبل، وهي ما صعب منه وكان صعودا» - ثم ذكر أن المفسرين رأوا «أن (العقبة) يراد بها: جبل في جهنم، لا ينجي منه إلا هذه الأعمال ونحوها - قاله ابن عباس، وقتادة، وكعب» - ورجح ابن القيم ((٣) / (٣٠٨)) القول الثاني - مستندا إلى أقوال السلف، والنظائر - قائلا: «فهذا القول أقرب إلى الحقيقة، والآثار السلفية، والمألوف من عادة القرآن في استعماله: (وما أدراك) في الأمور الغائبة العظيمة كما تقدم» - .

(وما أدراك ما العقبة (١٢))

(١) ".

"لو قال صراط المنعم عليهم بالاسم لم يتبين المعنى أي من الذي أنعم إنما بين المنعم (بكسر العين) في قوله (أنعمت عليهم) لأن معرفة المنعم مهمة فالنعم تقدر بمقدار المنعم (بكسر العين) لذا أراد سبحانه وتعالى أن يبين المنعم ليبين قدرة النعمة وعظيمها ومن عادة القرآن أن ينسب الخير إلى الله تعالى وكذلك النعم والتفضل وينزه نسبة السوء إليه سبحانه (وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا) (الجن آية ١٠) والله سبحانه لا ينسب السوء لنفسه فقد يقول (إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون) (النمل آية ٤) لكن لا يقول زينا لهم سوء أعمالهم (زين لهم سوء أعمالهم) (التوبة آية ٣٧) (زين للناس حب الشهوات) (آل عمران آية ١٤) (وزين لفرعون سوء عمله) . (غافر آية ٣٧) (أفمن زين له سوء عمله) (فاطر آية ٨) (وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم) (الأنفال آية ٤٨) أما النعمة فينسبها الله تعالى إلى نفسه لأن النعمة كلها خير (ربي بما أنعمت علي) (القصص آية ١٧) (إن هو إلا عبد أنعمنا عليه) (الزخرف آية ٥٩) (وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونئا بجانبه وإذا مسه الشر كان يؤوسا) (الإسراء آية ٨٣) ولم ينسب سبحانه النعمة لغيره إلا في آية واحدة (وإذ تقول للذي انعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك) (الأحزاب آية ٣٧) فهي نعمة خاصة بعد نعمة الله تعالى عليه.

لماذا قال " المغضوب عليهم " ولم يقل أغضبت عليهم؟ جاء باسم المفعول وأسنده للمجهول ولذا ليعم الغضب عليهم من الله والملائكة وكل الناس حتى أصدقاؤهم يتبرأ بعضهم من بعض حتى جلودهم تتبرأ منهم ولذا جاءت المغضوب عليهم لتشمل غضب الله وغضب الغاضبين.." (٢)

---

(١) موسوعة التفسير المأثور المؤلف غير معروف ٢٥٥/٤٣

(٢) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل - محاضرات فاضل صالح السامرائي ص/٣٠

"أول ما يلقاك من هذا في تفسيره تأويلا لهذا الأسلوب تأويله قول الله – عز وجل –:

﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم) (البقرة:٢٩)

يقول: " لما أجمل – سبحانه وتعالى – في اول هذه الآية (ي:٢٨) أول أمرهم وأوسطه وآخره على الوجه الذي تقدم أنه منبه على الكفر ينبغي أن يكون من قبيل الممتنع لما عليه من باهر الأدلة شرع يفصله على وجه داع لهم إلى جنابه بالامتنان بأنواع الإحسان بأمر أعلى في إفادة المقصود مما قبله على **عادة القرآن** في الترقي من العالي إلى الأعلى، فساق – سبحانه وتعالى – ابتداء الخلق الذي هو من أعظم الأدلة على وحدانيته مساق الإنعام على عباده ... فقال (هو) .. (الذي خلق لكم.. ما في الأرض) بعد أن سواهن سبعا ... (جميعا) ....

ولم كانت السماء أشرف من جهة العلو الذي لايرام.... عبر في أمرها بـ" ثم " فقال (ثم استوى إلى السماء) .... (فسواهن سبع سموات) ... وخلق جميع ما فيها لكم.

فالآية من "الاحتباك":

حذف أولا كون الأراضي سبعا لدلالة الثاني عليه، وثانيا كون ما في السماء لنا لدلالة الأول عليه.

وهو فن عزيز نفيس وقد جمعت فيه كتابا حسنا ذكرت فيه تعريفه ومأخذه من اللغة وما حضرني من أمثلته من الكتاب العزيز وكلام الفقهاء وسميته: "الإدراك لفن الاحتباك "...." (١)

أبان البقاعي لنا ما كان محذوفا لدلالة القرينة المقالية عليه، ولم يبين لنا هنا الوجه البياني لحذف ما حذف وذكر ما ذكر، وكما أنه لم يبين لنا هنا تعريف (الاحتباك) وإن كان قد عرفه في موضع آت من بعد .

---

(١) ؟ ١ – نظم الدرر: ج١ص٢١٩ – ٢٢٥..." (١)

"خصوصية سورة النور في استفتاحها

استفتح الله تبارك وتعالى هذه السورة بتنبيه العباد إلى فضلها، وعلو مكانها ومنزلتها.

فقال جل من قائل بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم ﴿سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون﴾ [النور: ١] قد كان من **عادة القرآن** أن تستفتح السور فيه بمقاصده، ويذكر الله عز وجل فيها ما يذكره، ولكن هذه السورة خاصة استفتحها الله عز وجل بتنبيه العباد على عظيم

---

(١) الإمام البقاعي ومنهاجه في تأويل بلاغة القرآن محمود توفيق محمد سعد ص/٢٨٦

شأنها، ولذلك اعتبر من خصائص سورة النور أن الله عز وجل استفتحها ببيان فضلها، فهذه منزلة لسورة النور لم تشاركها فيها غيرها من سور القرآن.." (١)

"كقوله تعالى: ﴿يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها﴾ (الحديد/٤) للتضاد بين القبض والبسط، والولوج والخروج، والنزول والعروج، وشبه التضاد بين السماء والأرض. ومما فيه مناسبة التضاد: ذكر الرحمة بعد العذاب، والرغبة بعد الرهبة – أو العكس – وقد جرت **عادة القرآن** إذا ذكر أحكاما، ذكر بعدها وعدا ووعيدا؛ ليكون باعثا على العمل بها، ثم يذكر آيات توحيده وتنزيهه، ليعلم عظمة الآمر والناهي.. وهذا كما في سورة البقرة والنساء والمائدة.

.. وإن لم تكن معطوفة؛ فلا بد من رابطة تؤذن باتصال الكلام، وهي قرائن معنوية تؤذن بالربط، وله أسباب: أولها التنظير: لأن إلحاق النظير بالنظير من شأن العقلاء، وذلك كقوله تعالى في الآية الخامسة من سورة الأنفال: ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق﴾ عقب قوله في الآية الرابعة منها: ﴿أولئك هم المؤمنون حقا﴾ .. فإنه تعالى أمر رسوله (أن يمضي في قسمة الغنائم على كره من أصحابه، كما مضى في خروجه من بيته لطلب العير أو القتال على كره منهم، وقد كان في الخروج النصر والغنيمة، فهكذا يكون ما فعله في القسمة.. فليطيعوا ما أمروا به، وليتركوا هوى أنفسهم.

وثانيها المضادة: كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿إن الذين كفروا سواء عليهم﴾ (الآية/٥) ، فإن أول السورة كان حديثا عن القرآن، وأن من شأنه الهداية للقوم الموصوفين بالإيمان، فلما أكمل وصفهم، عقب بحديث الكافرين، فبينهما جامع وهمي يسمى بالتضاد، فإن قيل: هذا جامع بعيد؛ لأن الحديث عن المؤمنين أتى بالعرض لا بالذات، والمقصود بالذات إنما هو الحديث عن القرآن، فالجواب: أنه." (٢)

"المسجد الحرام

اعتراض بين قوله: كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله وقوله المفسر له: كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة.

وقوله: عند المسجد الحرام المراد به جميع الحرم كما هي **عادة القرآن** إلا ما استثني، فالعندية فيه على حذف مضاف، أي عند قرب المسجد الحرام، وكان ذلك العهد يوم الحديبية سنة ست.

فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم أي فمهما يستقم لكم هؤلاء فاستقيموا لهم. أو فاستقيموا لهم مدة استقامتهم

---

(١) تفسير سورة النور محمد المختار الشنقيطي ٧/١

(٢) مصابيح الدرر في تناسب آيات القرآن الكريم والسور عادل بن محمد أبو العلاء ص/٩٠

لكم، إذ لا يجوز أن يكون الغدر ونقض العهد من قبلكم.
وقوله: إن الله يحب المتقين تعليل لوجوب الامتثال، وتبيين على أن مراعاة العهد من باب التقوى، وأن التسوية بين الغادر والوفي منافية لذلك وإن كان المعاهد مشركا.
ومما يستفاد من هذه الآية: أن العهد المعتد به عند الله وعند الرسول هو عهد غير الناكثين، وأن من استقام على عهده نعامله بمقتضاه، وأن مراعاة العهد من تقوى الله التي يرضاها لعباده.
قال الله تعالى: ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون (١٧) إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين (١٨)
لما بدأ الله سبحانه وتعالى سورة التوبة بذكر البراءة من المشركين وبالغ في إيجاب ذلك بتعداد فضائحهم وقبائحهم أراد أن يحكي شبهاتهم التي كانوا يحتجون بها في أن هذه البراءة غير جائزة، مع الجواب عنها. ومما
يروى في سبب النزول عن ابن عباس أنه لما أسر العباس يوم بدر عيره المسلمون بالكفر وقطيعة الرحم، فأغلظ علي له القول، فقال العباس: ما لكم تذكرون مساوينا ولا تذكرون محاسننا، فقال له علي رضي الله عنه: ألكم محاسن؟
فقال: نعم، إنا لنعمر المسجد الحرام، ونحجب الكعبة ونسقي الحاج. فأنزل الله عز وجل ردا على العباس: ما كان للمشركين
إلخ «١» والمراد أنها تتضمن الرد على ذلك القول الذي كان يقوله ويفخر به هو وغيره من كبراء المشركين أيضا، لا أنها نزلت عند ما قال ذلك لأجل الرد عليه في أيام بدر، بل نزلت في ضمن السورة بعد الرجوع من غزوة تبوك.

---

(١) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره جامع البيان (١٠/ ٦٦) .." (١)
"لدينهم، وأبعد بهم عن الريبة. وأفعل التفضيل هنا للمبالغة في أن غض الأبصار وحفظ الفروج يطهران النفوس من دنس الرذائل، أو أن المفاضلة على سبيل الفرض والتقدير، أو باعتبار ظنهم أن في استيفاء اللذة نفعا.

---

(١) تفسير آيات الأحكام للسايس محمد علي السايس ص/٤٤٤

إن الله خبير بما يصنعون الخبرة: العلم القوي الذي يصل إلى بواطن الأشياء، ويكشف عن دخائلها، فالله خبير بما يصنعون. عليم علما تاما بظواهر أعمالهم وبواطنها، لا تخفى عليه من ذلك خافية، وهو وعيد وتهديد على مثال ما سبق.

قال الله تعالى: وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون (٣١) جرت عادة القرآن الكريم في التكاليف العامة والآداب التي تشمل نوعي الذكور والإناث أن يوجه الأمر والنهي، ويصرف الخطاب إلى جماعة الذكور، وتكون النساء داخلات في الحكم بطريق تغليب الرجال عليهن، أو بطريق المقايسة.

وقد يكون للنساء حكم يخصهن، فيفردن بالذكر من أجله. وعلى هذه الطريقة جاء قوله تعالى: وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن الآية، لأنهن زدن عن الرجال أحكاما تخصهن، وهي النهي عن إبداء زينتهن إلا ما استثنى الله تعالى. والأمر بإرخاء خمرهن على جيوبهن، والنهي عن كل فعل يلفت النظر إلى زينتهن، وينبه الناس عليها.

أمرت هذه الآية الكريمة المرأة بغض بصرها، ولم تعين ما يجب غض البصر عنه، كما أن الآية السابقة لم تعين ما يجب على الرجال غض أبصارهم عنه، وقد تكفلت السنة ببيان ذلك، فحظرت على المرأة أن تنظر من غير زوجها إلى ما بين السرة والركبة، سواء في ذلك الرجال والنساء، وسواء أكان ذلك بشهوة أم بغير شهوة، حظرت عليها أيضا أن تنظر إلى شيء من بدن الرجل بشهوة. كل هذا محل اتفاق بين الفقهاء جميعا.

أما نظرها إلى ما تحت الركبة وفوق السرة فقد اختلفت الروايات فيه.

فأخرج أحمد وأبو داود والنسائي والترمذي وصححه عن أم سلمة قالت: كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم وميمونة، فأقبل ابن أم مكتوم حتى دخل عليه، وذلك بعد أن أمر بالحجاب، فقال." (١)

"وقيل: إن هذه الحروف جاءت ليدل كل حرف منها على اسم من أسمائه تعالى، أو أنها لو وصلت صارت اسما من أسماء الله تعالى. وهما منقولان عن ابن عباس. فقد ورد عنه أنه قال: الم: «أنا الله أعلم».

---

(١) تفسير آيات الأحكام للسايس محمد علي السايس ص/٥٨٢

وقيل: إن الألف من «الله»، واللام من «لطيف»، والميم من «مجيد».

ومثال وصلها ببعضها ما ورد عن ابن عباس: «الر» و «حم» و «ن» هي الرحمن.

واستشهدوا لهذا بأن العرب قد تستعمل الحرف تريد به الكلمة، كقول الشاعر:

فقلت لها قفي ... فقالت ق.

أي وقفت.

والذي يترجح عندنا من هذه الأقوال وغيرها هو المذهب الأول، وذلك لما ذكرنا من الأدلة، ولأنه أقرب المذاهب لاستعمال العرب، وإفادة الكلام.

أما الرأي الثاني الذي يجعلها إشارة فقط إلى إعجاز القرآن، لأن القرآن مؤلف من هذه الحروف وغيرها، وكلامكم هو كذلك، وحيث عجزتم عن الإتيان بمثله فقد ثبت أنه كلام الله، فهذا الرأي له مؤيدات كثيرة.

منها: أن عدد السور التي افتتحت بحروف التهجي تسع وعشرون، وهو عدد حروف الهجاء إذا جعلنا الهمزة والألف حرفين، وعدد الحروف الواردة فيها هو/ ١٤/ أي نصف الحروف، وأنها جاءت على نظام تركيب الكلمة عند العرب، منها ما هو حرف واحد، ومنها اثنان، وثلاثة، وأربعة، وخمسة.

ومن أقوى ما يؤيد به هذا الرأي أن **عادة القرآن** أن يذكر بعد هذه الافتتاحيات القرآن وعظمته، إلا مواضع قليلة هي ثلاثة.

لكنه بعد ما فسر الرأي الأول بأن هذه الفواتح أسماء للسور سميت بها إشارة للإعجاز فقد أصبح الرأي الأول يتضمن هذا الثاني، وهو بذلك أقرب منه، لما فيه من إفادة معنى مراد، ليس مجرد الرمز والإشارة.." (١)

"فإذا كان الارتباط ظاهرا -كأن تكون الثانية مؤكدة للأولى أو مكملة لها- فالأمر هين. وإن لم يظهر وجه الربط بأن تكون كل آية أو جملة في موضوع مختلف. فإن وجد حرف عطف بحثنا عن الجهة الجامعة؛ إذ لا بد منها عند العطف؛ كقوله: ﴿والله يقبض ويبسط﴾ فالجهة الجامعة التضاد.

وقد جرت **عادة القرآن** إذا ذكر أحكاما ذكر بعدها وعدا ووعيدا؛ ليكون باعثا على العمل، ثم يذكر آيات توحيد وتنزيه؛ ليعلم عظم الآمر والناهي.

وإن لم يوجد حرف العطف، فلا بد من دعامة يعتمد عليها في الربط، وهي قرينة معنوية يدركها المستنبط ببصيرته النفاذة؛ كإلحاق النظير بالنظير في قوله تعالى من سورة الأنفال: ﴿قل الأنفال لله والرسول فاتقوا

---

(١) علوم القرآن الكريم - نور الدين عتر نور الدين عتر ص/١٥٧

الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾ .

ثم بين أوصافهم، وختم ذلك بقوله: ﴿أولئك هم المؤمنون حقا﴾ ..

وذكر جزاءهم فقال: ﴿لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم، كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون﴾ .

والتنظير هنا في أن الغنائم لما انتزعت من أيدي المجاهدين في أول الأمر وجعلت لله والرسول؛ تألم بعضهم لحرمانه منها. فألحق الله ذلك بكراهيتهم للخروج إلى الجهاد في أول الأمر، وتبينهم بعد ذلك أن في الخروج الغنيمة والنصر وعز الإسلام وهلاك الأعداء؛ كأنه يقول: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم﴾ ..

ومن أمثلة الروابط: التضاد وشبهه؛ كالحديث عن الكافرين بعد المؤمنين وعكس ذلك هو كثير في القرآن..." (١)

"دقيقا، وهو أن قائل هذا الكلام، رغم تمنيه تأجيل موته قليلا، يعلم أن الاستجابة لأمنيته أمر مستبعد، كيف ذلك؟ المعروف أن "إن" الشرطية تدل على استبعاد وقوع الشرط أو استحالته، ومعنى الكلام على أساس جزم "أكن" هو: "لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق، وإن حدث هذا أكن من الصالحين". أي أنه يعرف أن تأخير موته إلى أجل قريب هو من الاستحالة بمكان. ألم يقل القرآن: ﴿إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ ؟ ألم يكن جواب الله على من سأله الخروج من النار والرجوع إلى الدنيا لعله يعمل صالحا ينجيه مما هو فيه من عذاب النار: ﴿كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾ ؟ ألم يعقب القرآن على من نطقوا بكلمة الإيمان في سقر قائلا: "أنى لهم التناوش (أي كيف يمكنهم أن يفوزوا بالإيمان) من مكان بعيد (أي بعد أن انقضت الدنيا ولم يعد من سبيل إلى تدارك ما فات) ؟ "؟ وعلى عادة القرآن الكريم نراه قد أدى هذا المعنى بغاية الإيجاز، إذ لم يفعل أكثر من تسكين نون "أكون" بدلا من فتحها. وهذه هي." (٢)

"الأفكار التي يستحيل خطورها في عقل أي شاعر جاهلي سواء كان المراد أن القمر قد انشق فعلا كما تقول بعض الروايات الخاصة بأسباب نزول الآية الأولى من سورة "القمر" أو كان المراد مجرد الإشارة إلى أن القمر سينشق مستقبلا مع قيام الساعة على عادة القرآن في استعمال الفعل الماضي في كثير من

---

(١) الأصلان في علوم القرآن محمد عبد المنعم القيعي ص/٦١

(٢) عصمة القرآن الكريم وجهالات المبشرين إبراهيم عوض ص/٣٧

الأحيان للدلالة على أحداث القيامة والعالم الآخر. ذلك أنه على المعنى الأول يكون "انشقاق القمر" معجزة من المعجزات، والجاهليون لم يكونوا يؤمنون بالمعجزات، أما على المعنى الثاني فحتى الطائفة الضئيلة التي كانت تعتقد، كما قلنا، اعتقادا عاما في العالم الآخر لم يكن في ذهنها أن انشقاق القمر هو من مقدمات القيامة، فما بالنا بامرئ القيس؟

ولقد نقبت ذات يوم في أشعار الجاهلية للبحث عن كلمة "العيد" فلم أجد إلا شاهدين اثنين لا غير، أما عبارة "يوم العيد" بأكملها فلا وجود لها في ذلك الشعر. ثم هل يقول الجاهليون في أشعارهم ما جاء في البيت الأول مما لا يستطيع الإنسان أن يعقل له معنى من أن القمر قد انشق عن غزال صاد قلب الشاعر ونفر، أو ما جاء في البيت الرابع من أن ذلك الغلام قد فر عن الشاعر كهشيم المحتظر؟ أم هل كان من الممكن أن يتصوروا كتابة منقوشة على وجنة إنسان؟ إن هذا من مظاهر الترف الحضاري الذي لم يكن ليخطر لهم على بال! أم هل." (١)

"موطن آخر: ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم﴾ ١. يجد أن القرآن الكريم يحرم تعدد الزوجات، وكل ما في الأمر أن صيغة هذا التحريم وردت على **عادة القرآن** في عبارات هي أقصى ما يمكن من الاستدراج والتلطيف. فإن الآية الأولى، واضح لكل متذوق أنها هزء وسخرية ممن يريد تعدد الزوجات وأن فيها إيكال الأمر لمن يعلم الله أنه لا يستطيع القيام بالأمر، فمخاطبة غير المستطيع بما هو من شأن المستطيع تلك كلها سخرية بالمخاطب: ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾
.

إلى أن زعم: "ثم في ذلك الموطن الآخر عبر هذه الفكرة تعبيرا هو من أشد ما يكون بيانا للواقع الذي يعلمه هو فقال: ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم﴾ و"لن" كما يقرر النحاة هي أشد أدوات النفي للمستقبل إذ تنفيه نفيا باتا.

فالقرآن يسجل بصريح العبارة أن الاستطاعة مستحيلة، أي أن العلة المتوهمة للتصريح بالتعدد لن تتحقق أبدا والمقرر عند الفقهاء من عقليين وحرفيين أنه متى زالت العلة زال المعلول".

ثم صرح برأيه فقال: "إذن فرأيي الذي ألي الله عليه هو أني مأمور ديانة بأن أكون من معتنقي مذهب الاقتصار على زوجة واحدة".

وصرح بموقفه من المشروع ذاك وذهب إلى أبعد مما ذهب إليه المشروع فقال: "ومن أجل هذا لا أوافق

---

(١) عصمة القرآن الكريم وجهالات المبشرين إبراهيم عوض ص/١٦٠

البتة على طريقة المشروع تلك الطريقة التي يراد بها عدم تعدد الزوجات ولكن بسبل ملتوية يراد لها قطع أسباب الاعتراض ممن يظنون أن لهم على خلاف نصوص القرآن الصريحة حق الاعتراض. ومن أجل هذا أرجو ألا تسير الحكومة في مثل هذا المشروع بل تأتي للأمر فتعالجه من

---

١ سورة النساء: من الآية ١٢٩.." (١)

"المبحث الثاني ترابط الآيات في سورة «النور» «١»

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة النور بعد سورة الحشر، ونزلت سورة الحشر بين صلح الحديبية وغزوة تبوك، فيكون نزول سورة النور في ذلك التاريخ أيضا.

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم، لقوله تعالى في الآية ٣٥ منها: الله نور السماوات والأرض، وتبلغ آياتها أربعا وستين آية.

الغرض منها وترتيبها

غرض هذه السورة بيان بعض الأحكام العملية، التي تتعلق بحفظ الفروج والأعراض، كحكم الزنا والقذف والنظر، وغيره من الأحكام الآتية فيها، وقد جاء فيها، من الاستطراد، ما قصد به تنويع أسلوبها، على **عادة القرآن**، إذا أخذ في بيان هذه الأحكام.

وقد ذكرت هذه السورة بعد السورة السابقة، لأنها ابتدئت بذكر بعض أحكام الإيمان العملية، على سبيل الإجمال، وكان من ضمنها حفظ الفروج إلا على الأزواج أو نحوهم فجاءت هذه السورة بعدها، لتفصيل الأحكام المتعلقة بحفظ الفروج والأعراض.

حكم الزنا الآيات [١- ٣]

قال الله تعالى: سورة أنزلناها وفرضناها

---

(١) اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر فهد الرومي ١٠٦٨/٣

(١) . انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفني في القرآن» ، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجمايز- المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرخ.." (١)

"٣] ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ [الأنعام: من الآية٩٠] وللتحذير من مساويهم قال ﴿وتبين لكم كيف فعلنا بهم﴾ [ابراهيم: ٤٥] وفي خلالها تعليم، وكنا أشرنا إليها في المقدمة الثانية.

السادس : التعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين، وما يؤهلهم إلى تلقي الشريعة ونشرها وذلك علم الشرائع وعلم الأخبار وكان ذلك مبلغ علم مخالطي العرب من أهل الكتاب. وقد زاد القرآن على ذلك تعليم حكمة ميزان العقول وصحة الاستدلال في أفانين مجادلاته للضالين وفي دعوته إلى النظر، ثم نوه بشأن الحكمة فقال ﴿يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا﴾ [البقرة: ٢٦٩] وهذا أوسع باب انبجست منه عيون المعارف، وانفتحت به عيون الأميين إلى العلم. وقد لحق به التنبيه المتكرر على فائدة العلم، وذلك شيء لم يطرق أسماع العرب من قبل، إنما قصارى علومهم أمور تجريبية، وكان حكماؤهم أفرادا اختصوا بفرط ذكاء تضم إليه تجربة وهم العرفاء فجاء القرآن بقوله ﴿وما يعقلها إلا العالمون﴾ [العنكبوت: ٤٣] و ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ [الزمر: من الآية٩] وقال ﴿ن والقلم﴾ [القلم:١] فنبه إلى مزية الكتابة.

السابع : المواعظ والإنذار والتحذير والتبشير، وهذا يجمع جميع آيات الوعد والوعيد، وكذلك المحاجة والمجادلة للمعاندين، وهذا باب الترغيب والترهيب.

الثامن : الإعجاز بالقرآن ليكون آية دالة على صدق الرسول؛ إذ التصديق يتوقف على دلالة المعجزة بعد التحدي، والقرآن جمع كونه معجزة بلفظه ومتحدي لأجله بمعناه والتحدي وقع فيه ﴿قل فأتوا بسورة مثله﴾ [يونس: ٣٨] ولمعرفة أسباب النزول مدخل في ظهور مقتضى الحال ووضوحه. هذا ما بلغ إليه استقرائي. وللغزالي في أحياء علوم الدين بعض من ذلك.

فغرض المفسر بيان ما يصل إليه أو ما يقصده من مراد الله تعالى في كتابه بأتم بيان يحتمله المعنى ولا يأباه اللفظ من كل ما يوضح المراد من مقاصد القرآن، أو ما يتوقف عليه فهمه أكمل فهم، أو يخدم المقصد تفصيلا وتفريعا كما أشرنا إليه في المقدمة الأولى، مع إقامة الحجة على ذلك إن كان به خفاء، أو لتوقع مكابرة من معاند أو جاهل، فلا جرم كان رائد المفسر في ذلك أن يعرف على الإجمال مقاصد القرآن مما جاء لأجله، ويعرف اصطلاحه في إطلاق الألفاظ، وللتنزيل اصطلاح وعادات، وتعرض صاحب

---

(١) الموسوعة القرآنية خصائص السور جعفر شرف الدين ٧٥/٦

الكشاف إلى شيء من عادات القرآن في متناثر كلامه في تفسيره.

فطرائق المفسرين للقرآن ثلاث، إما الاقتصار على الظاهر من المعنى الأصلي." (١)

"الإنسان ضعيفا﴾ [النساء:٢٨] إذ تسمعه يقول ﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ [فصلت:١٣] قال عياض في الشفا: إن عتبة بن ربيعة لما سمع هذه الآية أمسك بيده على فم النبي صلى الله عليه وسلم وقال له: ناشدتك الله والرحم إلا ما كففت.

عادات القرآن

يحق على المفسر أن يتعرف عادات القرآن من نظمه وكلمه. وقد تعرض بعض السلف لشيء منها، فعن ابن عباس: كل كاس في القرآن فالمراد بها الخمر. وذكر ذلك الطبري عن الضحاك أيضا.

وفي صحيح البخاري في تفسير سورة الأنفال قال ابن عيينة: ما سمى الله مطرا في القرآن إلا عذابا، وتسميه العرب الغيث كما قال تعالى ﴿وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا﴾ [الشورى: ٢٨]. وعن ابن عباس أن كل ما جاء من ﴿يا أيها الناس﴾ فالمقصود به أهل مكة المشركون.

وقال الجاحظ في البيان وفي القرآن معان لا تكاد تفترق، مثل الصلاة والزكاة، والجوع والخوف، والجنة و النار، والرغبة والرهبة، والمهاجرين والأنصار، والجن والإنس قلت: والنفع والضر، والسماء والأرض.

وذكر صاحب الكشاف وفخر الدين الرازي أن من عادة القرآن أنه ما جاء بوعيد إلا أعقبه بوعد، وما جاء بنذارة إلا أعقبها ببشارة. ويكون ذلك بأسلوب الاستطراد والاعتراض لمناسبة التضاد، ورأيت منه قليلا في شعر العرب كقول لبيد:

فاقطع لبانا من تعرض وصله ... فلشر واصل خل صرامها

واحب المجامل بالجزيل وصرمه ... باق إذا ظلعت وزاغ قوامها

وفي الكشاف في تفسير قوله تعالى ﴿فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قال قائل منهم إني كان لي قرين﴾ [الصافات:٥١] الآية: جيء به ماضيا على عادة الله في أخباره. وقال فخر الدين في تفسير قوله تعالى ﴿يوم يجمع الله الرسل﴾ من سورة العقود: [١٠٩] عادة هذا الكتاب الكريم أنه إذا ذكر أنواعا كثيرة من الشرائع والتكاليف أتبعها إما بالإلهيات وإما بشرح أحوال الأنبياء وأحوال القيامة ليصير ذلك مؤكدا لما تقدم ذكره من التكاليف والشرائع.

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٣٩/١

وقد استقريت بجهدي عادات كثيرة في اصطلاح القرآن سأذكرها في مواضعها، ومنها أن كلمة هؤلاء إذا لم يرد بعدها عطف بيان يبين المشار إليهم فإنها يراد بها." (١)

"صاحب "الكشاف": كتبت كذلك على لغة من يفخم أي ينحو بالألف منحى الواو والتفخيم عكس الإمالة، وهذا بعيد، إذ ليس التفخيم لغة قريش حتى يكتب بها المصحف. وقال المبرد: كتب كذلك للفرق بين الربا والزنا، وهو أبعد لأن سياق الكلام لا يترك اشتباها بينهما من جهة المعنى إلا في قوله تعالى: ﴿ولا تقربوا الزنى﴾ [الاسراء:٣٢] وقال الفراء: إن العرب تعلموا الخط من أهل الحيرة وهم نبط يقولون في الربا: ربو – بواو ساكنة – فكتبت كذلك، وهذا أبعد من الجميع.

والذي عندي أن الصحابة كتبوه بالواو ليشيروا إلى أصله كما كتبوا الألفات المنقلبة عن الياء في أواسط الكلمات بياءات عليها ألفات، وكأنهم أرادوا في ابتداء الأمر أن يجعلوا الرسم مشيرا إلى أصول الكلمات ثم استعجلوا فلم يطرد في رسمهم، ولذلك كتبوا الزكاة بالواو، وكتبوا الصلاة بالواو تنبيها على أن أصلها هو الركوع من تحريك الصلوين لا من الاصطلاء. وقال صاحب "الكشاف": وكتبوا بعدها ألفا تشبيها بواو الجمع. وعندي أن هذا لا معنى للتعليل به، بل إنما كتبوا الألف بعدها عوضا عن أن يضعوا الألف فوق الواو، كما وضعوا المنقلب عن ياء ألفا فوق الياء لئلا يقرأها الناس الربو.

وأريد بالذين يأكلون الربا هنا من كان على دين الجاهلية، لأن هذا الوعيد والتشنيع لا يناسب إلا التوجه إليهم لأن ذلك من جملة أحوال كفرهم وهم لا يرعوون عنها ما داموا على كفرهم. أما المسلمون فسبق لهم تشريع بتحريم الربا بقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة﴾ [آل عمران:١٣٠] وهم لا يقولون إنما البيع مثل الربا، فجعل الله هذا الوعيد من جملة أصناف العذاب خاصا للكافرين لأحل ما تفرع عن كفرهم من وضع الربا.

وتقدم ذلك كله إنكار القرآن على أهل الجاهلية إعطاءهم الربا، وهو من أول ما نعاه القرآن عليهم في مكة، فقد جاء في سورة الروم: ﴿وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون﴾ [الروم:٣٩] وهو خطاب للمشركين لأن السورة مكية ولأن بعد الآية قوله: ﴿الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء﴾

ومن **عادات القرآن** أن يذكر أحوال الكفار إغلاظا عليهم، وتعريضا بتخويف المسلمين، ليكره إياهم لأحوال

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ١/١٢٢

أهل الكفر. وقد قال ابن عباس: كل ما جاء في القرآن من ذم أحوال الكفار فمراد منه أيضا تحذير المسلمين من مثله في الإسلام، ولذلك قال." (١)

"فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين﴾

جملة ﴿قد قالها﴾ مبينة لمضمون ﴿هي فتنة﴾ [الزمر:٤٩]لأن بيان مغبة الذين قالوا هذا القول في شأن النعمة التي تنالهم يبين أن نعمة هؤلاء كانت فتنة لهم.

وضمير ﴿قالها﴾ عائد إلى قول القائل: ﴿إنما أوتيته على علم﴾ [الزمر:٤٩]،على تأويل القول بالكلمة التي هي الجملة كقوله تعالى: ﴿قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها﴾ [المؤمنون:٩٩,١٠٠].

و ﴿الذين من قبلهم﴾ هم غير المتدينين ممن أسلفوا ممن علمهم الله،ومنهم قارون وقد حكى عنه في سورة القصص أنه قال ذلك.

والمراد ب ﴿ما كانوا يكسبون﴾ ما كسبوه من أموال.وعدم إغنائه عنهم أنهم لم يستطيعوا دفع العذاب بأموالهم.والفاء في ﴿فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ لتفريع عدم إغناء ما كسبوه على مقالتهم تلك فإن عدم الإغناء مشعر بأنهم حل بهم من السوء ما شأن مثله أن يتطلب صاحبه الافتداء منه،فإذا كان ذلك السوء عظيما لم يكن له فداء،ففي الكلام إيجاز حذف يبينه قوله بعده: ﴿فأصابهم سيئات ما كسبوا﴾ . ففاء ﴿فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ مفرعة على جملة)ما أغنى عنهم(، أي تسبب على انتفاء إغناء الكسب عنهم حلول العقاب بهم.وكان مقتضى الظاهر في ترتيب الجمل أن تكون جملة ﴿فأصابهم سيئات ما كسبوا﴾ مقدمة على جملة ﴿فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ ،لأن الإغناء إنما يترقب عند حلول الضير بهم فإذا تقرر عدم الإغناء يذكر بعده حلول المصيبة،فعكس الترتيب على خلاف مقتضى الظاهر لقصد التعجيل بإبطال مقالة قائلهم: ﴿إنما أوتيته على علم﴾ [الزمر:٤٩]،أي لو كان لعلمهم أثر في جلب النعمة لهم لكان له أثر في دفع الضر عنهم.

والإشارة ب ﴿هؤلاء﴾ إلى المشركين من أهل مكة وقد بينا غير مرة أننا اهتدينا إلى كشف عادة من **عادات القرآن** إذا ذكرت فيه هذه الإشارة أن يكون المراد بها المشركون من قريش.وإصابة السيئات مراد بها في الموضعين إصابة جزاء السيئات وهو عقاب الدنيا وعقاب الآخرة لأن جزاء السيئة سيئة مثلها.

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٥٤٨/٢

والمعجز:الغالب،وتقدم عند قوله تعالى: ﴿إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين﴾ في سورة الأنعام[١٣٤]،أي ما هم بمعجزينا،فحذف مفعول اسم الفاعل." (١)

"الحكمة من ترتيب الدواب المذكورة في قوله تعالى: ژ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟؟ ؟ ؟ ٹ ٹ ٹ ٹ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟؟ ژ [النور:٤٥]، كما يراها الزمخشري: " هي لتقديم ما هو أعرق في القدرة: وهو الماشي بغير آلة مشي من أرجل أو قوائم، ثم الماشي على رجلين، ثم الماشي على أربع"(١).

وقال أبو حيان عن الترتيب في الآية الكريمة: ژ ؟ ں ں ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ژ [البقرة:٩٨]:" وهذا الترتيب في غاية الحسن؛ فابتدئ بذكر الله، ثم بذكر الوسائط التي بينه وبين الرسل، ثم بذكر الوسائط التي بين الملائكة وبين المرسل إليهم، فهذا ترتيب بحسب الوحي، ولا يدل تقديم الملائكة في الذكر على تفضيلهم على رسل بني آدم، لأن الترتيب الذي ذكرناه هو ترتيب بحسب الوسائط، لا بالنسبة التفضيل"(٢).

وعند قوله تعالى ژ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ں ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ژ [البقرة: ٢٨٥]، قال:" وهذا الترتيب في غاية الفصاحة؛ لأن الإيمان بالله هو المرتبة الأولى، وهي التي يستبد بها العقل؛ إذ وجود الصانع يقر به كل عاقل، والإيمان بالملائكة هي المرتبة الثانية؛ لأنهم كالوسائط بين الله وعباده، والإيمان بالكتب: هو الوحي الذي يتلقنه الملك من الله يوصله إلى البشر، هي المرتبة الثالثة، والإيمان بالرسل الذين يقتبسون أنوار الوحي فهم متأخرون في الدرجة عن الكتب، هي المرتبة الرابعة"(٣).

ويضاف إلى ذلك أن تأخير الرسل هو أيضا بسبب ما بعدها من الحديث عن عدم التفريق بين أحد منهم. والدرجات التي يتحدث عنها أبو حيان هي مراتب لأركان الإيمان، لا درجات ومراتب المذكورين، كما بين ذلك في الآية السابقة.

ثالثا: المناسبة بين الفاصلة والآية:

والحديث هنا يتضمن المناسبة بين الفاصلة والآية، وبعض **العادات القرآنية** في تقديم الأسماء الحسنى أو تأخيرها، وسر التغاير في بعض الأحيان، ومن الأمثلة على ذلك:

---

(١) ...الزمخشري، الكشاف،(٣/٢٤٠).

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٢٤/١١٠

(٢) ...أبو حيان، البحر المحيط، (٥١٦/١).

(٣) ...أبو حيان، البحر المحيط، (٧٦٥/٢).." (١)

"[١] قيل: كرر الأمر على جهة التغليظ وتأكيده كما تقول لرجل: قم قم (١) . والتكرير لأجل التغليظ ليس بتوجيه وجيه؛ فقد ذكر الله تعالى أنه تاب على آدم – عليه السلام – قبل الآية الثانية التي فيها جملة: ، ولا يوجد دليل على أن هذا التوبة كانت بعد إنزاله إلى الأرض؛ بل ظاهر القرآن أنها كانت وهو ما زال في الجنة، فكيف يغلظ عليه بعد أن تاب عليه؟

[٢] التكرير لأجل الربط في نظم الكلام، فهو قول واحد له مدلول واحد تكرر لربط الكلام لا لأمر معنوي، فكرر "الأمر لما علق بكل أمر منهما حكما غير حكم الآخر، فعلق بالأول العداوة، وبالثاني إتيان الهدى" (٢) ، "فيكون هذا التكرير لمجرد اتصال ما تعلق بمدلول [البقرة: ٣٦]، وذلك قوله [البقرة: ٣٦]، وقوله [البقرة: ٣٨] إذ قد فصل بين هذين المتعلقين ما اعترض بينهما من قوله

[البقرة: ٣٧]، فإنه لو عقب ذلك بقوله [البقرة: 83] لم يرتبط كمال الارتباط، ولتوهم السامع أنه خطاب للمؤمنين على عادة القرآن في التفنن (٣) ، فلدفع ذلك أعيد قوله [البقرة: ٣٨].

---

(١) تفسير القرطبي، ٣٦٨/١، فتح القدير، ١٠٨/١.

(٢) تفسير القرطبي، ٣٦٨/١.

(٣) **عادات القرآن**: هي أساليبه التي تميز بها، وجرت في نظمه وكلمه مجرى العادة. وتعرض لها بعض المفسرين كالزمخشري، وهي مبثوثة في تفسيره، وأشار إليها ابن عاشور في المقدمة. انظر: التحرير والتنوير، ٥٩/١.." (٢)

"صفحة : ٢٠

فغرض المفسر بيان ما يصل إليه أو ما يقصده من مراد الله تعالى في كتابه بأتم بيان يحتمله المعنى ولا يأباه اللفظ من كل ما يوضح المراد من مقاصد القرآن، أو ما يتوقف عليه فهمه أكمل فهم، أو يخدم المقصد تفصيلا وتفريعا كما أشرنا إليه في المقدمة الأولى، مع إقامة الحجة على ذلك إن كان به خفاء، أو

---

(١) التناسب في سورة البقرة، المؤلف غير معروف ٤/٣

(٢) فن التوجيه عند المفسرين، المؤلف غير معروف ص/٢٦

لتوقع مكابرة من معاند أو جاهل، فلا جرم كان رائد المفسر في ذلك أن يعرف على الإجمال مقاصد القرآن مما جاء لأجله، ويعرف اصطلاحه في إطلاق الألفاظ، وللتنزيل اصطلاح وعادات، وتعرض صاحب الكشاف إلى شيء من **عادات القرآن** في متناثر كلامه في تفسيره.

فطرائق المفسرين للقرآن ثلاث، إما الاقتصار على الظاهر من المعنى الأصلي للتركيب مع بيانه وإيضاحه وهذا هو الأصل. وإما استنباط معان من وراء الظاهر تقتضيها دلالة اللفظ أو المقام ولا يجافيها الاستعمال ولا مقصد القرآن، وتلك هي مستتبعات التراكيب وهي من خصائص اللغة العربية المبحوث فيها في علم البلاغة ككون التأكيد يدل على إنكار المخاطب أو تردده، وكفحوى الخطاب ودلالة الإشارة واحتمال المجاز مع الحقيقة، وإما أن يجلب المسائل ويبسطها لمناسبة بينها وبين المعنى، أو لأن زيادة فهم المعنى متوقفة عليها، أو للتوفيق بين المعنى القرآني وبين بعض العلوم مما له تعلق بمقصد من مقاصد التشريع لزيادة تنبيه إليه، أو لرد مطاعن من يزعم أنه ينافيه لا على أنها مما هو مراد الله من تلك الآية بل لقصد التوسع كما أشرنا إليه في المقدمة الثانية.." (١)

"ومن أساليب القرآن المنفرد بها التي أغفل المفسرون اعتبارها أنه يرد فيه استعمال اللفظ المشترك في معنيين أو معان إذا صلح المقام بحسب اللغة العربية لإدارة ما يصلح منها، واستعمال اللفظ في معناه الحقيقي والمجازي إذا صلح المقام لإرادتهما، وبذلك تكثر معاني الكلام مع الإيجاز وهذا من آثار كونه معجزة خارقة لعادة كلام البشر ودالة على أنه منزل من لدن العليم بكل شيء والقدير عليه. وقد نبهنا على ذلك وحققناه في المقدمة التاسعة. ومن أساليبه الإتيان بالألفاظ التي تختلف معانيها باختلاف حروفها أو اختلاف حركات حروفها وهو من أسباب اختلاف كثير من القراءات مثل)وجعلوا الملائكة الذين هم عند الرحمان إناثا(قرئ)عند(بالنون دون ألف وقرئ)عباد(بالموحدة وألف بعدها، ومثل)إذا قومك منه يصدون(بضم الصاد وكسرها.

وقد أشرنا إلى ذلك في المقدمة السادسة.

واعلم أن مما يندرج تحت جهة الأسلوب ما سماه أئمة نقد الأدب بالجزالة، وما سموه بالرقة وبينوا لكل منهما مقاماته وهما راجعتان إلى معاني الكلام، ولا تخلو سورة من القرآن من تكرر هذين الأسلوبين، وكل منهما بالغ غايته في موقعه، فبينما تسمعه يقول)قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم(ويقول)يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان

---

(١) مقدمة التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٥٢/٢

ضعيفا(إذ تسمعه يقول)فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود(قال عياض في الشفا: إن عتبة بن ربيعة لما سمع هذه الآية أمسك بيده على فم النبي صلى الله عليه وسلم وقال له: ناشدتك الله والرحم إلا ما كففت.

عادات القرآن

يحق على المفسر أن يتعرف **عادات القرآن** من نظمه وكلمه. وقد تعرض بعض السلف لشيء منها، فعن ابن عباس: كل كاس في القرآن فالمراد بها الخمر. وذكر ذلك الطبري عن الضحاك أيضا.." (١)
"

(١) مقدمة التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ١٨١/٢